"سينال كل منا ما يستحقه"

بنات الصين

يي ماي

ترجمة: ياسمين مصطفى



قصص قصيرة مترجمة



بنات الصين

بنات الصين

تأليف: يي مِاي

ترجمة: ياسمين مصطفى

الطبعة الأولى: 2018

رقم الإيداع: 28120 / 2017

الترقيم الدولي: 9789773193850

الغلاف: عصام أمين

تحرير: إيزيس عاشور

مراجعة لغوية: محمد حامد بكر



60 شارع القصر العيني – 11451 - القاهرة

ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

يي مِاي

بنات الصين

رواية من الصين

ترجمة: ياسمين مصطفى



This edition published in 2018

by Wisdom House

《妹娃要过河》（阿文）

بطاقة فهرسة

يي ماي

بنات الصين: رواية من الأدب الصيني / يي ماي، ترجمة ياسمين مصطفى.

– القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2017،

ص؛ س.

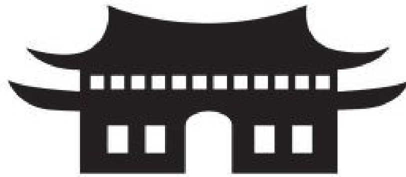
تدمك 9789773193850

1- القصص الصينية

أ- مصطفى، ياسمين (مترجم)

895,3

شيخ القبيلة





لم يلحظ أحدٌ الغريبَ. رجلٌ من خارج المدينة. وافدٌ يقف وحده أعلى الجبل، يبحث عن نهر "قوارب التنين" بعينين غير مألوفتين.

كان الليل والنهار مُتساويين في هذا الوقت. وبعد انهمار المطر المتواصل طوال الليل، أتى النهار مُشمسًا جميلًا. عندما ارتفعت الشمس، اجتمع سُكَّان نهر "قوارب التنين"، الكبير والصغير، على صوت قرع الطبول الجلدية. جاء الصوت الأول للطبول مثل الرعد. بُهر الوافد الجديد الواقف أعلى الجبل. تحرَّكت الجموع أسفل الجبل مثل المد والجزر وهم يصيحون:

- أوووه – هيبي.

ومع صوت قرع الطبول الثاني، أحضروا بقرة. كان فروها وجلدها يلمعان، وكانت عيناها السوداوان جاحظتين مثل الجواهر. صنعوا كرة من شرائط الحرير الأحمر وربطوها برأس البقرة، حتى بدت مثل العروس. وقفت البقرة بثبات، باتِّجاه الغرب، بنظرة مُسالمة على وجهها.

ثم دوَّى صوت الطبول للمرَّة الثالثة، لكنه لم يتوقَّف هذه المرَّة، كان كصهيل أحصنة تُهرول في ساحة معركة، تزداد سُرعة. بعد الطرق، ظهر الكاهن يرتدي رداءً باللونين الأحمر والأزرق، وفي يده جرس برونزي، جرس الكنوز الثمانية.

وجاء رجل قوي، وجَّه سكينه نحو رقبة البقـرة، ثـم نحرهـا. ارتفعـت نـافورة الـدَّم في السـماء وغطَّت الشمس. فوجئ الوافد بما رأى، ونسي جرحه وألمه.

"آه – يوم الإله "شه با"!

آه – يوم الإله "شه با"، يوم الإله "شه با"...".

رقص المُهلِّلون حول الطبل، بأجساد نصف عارية. كانت هناك حبال من العُشب مربوطـة حول خصورهم، وعصيان بين أرجلهم. أحيانًا ينظرون إلى السماء، وأحيانًا أخـرى يركعـون عـلى الأرض. كان الاحتفال مكتظًا بناس يهزُّون خصورهم ويُلوِّحون بأيـديهم. عنـد الـذروة، قفـزت سيِّدة ترتدي الأسود فجأةً من تحت الطبل. كانت عيناها تلمعان. وعلى جبهتهـا لـون قُرمـزي لامع، يبدو مثل دم البقر. كان زيُّها الأسود مُطـرَّزًا بخيـوط حمـراء عريضـة مثـل كُـرتي لهـب. قفزت السيِّدة حول البقرة المذبوحة وهي تنثر كُرتي الـلـهب في كل مكـان. امتزجـت أصـوات أنفاس الناس الثقيلة مع أصوات قرع الطبول، مثل حطب يحترق في مدفأة. كانـت روح النـار لا تزال تتلوَّى وتتلفَّت وتُدير الجبـل شـديد الـخضرة، حتـى أنـه بـدا أسـودَ، والميـاه الـخضراء شديدَة الخضرة، حتى بدت بيضاء، تجمعهما النار معًا صوب الشمس.

وجد الوافد نفسه يذوب تدريجيًّا في شعور الدُّوار المُرهق. وعندما أفاق، وجد نفسه مُحاطًا بظُلمة حالكة. شعر بذهنه صافيًا بعد قسط جيِّـد مـن النـوم، كـما شعر فجأةً بجوع شديد. نزل عن الجبل على مهل تحت غطـاء ظـلام الليـل. كـان أهل "تو چيـا" مُنـتشرين، يجلسـون حـول ثـلاث رُقعـات مـن النـيران المُشـتعلة. يُغنُّون أغنيات هادئة عذبة، ويرقصون، وينتشر صدى أصـواتهم في الجبـل، كـان

الأمر مُختلفًا عمَّا رآه وسمعه في الصباح. عرف أن هذا الغناء ترنيمة للشمس والآلهة والأرواح والأسلاف، لكن هذا لم يُثِر اهتمامه، بل أثار اهتمامه القرابين الموضوعة أسفل الطبل المصنوع من جلد البقر. فرح عندما أدرك أنه وصل إلى الطبل، من الخلف، وكان ظل الطبل يُشكِّل قناة مُؤدِّية إلى القرابين. عندما كان أهل "تو چيا" مُنهمكين في الغناء والرقص، تسلَّل هو بين الظلال دون أن يلحظه أحد. أخذ دجاجة وأسرع إلى الحشائش الطويلة، ثم تساءل هل يأكلها أوَّلًا أم يرحل.

لكن في تلك اللحظة، عادت أصوات قرع الطبول القوية. فجأةً أصبح مُحاطًا بعشرات من أهل "تو چيا" يحملون الشُّعلات في أيديهم – كأنهم خرجوا من بطن الأرض. أنارت شُعلاتهم الليل حتى أصبح نهارًا.

جلس شيخ القبيلة "تشين ياو" تحت منصَّات أسلافه، وساقاه معقودتان. كانت الألواح تحمل أسماء أجيال عائلة "تشين" الثلاثة والثلاثين. حظيت جميع تلك الأجيال بالتقديس نفسه وبالقرابين من الأحياء، إذ إن الآلهة في السماء، والأحفاد على أرض نهر "قوارب التنين" لا يمكنهم نسيان ذلك، ورغم أن إمبراطور سلالة "تشنغ" قد تخلَّى عن نظام شيخ القبيلة، فإن شيوخ القبائل ظلُّوا يتمتَّعون بالاحترام ذاته. كانت مكانتهم غير قابلة للنقاش في بدايات القرن العشرين على ضفاف نهر "قوارب التنين".

عندما أُخذ الوافد إلى شيخ القبيلة "تشين ياو"، رأى رجلًا قويًّا كالوتد، ورأسه ملفوف بقماش أسود مثل بقيَّة رجال "تو چيا". كانت يداه القصيرتان السمينتان وقدماه تبرز من فتحات ملابسه الفضفاضة، وكان وجهه مُحمرًّا، وعظام وجنتيه مرتفعتين، وحاجباه ثقيلين، وعيناه صغيرتين وغير لافتتين. كان يبدو مثل رئيس نبيل. أدرك الوافد أنه لن يكون معرَّضًا لخطر كبير، فهدأ قلبه المُضطرب.

سأله الرجل بهدوء:

- من أين أتيت؟

أجاب بسلام:

- من إقليم "وان" من مُقاطعة "سيتشوان".

- وكيف انتهى بك الحال هنا في نهر "قوارب التنين"؟

- حتى أهرب من الواجب العسكري. لقد أُصبت في ساقي من جيش "سيتشـوان" اللعـين، لم أجرؤ على السير في الطريق الرئيسي، لذا تتبَّعتُ نهر "قوارب التنين" حتى وصلت إلى هنا.

أومأ "تشين ياو"، ولاحظ ساق الوافد المُصابة؛ كان هنـاك ثُقبـان مـن طلقـة واحـدة. كـان الدَّم يسيل بعد إصابته بغزارة، قام الوافد بمضغ كثير من الأعشاب، حتى وقف النزيف أخـيرًا، لكنه لم يتمكَّن من وقف الألم الذي شعر به في قلبـه. كـان يعـرف أنـه مـن المُؤكَّـد أن الجـرح تورَّم، وكأن غُرابًا بمنقار حادٍّ ينقره دون توقُّف.

قال "تشين ياو":

- من الأفضل أن تجلس ونتحدَّث.

شعر الوافد بالامتنان، وأجاب بابتسامة ممتنَّة، ثم جلس على الأرض. أضاف "تشين ياو":

- لم أعرف اسمك بعد. هل أنت من أهل "هان"؟

أومأ الوافد، وقال:

- اســمي "لي آن"، "لي" رمــز يضــم رقــم عشرة، وثمانيــة، والابــن، ويعنــي "آن" الأمــان والطمأنينة.

قال "تشين ياو":

- أعتقد أنك لا تعرف أن اليوم هو يوم الإله "شه با" بالنسبة لنا نحن أهـل "تـو چيـا". في هذا اليوم، نتعبَّد ونُقدِّم القرابين لأجدادنا حتى نحصل عـلى حصـاد أفضـل في هـذا العـام، في أثناء تساوي الليل والنهار، كما ندعو من أجل الأمان الذي ذكرته للتَّوِّ، هل تتفهَّم أهمية هـذا اليوم؟

قال "لي آن":

- آه.

وأومأ كثيراً، ثم قال:

- لقد أوضحت الأمر يا شيخ القبيلة، إنني أتفهَّم.

لم يهتم "شيخ القبيلة" إن كان فهم أم لا:

- لأنه أمر شديد الأهمية لأهل "تو چيا"، فلن يتحمَّلوا وقوع أخطاء، أحضرنا الماء من أفضـل المنابع، واستخدمنا خشـب الصـنوبر، وجهَّزنـا ثـلاث أضـحيات مـن الحيوانـات للأسـلاف، تُقـدَّم القرابين أمام الألواح بأيدي فتيـة، وفتيـات عـذارى، بعـد أن يغتسـلوا، فـلا نجـرؤ عـلى تعـريض القرابين لأقل إصابة بالشوائب.

سكت قليلًا، ثم قال:

- هل فهمت؟

بدأ الوافد يشعر بعدم الاستقرار عندما سمع هذا.

قال "تشين ياو":

- إن كنت فهمت فهذا يعني تفهُّمك أن ما فعلتـه الليلـة قـد أسـاء إلى أجـدادنا، وجميـع آلهة نهر "قوارب التنين"، إن لم تُقدِّم اعتذارًا فسـوف تقـع كـوارث عـلى نهـر "قـوارب التنـين" خلال هذا العام.

سأل "لي آن" بصوت أجشّ:

- وماذا تريد منِّي أن أفعل؟

قال "تشين ياو" بصوت ثابت:

- هب يدك للسماء.

عندما نطق بذلك اجتمع الحشد من نهر "قوارب التنين" حولهما وبدؤوا في بناء قلعة. مرَّ بريق النيران في الأعين الصَّامتة. حمل رجلان قويَّان لوحًا ضخمًا من الخشب إلى "لي آن". كان ملطخًا ببقع الدماء، وقطع العظم الأبيض مغروسة بين شقوق الخشب. اقترب رجل قوي من "لي آن" ومعه السكين الذي قُطع به رأس البقرة.

قال "لي آن":

- من فضلكم، اتركوا لي يدي، وخذوا ساقي.

تفاجأ "تشين ياو" ورفع حاجبيه. رأى "لي آن" زوجًا من الأعين تلمع مثل النسر. سأله:

- لِمَ؟

قال "لي آن":

- أنا صاحب حرفة يدوية، أحتاج إلى يدي لأكتسب عيشي في المستقبل.

على غير المتوقع، أومأ "تشين ياو"، ووقف "لي آن" بصعوبة على ساقه المُصابة، ثم جلس على اللوح الخشبي. تحرَّك قليلًا وأزال قطعة عظم كان يجلس عليها، وكانت تُؤلمه، ثم جلس معتدلًا، ورفع ساقه المُصابة على اللوح.

قال:

- فلتقطعوها.

ورغم أنه كان يرتدي ملابس رثَّة، ومُتَّسخة، فإن وجهه الشاب أظهر هدوءه وعدم خوفه.

الروح الشجاعة المُلهمة التي تجمَّعت عند مقدمة حاجبيه لمست مشاعر شيخ القبيلة. سار إلى "لي آن" ونظر إليه بتقدير، ثم قال:

- هل أنت خائف؟

ابتسم "لي آن" بأسى، ولم يُحوِّل نظره عن عيني شيخ القبيلة.

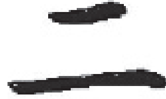
- انظر إلى العرق البارد الذي يكسوني، لقد وصلت إلى ما هو أبعد من الخوف الآن.

قال "تشين ياو":

- حسنًا، سوف أُحضر أفضل الأطبَّاء وأفضل النساء في نهر "قوارب التنين" لرعايتك.

وبإشارة بيده مرَّت ريح باردة سريعة أعقبها صوت ثقيل. نظر "لي آن" إلى الناس حوله، ونظر الناس إليه، ثم نظر إلى أسفل فوجد ساقه هناك، بها شرخ واضح عند الرُّكبة، ثم انفجر الدَّم وكأنه قادم من اللوح الخشبي، وفي ومضة عين، أصبح اللوح كله مُغطًّى بالدِّماء. فجأةً، أدرك ما حدث، لكنه فقد الوعي، وسقط في ظلام غطَّى عينيه.





عندما استيقظ "لي آن" رأى وجهًا جميلًا مُبتسمًا، بعينين بارقتين، وأسنان بيضاء، مثل زهرة مُتفتِّحة شعر أنها مألوفة بالنسبة له. خلفها كان يقف رجل نحيف. تذكَّر "لي آن" أنه الكاهن الذي رآه في الطقوس.

سألهم:

- أين ساقي؟

قال الكاهن:

- قُدِّمت للآلهة.

ضحك "لي آن":

- الساق المبتورة؟ لا بُدَّ أن آلهتكم تتمتَّع بشهيَّةٍ جيِّدةٍ.

ثم ضحك مُجدَّدًا.

ضغط الكاهن "تشين لاو أر" على رُكبته، وتظاهر أنه غير متعمِّد. جعله الألم الحاد يصرخ فورًا، بنبرة عالية حادَّة قال الكاهن:

- كانت الآلهة تعرف أنك رجل نبيه، لكن عليك أن تعرف أنه لولا دوائي ورعاية "وو نيانغ" لكنت ميتًا الآن، حتى بعد بتر ساقك.

لاحظ "لي آن" أن السيِّدة الجميلة كانت تتحرَّك حول المدفأة، أحيانًا تُحرِّك النار، وأحيانًا أخرى تُضيف الماء. كانت حركاتها أشبه بالرَّقص.

تذكَّر فجأةً أنها كانت ترقص عند النيران في احتفال يوم الإله "شه با".

قال:

- من الواضح أن شيخ قبيلتكم بالفعل طلب أفضل طبيب وأفضل سيِّدة لرعايتي، لقد أصبحت ضيفًا مُهمًّا هنا في نهر "قوارب التنين".

سارت السيِّدة إليه بذراعين طويلتين مثل حشائش المياه الجارية. تتشابك، ثم تتباعد. ترتفع، وتنخفض. أبهرت حركاتهما "لي آن".

بادرها قائلًا:

- هل أنتِ خرساء؟

توقَّف ذراعاها فجأةً.

مثل الألغاز الغامضة العديدة في نهر "قوارب التنين"، كان ميلاد "وو نيانغ" غامضًا. في صباح أحد الأيام، منذ ثمانية عشر عامًا، وجد رجل - أثناء تجديفه في نهر "قوارب التنين" - طبقًا خشبيًّا يدور، وبداخله طفلة ملفوفة في حرير أحمر، تطفو مع الأمواج بابتسامة على وجهها. نظر شيخ القبيلة إليها، وقال:

- إن لم يتمكَّن النهر من أخذها بعيدًا، فلتبقَ في نهر "قوارب التنين".

وأعطاها اسم العائلة "تشين".

كبرت "وو نيانغ" على غذاء أهل "تو چيا". تعلَّمت التحليق من الطيور، والرَّكض من الأرانب. رقصت بين الأشجار والعشب في الرياح. كانت تُعبِّر عن كل شيءٍ بلغة جسدها الوفيرة. وأصبحت أجمل امرأة في نهر "قوارب التنين". لم يتوقَّع أحد أنها لن تتمكَّن من "التحدُّث"، وأنها خرساء. عندما بلغت الثامنة عشرة من العُمر، احتفلت بيوم تجمُّع الفتيات، وقام أهل القرية ببناء كوخ لها، ما يعني امتلاكها سكنًا خاصًّا.

عندما قال شيخ القبيلة للوافد إنه سوف يُحضر له أفضل النساء لرعايته، دارت عيناه في المكان قبل أن تتوقَّف عند "وو نيانغ"، وقفت هي بفخر، بينما ظهرت خيبة الأمل في أعين الفتيات الأخريات. مسحت بُقع الدِّماء من جسد الوافد بأرقِّ طريقة مُمكنة. ضمَّدت جرحه بإرشادات من الكاهن. تم القيام بكل شيءٍ دون أخطاء. أمر شيخ القبيلة بحمل الوافد إلى الكهف المُتَّصل بكوخ "وو نيانغ"، كما أمرهم ببناء باب بين الكهف والكوخ. أكَّد شيخ القبيلة على "وو نيانغ" أن كل ما عليها القيام به هو رعاية الوافد، لكن إن حاول الاعتداء عليها، فلتضرب ساقه الأخرى بالحجر، ثم تسحق رأسه.

أومأت "وو نيانغ" ووجهها مُشعٌّ. تلك المهمة الإضافية التي كلَّفها بها شيخ القبيلة أضافت لها سعادة لم تتوقَّعها. فبجانب سعادتها باهتمام شيخ القبيلة، كانت تشعر بانجذاب سِرِّي للوافد. شعرت بالتعاطف مع هذا الوافد الشجاع صاحب الوجه الوسيم. حين ينام، يسقط شعره الأسود الكثيف على جبهته، ما يزيده وسامةً. كان يبدو مُختلفًا عن كل رجال نهر "قوارب التنين" الذين يلفُّون شعورهم بالقماش الأسود، ويبدون جميعًا مُتشابهين.

لاحظت "وو نيانغ" أن "لي آن" مُستيقظ فأسرعت إلى الإناء وأعدَّت له طبقًا من عصيدة "التارو". كلما يبتلع بعضها، تبتسم "وو نيانغ"، فتشعل جميع الأضواء الحمراء المُشرقة في الغُرفة. حتى أن "لي آن" وجد نفسه يبتسم كذلك. لكن بينما يبتسم، سالت الدموع من عينيه. اختفت الابتسامة من وجه "وو نيانغ"، ومسحت وجهه بمنديل. حينها فقط، أطلق "لي آن" كل تعبه، وخوفه، وصدمته، وخجله.

بكى بحُرقة لوقت طويل، ظلَّت "وو نيانغ" مُستندةً على السرير في حزن، وفي يدها المنديل المُبلَّل.

في اليوم التاسع والأربعين التأم الجرح، ونما الجلد. خرج "لي آن" من الكوخ إلى الشمس، مُستندًا على عُكَّاز وعلى "وو نيانغ". كان يشعر كأنه يخرج إلى

حياة أخرى. رأى جدول الماء يجري، وشعر بالنسيم المُنعش، والبـامبو يتـأرجح. كانـت الطيـور تُغنِّي، ورائحة الأزهار جميلة. لا مزيد مـن الضوضـاء أو التَّلـوُّث، كانـت "وو نيـانغ" تبـدو في جمال الأزهار في زيِّها الأبيض. في تلك اللحظة، لم يعرف إن كان ما مرَّ به سيِّئًا أم جيِّدًا.

لاحظت "وو نيانغ" أن "لي آن" كان مُستريحًا أكثر، قفزت إلى الكوخ مثل الغزال، وخرجـت بحقيبة من جلد البقر، تعرَّف "لي آن" على حقيبة الأدوات الخاصة به. قال بسعادة:

- أين وجدتِ هذا؟ وكيف عرفتِ أنه لي؟

أشارت "وو نيانغ" إلى الحرف المحفور باللون الأحمر "لي" وابتسمت برقَّة.

مدحها "لي آن" قائلًا:

- أنتِ امرأة جميلة.

أخرج كل شيءٍ من الحقيبة. مـن حُسـن الحـظ لم يكـن شـيئًا مفقـودًا. لـذا أخـذ الغصـن الصغير الذي كانت تلعب "وو نيانغ" به وحوله إلى آلة "فلوت" جميلة. كان طولهـا أكـثر مـن خمسة سنتيمترات، وفي المنتصف مكان للإمساك بها. نفخ بهـا، فخرجـت ألحـان جميلـة مثـل طائر مُغرِّد.

أحبَّتها "وو نيانغ" كثيرًا، وتأمَّلتها طويلًا، ثم بدأت تعزف عليها بمرح.

سألها "لي آن":

- هل هي جيِّدة؟

دارت حوله مثل الفراشة، وابتسمت له مثل الزهرة.

قال:

- سوف أصنع لكِ شيئًا أجملَ.

في تلك الليلة، طلب "لي آن" من "وو نيانغ" أن تجد قطعة جيِّدة من خشب الكافور، وأن تُوقد الشُّعلات في أركان الكهف الأربعة، ثم أغلق الباب وعمل وحده في الكهف طوال الليـل. في الفجر التالي سمعت "وو نيانغ" صوت الباب، ثم رأت "لي آن" يخرج بشكل طبيعي وجميل من الباب، يقف مُعتدلًا مثل شجرة عالية.

ذُهلت، ومدَّت يدها، ولمست ساقيه، ثم سالت دموع السعادة على خدَّيها. أصبح قلبه مثـل الماء من رقَّتها. أمسكها ونظر إلى حاجبيها الأسودين وعينيها المرحتين، وقال:

- "وو نيانغ" لقد ذُقتُ في الوقت الذي قضيناه معًا سعادةً ومرحًا لم أذقهما من قبل، أريد أن أفعـل كـل شيءٍ مـن أجلـك، سـوف أبنـي لـكِ منـزلًا، وسـوف أصـنع لـكِ أفضـل صـندوق مجوهرات من خشب الزهر حتى يمكنكِ رؤية جمالكِ فيها دون مرآة.

نظرت إليه بعينين مُحبَّتين ودافئتين. أومأت باستمرار. قال "لي آن" بحماس:

- سوف أتزوَّجكِ يا "وو نيانغ" هل تسمعينني؟ هل تُوافقين؟

احمرَّت وجناتها، وابتسمت في خجل، ثم أومأت. احتضنها "لي آن" بين ذراعيه.

في منتصف تلك اللحظة المليئـة بالحـب بيـنهما، أمسـكت "وو نيـانغ" بيـده، وأخذتـه إلى الباب فجأةً. أشارت باتِّجاه الجنوب الشرقي من القرية. كان هناك مبنى كبـير وثابـت. أرادت الذهاب إلى هناك مع "لي آن".

أظلم وجه "لي آن":

- هل تُريدين أن أقابل شيخ القبيلة؟ كلَّا، أريد الزواج بكِ، إنه أمر بيني وبينك.

لوَّحت "وو نيانغ" بيديها، وهزَّت رأسها في تعجُّب. لا يمكن أن يذهب "لي آن"؛ فإن شيخ القبيلة قوي البنية شكَّل ظلًّا في قلبه، يبثُّ الخوف. ذِكْرُ شيخ القبيلة أزاح الدِّفء من قلبه. لم يقل شيئًا، عاد إلى الكهف وهو يتنهَّد، لكنَّ "وو نيانغ" كانت عاقلةً، وكان ذهنها ذكيًّا. في الصباح التالي، عندما بدأت العصافير في التغريد، ملأ المكان أصواتُ أقدام. رفع "لي آن" رأسه فوجد شيخ القبيلة يقف بالقرب من مدخل الكهف. شعر أن الدَّم يصعد إلى رأسه.

- هل التئم جرح ساقك؟

- بالتأكيد.

- حرفتك جيِّدة، لا يُمكنني تحديد إن كانت ساقك حقيقية أم مُصنَّعة.

سار "تشين ياو" حوله، ونظر إليه من جميع الجهات.

قال "لي آن":

- إن كنت ذا نفع بالنسبة لك، فأنا مُستعدٌّ للعمل من أجلك.

تفاجأ "تشين ياو"، ثم ابتسم:

- أنتم الوافدون من خارج الجبال تتَّسمون بالرِّقَّة، حتى كلماتكم تحمل معاني إضافية، لكنني أحبُّ الاختلاط مع الناس من خارج الجبل، هل تعرف؟ أجدادي من الأجيال السابقة، جميعهم ذهبوا للدراسة في مناطق قريبة من "جينغ تشو". تعلَّمنا عن الكتب الأربعة والكلاسيكيات الخمسة، ومرشد العدِّ، والمزايا الخمس الدَّائمة، إضافة إلى كتابة الشعر، لكن في الماضي، كان العالم مُختلفًا، هناك كثير من الأمور التي لا يمكن القيام بها الآن، الحرب الدائرة خارج الجبال أثارت الفوضى، الناس يُحاربون من أجل البقاء، فما فائدة الدراسة، صحيح؟

قال "لي آن":

- صحيح.

قال "تشين ياو":

- إن نهر "قوارب التنين" مكان جيِّد، من الحكمة الاستقرار هنا.

صمت للحظة، ثم أكمل:

- سمعت أنك تريد الزواج بـ"وو نيانغ"، هل هذا صحيح؟

نظر "لي آن" إلى "وو نيانغ" التي كان وجهها مليئًا بالتَّشوُّق.

- أجل.

- ليس الزواج أمرًا بسيطًا، طبقًا لتقاليدنا، كان يجب أن تسأل الكاهن وتُعلِّم الأسلاف، لكن باعتبار أنك وافد من الخارج، وأنك فقدت ساقك، فيُمكننا الاستثناء.

عندما فهم "لي آن" أنه قد سمح له بالزواج بـ"وو نيانغ" تفاجأ وقال:

- هل تعني...؟

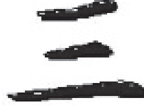
قال "تشين ياو":

- كل شيءٍ مُقدَّر، في أيِّ حياة شطَّلت لنفسك هذا القدر مع نهر "قوارب التنين"؟

تأمَّل "وو نيانغ" بحُبٍّ ودفءٍ.

- استمع إليَّ يا "لي آن"، لقد وهب اللـه "وو نيانغ" جمالًا وذكاءً نادرين، لذا أخذ صوتها. إنها أعزُّ فتيات نهر "قوارب التنين" مكانةً، فعليك أن تُحسن مُعاملتها.

- أعرف ما عليَّ فعله.



حُدِّد تاريخ الزفاف: الثامن من مايو، وفقًا للتقويم القمري.

أخذ شيخ القبيلة "تشين ياو" جميع القرارات. تم هـدم الكـوخ الصـغير، حيـث إنـه وعـد ببناء منزل جديد من أجل "لي آن" و"وو نيانغ". كانت رغبة "لي آن" لكنَّ أحدًا لم يطلـب منـه النُّصح، رغم كونه نجَّارًا ماهرًا جدًّا. غضب "لي آن" عندما رأى المكان الجميل، المـليء بـالطيور المُغرِّدة والأزهار المتفتحة، يُهدم، حتى أنه صرخ بكراهية:

- توقفوا جميعًا.

لكنَّ الرجال كانوا مُنهمكين في العمل ولم يستمع إليه أحد.

بعد هدم الكوخ تم تجميع بعض الخشب في أحد أركان الأرض. كان "لي آن" قد علم مـن الكاهن أن أمر بناء منزل جديد أمر معروف، ويتم وفقًا لقواعد توارثها الأبناء عن الأجـداد في نهر "قوارب التنين". كانت المكاتـب الحكوميـة تُبنـى عـلى دعـائم وركـائز وتُغطَّـى بـالطوب والبلاط. يبني الأشخاص العاديون منازلهم من الخشـب، ويصـنعون الحـوائط مـن "البـامبو". كان شيخ القبيلة يُسمح له ببناء أعمدة وركائز مُحاطة بحـوائط خشـبية، لكـن لا يُسـمح لـه باستخدام البلاط. ومن يخترق هـذا القـانون يتعـرَّض للعقـاب لخروجـه عـن قـوانينهم. كـان هناك قول مُنتشر: شراء الأحصنة مسموح به، لكـنَّ اسـتخدام الـبلاط غـير مسـموح بـه. الآن

وهم يبنون المنزل من أجل الوافد تم تجميع أكوام من الخشب، مما ينم بوضوح عن معاملة خاصة تُقدم له، فكيف يمكنه أن يشتكي؟

بعد تخلص "لي آن" مما يُضايقه، بقي لديه فقط الفضول حول من سيكون مسؤولًا عن البناء. تمكن من فحص كمية الخشب، توقع أنهم يخططون لبناء منزل من ثلاث غرف خشبية. كان من الضروري نصب أعمدة حتى تعمل كهيكل للبناء. سوف تدعم الأعمدة الخمسة البناء، وجهة منهم مقابلة للجبل، مع ترك البقية مفتوحة. ثم يتم توصيل الأعمدة معًا، على شكل مروحة، مع إشعاعات خشبية. ويتم صنع قدم خشبية متفرعة من الأجزاء التي تصل إلى الأرض وقدم متفرعة أخرى من الأجزاء التي تصل إلى أعلى. جودة المنزل تعتمد كُليًّا على حرفية النَّجَّار.

لم يتمكَّن "لي آن" من النوم ليلًا، كان رأسه مليئًا بالأفكار. وأصوات الغناء المُتلوِّي تصل إلى أذنيه من بعيد، كأن أحدهم يحاول التَّحدُّث إليه. بما أن الخطبة قد تمت تم أخذ "وو نيانغ" لتقيم في منزل عائلة "تشين". كان معها تسع فتيات يُغنِّين أغنيات الزِّفاف لها. كان يتخيَّلها ترقص في منتصف الدائرة، حيث إنها لن تتمكَّن من الغناء. دخل "لي آن" في حالة من النشوة، فرأى "وو نيانغ" تمشي نحوه بوقار، وفي يدها سلَّة من الطعام. فاشتكى "لي آن":

- لم أركِ لعدَّة أيام.

أجابته بصوت رقيق:

- أعددت لك بعض الطعام.

ثم كشفت الغطاء عن السَّلَّة. كان بها كثير من الأرز وطبقان من الخضراوات. قال "لي آن":

- هذه كمية كبيرة، لن أتمكَّن من إنهاء هذا، أليس هذا هدرًا للطعام؟

رسمت ابتسامة على شفتيها، وقالت:

- إنه من أجل عامل البناء كذلك.

سألها:

- هل العامل هنا؟ أين هو؟

نظر حوله ولم يرَ شيئًا، لكنه سمع صوت العامل يستخدم أدواته، وعندما استدار كانت "وو نيانغ" قد اختفت كذلك. أصابه الاضطراب.

ثم استيقظ.

كان مجرد حلم. تذكَّر صوت "وو نيانغ" في الحلم، كان ناعمًا مثل اللؤلؤة. بدا الحلم حقيقيًّا حتى أنه تنهَّد. بعد دقائق من الهدوء، جاء صوت من خارج الكهف – بو بو – قام وخرج ليستكشف ما يحدث.

في ضوء الفجر الخافت، رأى عاملًا يبني الخشب باتِّجاه الشمس. كان يقف مثل الدعامة، وكان نصف جسده الأعلى عاريًا، وحزامه مربوطًا بقوَّة على خصره. عندما دفع الخشب انحنى مثل تنِّين سابح. وعندما يسحبه يستردُّه مثل ثعبان عائد إلى مخبئه. كل حركة يقوم بها متناسقة مع حجم القوة التي يستخدمها. لم يكن يتنفَّس بثقل. أصاب الأمر "لي آن" بالانبهار. كان على دراية جيِّدة بحرفة النجارة، أوَّل شيءٍ يجب عليهم تعلُّمه هو التخطيط؛ فالتخطيط هو قلب الحرفة. ولم يكن النَّجَّار الذي يعمل أمامه أقل منه حرفيَّةً. اقترب "لي آن" منه، وربت على كتفه قائلًا:

- أحسنت صُنعًا يا سيِّدي.

توقَّف الرجل، وقال:

- هل أحسنت حقًّا؟ هل يُمكنني كسب عيشي منها؟

ثم توقَّف عن العمل، والتفت في فخر، وقطرات العرق تلمع على جبهته.

- أنت..؟

قال "تشين ياو" بصوت مرتفع:

- هل تفاجأت؟ مع الوقت ستعرف أنني أقوم بجميع أنواع الحرف، هل توقَّعت أن شيوخ القبيلة في نهر "قوارب التنين" مثل الأثرياء في مُقاطعة "سيتشوان"، الذين لا يعرفون القيام بشيءٍ سوى حمل كتابات البنك لجمع إيجار الأراضي؟

عندما رأى "لي آن" "تشين ياو" للمرَّة الأولى، توقَّع أنه يبلغ الخمسين من العُمر. لكن عندما نظر إليه الآن دون القماش الأسود على رأسه، وعلى وجهه ابتسامة عريضة وعضلات صدره المفتولة، أيقن أنه لا يتجاوز الثلاثين من العُمر. لم يُفاجئه هذا الاستنتاج فقط، بل أثار غضبه بشكل أعجزه عن الحديث.

منذ هذا اليوم، لم يعد "لي آن" يهتم بأمر البناء، وجد قطعة أخرى من الأرض، حيث بدأ في صُنع سرير ودولاب، مستخدمًا المواد الخام الزائدة. وكلما سمع صوت "تشين ياو" أضاف قوة إضافية للفأس في يده.

بعد عشرة أيام، كان هيكل المنزل مُشيَّدًا على الأرض.

في تلك الليلة، لمس "لي آن" الأعمدة الخشبية المنصوبة تحت ضوء الشمس. كانت الأعمدة ناعمة ولا تترك مسافات بينها. لم يترك له "تشين ياو" مجالًا لانتقاد عمله مما أثار غضبه.

بينما يقف في حيرته، فاحت من خلفه رائحة صابون، بدأ قلبه في الاضطراب. استدار فرأى "وو نيانغ" تسير نحوه حاملةً سلَّة من الأكل، مثلما رأى في حلمه.

كان وجهها الجميل مُبتسمًا وهي تُنادي:

- آه، آه.

ثم كشفت السَّلَّة، فرأى بعض الملابس النظيفة وصندوق طعام به أرز، ووجبته المُفضَّلة. عندما أخذ الملابس والطعام شعر بدفءٍ يفوح من قلبه. كان يعيش حياة مضطربة منذ بدأ يتعلَّم حرفة النِّجارة وهو طفل صغير. لم تكن له عائلة ترعاه. كان الأمر يفوق تخيُّله، أن يجد السعادة في تلك الأرض البربرية، وكل هذا بسبب موقف غير مُلائم. قابل تلك الفتاة الجميلة الحنون.

قال لها:

- كيف كنت لأبقى هنا لولاكِ؟

كانت "وو نيانغ" في رِقَّة الريشة، بقيت قريبة لصدر "لي آن"، بينما هو يحتضنها. قبَّل شعرها، فلمست قلبه رائحة مُنعشة. وعندما قبَّل وجهها، كان ناعمًا مثل الزيت. عندما قبَّل شفتيها، صدمه شعور قوي بالدُّوار، جعله يتمسَّك بقوَّة بجسدها الناعم. أرادها. من بين نشوته، سمع نداءها، لكنه لم يعد يهتم، كان يريدها. في تلك اللحظة شعر بألم حادٍّ قويٍّ في لسانه. صرخ مصدومًا وتركها. عندما نظر إليها، كانت ابتعدت عنه بالفعل، وهي تُغطِّي ملابسها التي حاول شدَّها وعلى وجهها نظرة تجمع بين الغضب والخجل.

اعترض "لي آن":

- لماذا فعلتِ ذلك؟ نحن مخطوبان، ليس هناك ما لا يُمكننا القيام به، كدتِ تقضمينني.

أشارت "وو نيانغ" إلى السماء والتَّقوى على وجهها.

لم يفهم "لي آن":

- إن كنتِ تتَّبعين التقاليد فلست مُمانعًا، لكن إن فعلتِ هذا بي بعد الزِّفاف فاحترسي وإلا قضمت لسانك.

نظرت إليه بوجه غريب، ثم أسرعت بعيدًا.

لم يتمكَّن من النوم في الكهف تلك الليلة. أدرك أنها تستحقُّ حُبَّه لأنها تعرف كيف تحافظ على نفسها وعلى سُمعتها. لكن هذا جعل تخيُّله ليوم الزِّفاف أكثر تشويقًا. صار يعد الأيام دون صبر.

عندما انتهوا من بناء المنزل، دعا "تشين ياو" سُكَّان نهر "قوارب التنين" إلى طقس من التضحية من أجل المنزل الجديد. سار الكاهن "تشين لاو أر" حول المنزل، وغنَّى:

"خطوة واحدة على عجالة، خطوتان ترى المنزل الجديد

ثلاث خطوات فلتذهب وتنظر، لقد اختار المُضيف أرضًا جيِّدة

من الأمام أتى "تشو تشيوه" من أجل التقديم

ومن الخلف أتى "شيوان وو" ليُدير الجحيم

من اليسار أتى "تشينغ لونغ" ليمنح الكنوز

ومن اليمين أتى "باي هو"

ليتأكَّد أن الجميع ممتن".

ردَّد الجميع:

- ممتاز.

بدأ الكاهن في الغناء لطرد الأرواح الشريرة، وتعبَّد للآلهة من المنتصف والجهات الأربع، مما يُبقي الأرواح الشريرة بعيدًا.

صاح الجمع:

- عظيم.

قام شيخ القبيلة أمام أعين الحشد بتسليم المفتاح البرونزي لـ"لي آن" وأشار إلى المنزل الجديد قائلًا:

- من اليوم فصاعدًا أنت مالك هذا المنزل.

انحنى "لي آن" له باحترام.

حل يوم الزِّفاف سريعًا. قاموا بوضع السرير المُزيَّن بنقوش تُشبه الأزهار والدولاب، اللذين صنعهما "لي آن" في المنزل الجديد. لم يعد شيء ناقصًا سوى العروس، التي سوف تُحمل إلى هناك على ظهر الكاهن. علم "لي آن" أنه في يوم زفاف سيدات "تو چيا"، بعد أن تخرج من منزل والديها، يجب ألا تلمس قدماها الأرض. يجب حملها على ظهر شقيقها أو ظهر الكاهن إلى منزل عائلة زوجها.

انتظر "لي آن" عند تجويف "البامبو"، بينما يتأمَّل القرية. مع حلول المساء، حلَّت أمواج من نواحي الزِّفاف. أصبحت مرتفعة جدًّا في وقت قصير حتى أنها هزَّت الأرض والسماء. قام رجلان عجوزان بشقِّ الطريق، وأتى الكاهن حاملًا العروس الفاتنة "وو نيانغ". تسارعت دقَّات قلب "لي آن"، كان عليه العودة إلى المنزل والانتظار.

انتظر ساعتين ولم يحدث شيء، وبعد ساعتين أخريين، لا شيء أيضًا. أصابته الحيرة: فأيًّا كانت العادات والطقوس، ليس من الممكن أن تستغرق هذا الوقت الطويل في تلك المسافة القصيرة. لم يقوَ على مقاومة الخروج ليرى ما يحدث، كان الليل قد حلَّ والأنوار تُضيء القرية، لكن لم يكن هناك طقوس زفاف تجري، مما زاده حيرةً.

لم يعد يتحمَّل، أغلق بابه، ومرَّ من فوق الجدول الصغير، ثم أسرع إلى القرية. وجد هناك الكاهن يمشي وحده.

- أين "وو نيانغ"؟ أين "وو نيانغ" التي كنت تحملها على ظهرك؟

- لقد حملتها إلى المنزل.

- هراء. لقد انتظرت في المنزل لساعات ولم يأتِ أحد.

في الظلام، كان الكاهن يبدو كهيكل نحيل.

- ألا تفهم؟

- ماذا يجب أن أفهم؟

فجأةً، انتابه خوف رهيب.

- كل النساء اللاتي يتزوَّجن في قرية "قوارب التنين" يجب أن يُضحِّين بعُذريتهنَّ إلى الإله.

عجز "لي آن" عن التفكير.

- ومن الإله؟

ابتعد الكاهن عن "تشين لاو أر" دون ردٍّ.

بعد أن بقي صامتًا لوهلة، ألقى "لي آن" بنفسه على الكاهن مثل الأسد، فأوقعه، وزأر:

- سوف أقتل هذا الإله اللعين.

四

كانت "وو نيانغ" محمولةً على ظهر الكاهن النحيل، تقترب خطوةً فخطوة من منزل شيخ القبيلة. كان للمنزل المبني على أعمدة ركن يسمح بمرور حصان، وإبريز عريض. كان منزلًا من طابقين، الطابق الأول به حظيرة للخنازير والماشية، والطابق الثاني به ثلاث غُرف، وساحة رئيسية، وغرفتان على الجوانح. كانت جميع الأعمدة مصنوعة من خشب التوت الأسود. وكل عمود في سُمك طاولة، لكن الآن لم يعد بمقدور شجرة التوت الأسود أن تنمو أطول من صبي صغير يرعى الغنم، وتنكسر من قبضة يد واحدة. لذلك من ملاحظة سُمك الخشب في منزل شيخ القبيلة، يسهل إدراك أن عُمر هذا المنزل يصل إلى مئات الأعوام. من حُسن الحظ أن الخشب لا يزال يحتفظ بقوته وثباته. رغم كل تلك الأعوام وعوامل التعرية. كانت الألواح الخشبية التي صُنعت منها الأرض متساوية وثابتة. لا تُحدث أصواتًا حتى وإن وقعت عليها أوزان ثقيلة.

كان المنزل ذاته يحمل روح العظمة.

تم أخذ "وو نيانغ" إلى الغرفة بالجناح الغربي بمساعدة سيِّدتين. قدمت لها إحداهما وعاءً برونزيًّا من الماء. قامت "وو نيانغ" بغسل يديها ووجهها بشكل رمزي من الوعاء. قام الكاهن بنثر الماء على جسدها. ثم أخذها إلى الصالة الرئيسية للتعبُّد.

"لديَّ بخور تحترق في يدي اليُسرى

لديَّ بخور تحترق في يدي اليُمنى

أقدمها بكلتا يديَّ

تمَّت حماية الكهف الأزرق لألف عام

تمَّت حماية الكهف الأحمر لعشرة آلاف عام

وفي الساحة سوف يكون هناك سلام لألف عام

وعلى الأرض سوف يكون هناك نقاء لعشرة آلاف عام".

رحل الكاهن مع السيِّدتين. استلقت "وو نيانغ" فوق تطريز "تو چيا" في هدوء، منتظرة الإله. كانت تنتظر هذا اليوم منذ وقت طويل. كانت "وو نيانغ" - التي حملها النهر كمهدٍ لها - تحمل فهمها الخاص لكل شيءٍ في هذا العالم. كانت تشعر بأرواح نشطة بين الأرض والسماء منذ وقت طويل. غروب الشمس وبزوغ القمر يُبهرانها، وكذلك تفتُّح الأزهار ونُضج المحاصيل. خلال رقصتها الخاصة بيوم الإله "شه با"، كانت تشعر بقوَّة غير ملموسة، لكنها قادرة على كل شيءٍ. كانت كشوفات كبار السن للأمور الغامضة تجعلها تدرك طرقًا أخرى لتحقيق هدفها من الرقص، وأنهم جميعًا يتشابهون في أمور منها. ففي هذا العالم، ما اللغة التي من الممكن أن تكون أقوى وأوضح من لُغة الجسد؟

كانت رائحة عشب "الثيوم" تفوح في الغُرفة، حيث تم حرق أكثر من نصف العُشب في البخور، ولم يظهر الإله بعد.

كان شيخ القبيلة "تشين ياو" في حيرة كبيرة وهو يتردَّد في الطَّرقة. تاريخ الثامن من مايو بلا شك هو العقوبة التي أوقعها على نفسه. كانت تبعده عن الجناح الغربي خطوةً واحدةً، لكنه لم يتمكَّن من الدخول، كل دقيقة تمرُّ تؤلمه.

ميزة التمتُّع بعُذرية العروس هو أمر توارثوه عن أجداد الأجداد. فاز "با وو شيانغ"، جد "تشين ياو" على خصومه في الكهف الأحمر والكهف الأزرق بأن أظهر قُواه المُقدَّسة. قام بعد ذلك بقيادة القبيلة للهجرة إلى الغرب، كان عليهم شقُّ طريقهم في الجبال، وبناء الجسور فوق الأنهار للمرور فوقها. في النهاية، وجدوا هذا المكان، حيث المناظر الطبيعية الخلابة والروحانية. تحوَّل "با وو شيانغ" إلى نمر أبيض بعد وفاته. أصبح أهل "تو چيا" يعبدونه هو وأحفاده كآلهة. يُقدِّمون كل ما يملكون للآلهة. حتى أنقى بناتهم. تم توارث هذا التقليد عبر الأجيال واعتباره أمرًا عاديًّا. لكن بعد التخلِّي عن نظام شيوخ القبيلة خلال حُكم سلالة "تشنغ"، وخاصة بعد بناء الجمهورية الصينية. تغيَّرت التقاليد كثيراً، حتى في الأماكن النائية، مثل نهر "قوارب التنين"، لا مهرب من هذا التغيير.

درس "تشين ياو" في المدرسة الخاصة القديمة في صغره. ثم أرسلته الحكومة إلى مدرسة "هان كو" العسكرية، بعد وفاة والده وتعرُّض عائلته لبعض الضعف، اضطر إلى ترك دراسته والعودة. لم يكن "تشين ياو" رجلًا عنيدًا ضيِّق الأفق. عندما عرف أن عائلته لم يبقَ لها ذهب أو فضَّة، لم يبقَ سوى بعض الأفدنة القليلة من الأرض، قام بالتخلُّص من الخَدَم، وبدأ يزرع الأرض ويرعى شؤون نفسه بنفسه، كان الأمر مُمتعًا بالنسبة له، كان يُشرف على أغلب تقاليد "تو چيا"، لكنه كان يشعر بالخجل من حقِّه في الاستمتاع بعُذرية العرائس. كان مُدركًا أن أهل "تو چيا" يعبدون إلهًا، بينما هو مجرد رجل. فتبع هذا التقليد بشكل رمزي. وكان هذا بمثابة حلٍّ يُرضي الطرفين،

"تشين ياو" وسكان نهر "قوارب التنين". كان دائمًا يعتبر نفسه شيخَ قبيلة يُواكب التغيُّرات التي تحدث في العالم حوله.

ظن أن بإمكانه نُعاملة "وو نيانغ" مثل غيرها من العرائس، يدعها تنام في فراشه حتى الصباح، ثم يرسلها إلى زوجها، سالمةً. لكنه أساء تقدير نفسه، فهو على غير حاله منذ الصباح، يفقد صبره لأن الوقت يمرُّ بطيئًا، ثم يرتعب لأن الوقت مرَّ بسرعة. فكَّر، عدَّة مرَّات أن يذهب للصيد في الجبال مع البندقية الخاصة به، وأن يعود بعد عدَّة أيام، لكنه تراجع. فجسد تلك المرأة ملأ ذهنه حتى جعله يتنهَّد بلا توقُّف.

لقد شاهد "وو نيانغ" تكبر عبر الزمن، وكأنها ابنة الآلهة. كان شيئًا نادرًا بالنسبة لصغر سنِّها، لكنَّ وجهها الجميل كان دائمًا مُمتلئًا ببراءة وصفاء، بينما جسدها، ومظهرها يوحيان بأناقة ووقار. وعدم قدرتها على الحديث أضاف إلى غموضها وجمالها. كلما كانت ترقص، كان شغفها البريء يسحر "تشين ياو". اعتبرها كنزًا ثمينًا وعشقها مثلما يعشق نهر "قوارب التنين".

لكنه لم يُفكِّر أبدًا في الزواج بها، منذ ثلاثة أعوام، تزوَّج بـ"تيان"، التي تُوفيت وهي تضع مولودها. بحث له أهل "تو چيا" في كل مكان عن زوجة مناسبة. بعضهنَّ كُنَّ فتيات جميلات عفيفات، لكن كُنَّ من أصول متواضعة، والفتيات من الأصول الرَّاقية لم تكن قراءة البخت الخاصة بهن تنتج سوى عن تنبُّؤات شؤم. رشَّحوا له مئات الفتيات، لكن لم يُفكِّر في أحد منهنَّ، بمن فيهنَّ "وو نيانغ"، فهي عزيزة عليه، فقط. يقلق بشأنها، كيف سيتنهي بها الحال، من بين كل من سعوا إليها من رجال نهر "قوارب التنين"، لم يشعر أن أيًّا منهم يستحقُّها.

من حُسن الحظ أن الوافد ظهر.

سنه، مظهره، شجاعته غير المسبوقة وذكاؤه، نالت رضا "تشين ياو". كما أن فقده أحد أطرافه مُتناسب مع كون "وو نيانغ" خرساء، مما لا يسمح له بالشعور بالأفضلية عليها. كانا زوجين متوافقين.

ومع ذلك، يوم سلَّم مفتاح المنزل الجديد للوافد، امتلأ قلبه بشعور فَقْدٍ قوي. تأمَّل المنزل الجديد، وتخيَّل "وو نيانغ" تحيا حياةً هانئةً مع الوافد. تمكَّن منه شعور الفقد وكأنه فَقَدَ روحه. منذ ذاك اليوم، أصبح جسد "وو نيانغ" يتمكَّن من ذهنه كلما جلس وحده. وجهها، شفتاها، جسدها، أثارت رغبة عارمة بداخله، تجعله يرتعش وكأن حُمَّى قد تمكَّنت منه.

والآن في الليل الصامت، تستلقي في غُرفته. كاد يسمع تنفُّسها خلال الحائط، ويشتمُّ رائحتها. بمجرد أن يدخل تلك الغُرفة يُمكنه الحصول على ما أراد طويلًا، لكنَّ أمرًا آخرَ كان يُعذِّبه، ازدراء الوافد للآلهة، وقوَّته الجسدية الواضحة. لم يكن واثقًا أن الوافد سيتقبَّل ما يمكن أن يحدث تلك الليلة. إن تعرَّضت "وو نيانغ" للمُعاملة السيئة والازدراء من زوجها في المستقبل، فكيف لا يكون مُذنبًا؟

كان هذا الهاجس يخترق قلبه مثل البرق. ثم أدرك، مثل شخص يجد طريقه من بين مُستنقع، لمَ لا يتزوَّجها الآن؟ تحمَّس للفكرة. لم يفُت الأوان. كل شيءٍ يبدو منطقيًّا. تمكَّنت منه الحماسة وهو يفتح الباب.

لم يكن هناك ضوء في الغُرفة، فقط شرارات بسيطة من عُشب "الفيلون" المُشتعل في أركان الغُرفة. رأى "وو نيانغ" فورًا، تجلس هناك بين الدخان. تبدو مختلفة قليلًا في زي الزِّفاف الأحمر، التقليدي بالنسبة لعروس "تو جيا". عندما سمعت صوته يفتح الباب، اتَّسعت عيناها.

سعد عندما رأى الفضول في عينيها.

ناداها بصوت خافت:

- "وو نيانغ".

نظرت إليه صاغرةً، وحلَّت المشابك من شعرها. سال شعرها بموجة خفيفة مثل الشلال. أسرع إليها، ودفن نفسه في تلك السحابة السوداء.

- "وو نيانغ".

انحنت "وو نيانغ" وقبَّلت يديه وقدميه وساقيه بشغف. احترق الدَّم بداخل "تشين ياو"، جذبها بين ذراعيه.

- كدت أفوِّت فرصة اجتماعي بكِ يا "وو نيانغ".

تحسَّست في الظلام مُحاولة فكَّ ملابسها. رفعت رأسها برغبة عارمة تحترق في عينيها. أشارت إلى صدرها العاري دون خجل، ثم أشارت إليه، وكأنها تمنحه قلبها. انحنى "تشين ياو" فوق جسدها المتمدِّد والتحم جسداهما بقوَّة.

ثم دخلا عالمًا لا يُمكن مقارنته بأيِّ شيءٍ. من بين كل التجارب التي مرَّ بها مع زوجته الرَّاحلة، لم يُعطه شيئًا هذا الشعور القوي الذي يشعر به الآن. كانت "وو نيانغ" مثل كُرة نار مُشتعلة، فأشعلته. مثل روح راقصة، تأخذه من ذروة إلى ذروة. شعر بأنه سوف ينهار ويذهب إلى الجنَّة عدَّة مرَّات، لم يعد يعرف إن كان هو الإله أم لا.

عند نهاية رحلتهم الطافية، كان كلاهما قد شعر بتجربة الجنَّة والأرض. أنار الغُرفة ضوء أحمر وغلَّف المنزل، تمكَّنا من رؤية بعضهما بعضًا بوضوح لوهلة، قبل أن تدفعه "وو نيانغ" بعيدًا وتُسرع إلى النافذة.

من خلال النافذة، رأى بوضوح الـلـهب المُنبثق في السماء من صخرة مُقابلة للمنـزل. مـن بين الدخان، كان المنزل الذي بناه من أجل "وو نيانغ" والوافد يشـتعل، والـلـــهب يرتفـع منـه مثل شعر رجل غاضب.

شعر "تشين ياو" بالرَّاحة عندما ظنَّ أن الوافد قد هرب. التفت ليُطمئن "وو نيانغ"، لكنـه وجدها ارتدت ملابسها وأسرعت إلى الخارج مثل السهم.

تبعها "تشين ياو" إلى نصف الصخرة الواقعة أمام منزله، كـان النـاس قـد اجتمعـوا هنـاك بالفعل يشاهدون النيران المُشتعلة بلا حيلة. فور وصول "وو نيانغ"، ألقت بنفسها إلى النـيران. تقدَّم الكاهن وأمسك بكتفها:

- لم يكن "لي آن" بالمنزل، لا بُدَّ أنه هرب بعيدًا الآن.

سقطت "وو نيانغ" إلى الأرض، وبكت في صمت.

لعن أهل "تو چيا" الوافد الذي أشعل النيران في المنزل وهرب بعيدًا، وعلى الأغلب أخـذ معـه مُقتنيات "وو نيانغ" الثمينة. لم يروا من قبل خائنًا مثله. حتى أنهم اعترضوا على كرم شيخ القبيلـة "تشين ياو" معه، وعلى تزويجه "وو نيانغ".

أوقف "تشين ياو" الثرثرة قائلًا:

- فليذهب الجميع إلى المنزل، اهتموا بشؤونكم وسأهتمُّ أنا بـ"وو نيانغ".

لم ينظر "تشين ياو" نحو "وو نيانغ" بعينيه المُحبَّتين حتـى ذهـب الجميـع. لقـد تعرَّضـت لاضطرابات تهزُّ الروح خلال يوم وليلة. بدت فاتنةً حتى والدموع تُغطِّي وجهها. جلـس عـلى ركبة واحدة وساعدها على الوقوف. قال لها:

- لا تحزني، سوف يكون لديكِ كل شيءٍ.

هزَّت رأسها وعلى وجهها الحزن والأسى.

- ألا ترين؟ إنه القدر، إنه مُقدَّر لنا أن نكون معًا، سوف أتزوجكِ.

نظرت إليه في خوف وحيرة.

نظر إليها بشغف، وقال:

- ألا تُصدِّقينني؟ أنا أقصد ما أقول، سوف نتزوَّج. سأخبر الكاهن وسوف يُرتِّب لنا زفافًا، ثم أتزوَّج بكِ بالشكل المناسب. وسوف تلدين لي كثيرًا من الأبناء، ونحيا معًا.

احتضن جسدها الناعم بين يديه.

- نحن زوجان بالفعل يا "وو نيانغ"، كم كنتُ سعيدًا تلك الليلة.

- آه آه.

قاومت "وو نيانغ"، وخرجت من بين يديه، ابتعدت، ونظرت نحوه نظرةً غير مُعتادة.

سألها بتعجُّب:

- ما الخَطْبُ؟

وقفت بعيدًا، ثم انحنت أمامه، ووضعت كفَّيها أمام جبهتها. صدم الأمر "تشين ياو". أدرك أنها تؤدِّي رقصة الإله "شه با". كانت تتعبَّد إلى الإله. أدرك الأمر الآن. كانت "وو نيانغ" تراه إلهًا، لا يمكن أن تكون له مشاعر إنسانية.



五

بحثت "وو نيانغ" في كل الجبال المُحيطـة بنهـر "قـوارب التنـين". رأت غـزال "المونتجـاك" الآسيوي يعدو على المنحدرات، والأزهار البيضاء والوردية مُتناثرةً على الأرض، والرجل العجـوز الذي يُقطِّع الحطب يسير بين الغابات، فتُحلِّق الطيور. لم تجـده، رغـم بحثهـا المُكَّثـف خـلال الجبال.

كان من المُفترض أن يبقى معها بقيَّة عُمرهما. كان يُجهِّز لها المهر بإخلاص وتفانٍ. ويقـول إنه يُحبُّها. كيف تغيَّرت مشاعره في ليلة؟ لم تفهم. ذهبت إلى الكاهن تُنادي عليه.

قال لها الكاهن:

- أصابته كراهية عارمة لأنكِ وهبتِ عُذريتكِ لشخص آخر.

أشارت إلى السماء ووجهها ممتلئ بالخجل والعار.

تنهَّد الكاهن:

- قلت إنكِ وهبتها للإله، لكن "لي آن" كان رجـلًا عاديًّـا، لم يعـرف عـن الإلـه، ولم يشـأ أن يعرف.

ذُهلت "وو نيانغ".

في يونيو، في تلك الظهيرة المتَّقدة، كان شيخ القبيلة "تشـين يـاو" يسـير مـن بـين "البـامبو" عندما سمع إطلاق نار.

شعر "تشين ياو" - الذي تلقَّى بعض التدريب الحربي – بالرصاصة تمرُّ بجانب أذنه. تمكَّـن من معرفة مصدرها، سلاح مصنوع في "هانيانج". لم يسقط إلى الأرض لأنـه أراد رؤيـة الرَّامـي، لكنَّ "البامبو" غطَّى أثره.

وقف هناك بفخر:

- مهارتك تحتاج إلى تدريب، يُمكنني أن أعلمك.

مرَّت عاصفة من حوافر الأحصنة، وقـاد عشرة مـن الجنـود مُرتـدين الـزِّيَّ الرَّمـادي إلى الجبـل. أحاطوا بـ"البامبو"، في دقائق قليلة، كشفوا عن وجه "لي آن" الشاحب.

بعد أن ألقى القائد التحية على شيخ القبيلـة "تشـين يـاو" أخـبره أن "لي آن" كـان جنـديًّا هاربًا منهم، وكانوا يبحثون عنه. "لقد هرب هذا الرجل من التجنيـد مـرَّتين، وفي المـرَّة الثانيـة أخذ معه سلاحًا". قال القائد إنهم أتوا للقبض عليـه وتوقيـع العقوبـة. "كانـت المهمـة صـعبة حتى كدت أفقد نصف حياتي، لكن أخيرًا قُمنا بالقبض عليه. لولا إطلاق النار الذي حدث للتَّوِّ لفقدنا الفُرصة".

حدَّق شيخ القبيلة في "لي آن" وسأله:

- لماذا أطلقت عليَّ النار؟

- لم أتحمَّل كونك على قيد الحياة لساعة أخرى.

قال "تشين ياو":

- ليس هناك سبب مُقنع لتكرهني هكذا.

حدَّق "لي آن" به وكأن الدَّم سوف يسيل من عينيه:

- لقد تلاعبت بي مثلما يتلاعب القطُّ بالفأر، لقد بترت سـاقي، ثـم عـالجتني، وقلـت إنـك سوف تهب لي زوجةً، لكنك أقمت معها علاقة قبلية.

قال "تشين ياو" بعد أن تنهَّد بعُمق:

- لم يكن من المُمكن أن تحتفظ بالساق المُصابة، لقد عرفت ذلك منذ البداية كما كنت تعرفه أنت. أما بالنسبة لـ"وو نيانغ"...

قاطعه "لي آن":

- لا تقل المزيد، لم يكن مُقدَّرًا لك أن تموت الآن، لكنه كان مُقدَّرًا لي أن أموت، أقبل ذلك، لكنني سآخذ بثأري منك في الحياة القادمة عندما نلتقي مُجدَّدًا.

بينما يتحدَّثون، كان سُكَّان نهر "قوارب التنين" قد سمعوا عن الأمر واجتمعوا جميعًا. أوقف الجنود أحصنتهم وقاموا بربط حبل سميك في شجرة "برشاوشان"، ومن الحبل صنعوا عُقدة، وبدؤوا يدفعون "لي آن" نحوها.

سألهم "تشين ياو":

- ماذا أنتم فاعلون؟

ضحك القائد، وقال:

- نحتاج للتنظيف أوَّلًا قبل أن نأخذه ونعود، فلتوفِّر علينا بعض العناء.

شحب وجه "لي آن" وعلى وجهه ابتسامة مزيفة قام بعض الجنود بدفعه إلى الحبل، ثم وضعوا العُقدة حول رقبته.

صُدم "تشين ياو". في تلك اللحظة، وبعد سماع صيحة يائسة، ظهرت "وو نيانغ" أمامهم.

كان واضحًا أنها سارت بين أشواك. الجراح على وجهها، ويديها، وملابسها، وشعرها المُبعثر.

أسرعت إلى "لي آن"، أمسكت به وبكت. أغلق "تشين ياو" عينيه في ألم. أسرع بعض الجنود إلى "وو نيانغ" وسحبوها بعيدًا.

قال "تشين ياو" للقائد:

- ابتعدوا، لا أوافق على قيامكم بهذا الأمر في نهر "قوارب التنين".

توقَّف القائد، ثم قال:

- حسنًا، حيث إن شيخ القبيلة لا يوافق، فسنأخذه ونعود به أوَّلًا.

تمَّ حلُّ الحبل من الشجرة، وربطه حول صهوة الحصان، لم يتمكَّن "لي آن" من لمس رقبته. سقط وسُحب على الأرض. أسرعت "وو نيانغ" إليه وساعدته على الوقوف. ضرب القائد الحصان مُنتويًا الرحيل، لكن "وو نيانغ" تمسَّكت بالزمام بقوَّة. علت الصرخات من السيدات والأطفال المُلتفِّين حولهم.

أوقفه "تشين ياو" مُجدَّدًا، وقال:

- إن طلبت منك إطلاق سراحه فهل تُوافق؟

تغيَّر وجه القائد، وقال:

- أعرف أن علاقة صداقة تجمع بين شيخ القبيلة وبين قائدنا، منذ مدرسة "هانكو" الحربية، لكنني أنفذ أوامر قائدنا التي لا أجرؤ على عصيانها، ماذا تتوقَّع منِّي أن أفعل إن عُدت من دونه؟

قال "تشين ياو":

- سوف أقوم بزيارة قائدكم قريبًا وأشرح له الأمر.

- ربَّما يتم ذبحي بالفعل قبل أن تقوم بتلك الزيارة، إن كنت مُصرًّا على إنقاذه فلتُعطني رمزًا، أمرًا أعتمد عليه عندما أعود.

قال "تشين ياو":

- المنطقة المُحيطة بنهر "قوارب التنين"، التي يبلغ قُطرها عشرات الأميال، بها خيرات النهر والأرض، بالإضافة إلى ذلك، ليس لدينا سوى ما نأكل ونرتدي. ماذا تريد منِّي كرمز؟

ابتسم القائد، وقال:

- الأمر يعتمد على رغبة شيخ القبيلة في تسليمه لي.

قال "تشين ياو":

- أنا مُزارع، أخبرني ماذا تُريد.

قال القائد:

- طبلة "تشون يوي" للقرع بمقبض على شكل نمر.

لم يكن صوته مرتفعًا، لكن كل الموجودين سمعوه، وأصابهم الذُّهول. طبلة الـ"تشون يوي" هي آلة كان يستخدمها أجدادهم خلال الحروب. كانت تبدو مثل الأسطوانة وتُصدر أصواتًا عند القرع عليها. وفي الأعلى، يوجد نمر كرمز للزَّعامة. يقال إن هناك مجموعتين أو ثلاثًا أخريات من الناس على بُعد مئات من الأميال احتفظوا بالآلة كما فعلوا هم، لكنهم جميعًا لديهم نمر واحد، بينما منطقة نهر "قوارب التنين" لديها توأمان. حسب التقدير، فعمر النمرين ألفا عام. كل جيل من شيوخ القبيلة يعتبرهما ميراثه الثمين.

بعد أن نطق القائد بذلك، بُهت شيخ القبيلة. ثم قال القائد:

- كنت أعرف أن شيخ القبيلة لن يعطينا إيَّاها، كنت أمزح، لكن ما قصدته من حديثي هو أن تبقى بعيدًا عنَّا.

ضرب بسوطه، وبدأ يبتعد. لكنَّ "تشين ياو" وقف في طريقه وأخرج خنجرًا من حزام خصره. ارتعب القائد وأوقف حصانه، ثم قال:

- ماذا تُريد أن تفعل؟

لم يجب، وأشار لاثنين من رجال "تو چيا" أن يحلَّا عمامته. كان قماش عمامته يبلـغ طولـه 13 قدمًا، مثل رسالة طويلة من الشعر. رفع "تشين ياو" الخنجر وطعن يده. انفجر الدَّم فورًا. كتب بالدَّم على القماش:

"هنا "تشين ياو"، فلتُطلقوا سراح الرجل".

كان الدَّم كثيفًا، وجفَّ تحت الشمس. لفَّ "تشين ياو" القماش بيديه وأعطاه للقائد. نظـر القائد حوله ورأى أهل "تو چيا" واقفين بين "البامبو" وعلى المنحدرات، رجالًا ونساءً، نظـراتهم مُظلمة ومُخيفة. خفض رأسه، وقبَّل القماش. ترك "لي آن" ورحل.

سحبت "وو نيانغ" "لي آن" وأرادت أن ينحنوا لـ"تشين ياو". غطَّى "لي آن" سـاقه المبتـورة، وانحنى. قال من بين أنفاسه الثقيلة:

- لقد أنقذت حياتي، لكنني أخشى أن هذا سوف يجلب عليك المُشكلات.

ابتسم "تشين ياو" بهدوء.

- فعلتُ هذا فقط من أجل "وو نيانغ" وحُبِّها العميق لـك، لا أريـد لهـا أن تُصـبح أرملـةً تعيسةً.

قال "لي آن":

- أليس هذا أفضل لك؟!

- أندم على تزويجك "وو نيانغ" فأنت بالكاد تتفهَّمها.

بينما يتحدَّثان، كانت "وو نيانغ" عادت بورقة موز مليئة بالماء الصـافي، قـدَّمتها لــ"لي آن" فشربها. ضحك وهو ينظر إلى "تشين ياو".

六

لم تكن إعادة بناء منزل خشبي من ثلاث غُرف أمرًا يسيرًا، مرَّت أيام عديدة و"لي آن" مُنهك من جمع الخشب من المناطق البعيدة في الجبل، يحمله عائدًا إلى نصف الصخرة. والطرف الصناعي الذي صنعه، يحك ساقه المبتورة بشدَّة حتى أصابها النزيف. خاصة في الليل كان الألم يعذبه. ورغم أن "وو نيانغ" كانت ترعاه بحب، تغسل وجهه وساقيه وتقوم بتدليكهما، فإن هذا لم يساعده في تخفيف ألمه وضيقه.

سكنا الكهف مؤقَّتًا، في الليلة الأولى، كان أشبه بالمقامر الذي خسر اللعبة، وكانت هي مليئة بالشعور بالذنب وتُحاول أن تفعل كل شيءٍ لتعوضه. قضي الاثنان ليلتهما في حرب حميمية، وكأنهما يريدان الوصول إلى الموت. في الفجر، شعرا بالتمتُّع، لكن بجانب ذلك، جال بخاطر "لي آن" أنه حيث كانت "وو نيانغ" شديدة التعاون خلال الليل، وتجيد الأمر، فلا بُدَّ من أن الأمر مألوف بالنسبة لها. من يعلم كم مرَّة أقامت علاقة مع "تشين ياو"، ربما أصاب "تشين ياو" الملل منها، لكنه كان يأنف أن يتزوَّج بخرساء فجعل الأمر يبدو وكأنه يُسديه خدمة بأن زوَّجه إيَّاها. وقبل الزِّفاف، ادَّعت "وو نيانغ" العفَّة ورفضت "لي آن". يا لها من إنسانة خسيسة!

حينها استيقظت "وو نيانغ"، وأحضرت له طبقًا من الماء الدافئ ليغسل وجهه، لكنه ركل الطبق بعيدًا، ثم أمسك بها وأبرحها ضربًا. كأن "وو نيانغ"

كانت تتوقَّع هذا، لم تقاومه أو تحاول طلب الاستغاثة. سمحت له بضربها، كل ما فعلت هو النظر إليه وعيناها ممتلئتان بالدموع. لم يتحمَّل النظر إلى عينيها. صرخ بها:

- توقَّفي عن النظر إليَّ هكذا، لماذا تُبدين أنكِ بريئة، يمكنكِ الذهاب إلى شيخ القبيلة، وأن تطلبي منه قطع رأسي.

اعتدلت "وو نيانغ"، وحملت الطبق وهي تمسح دموعها. قدَّمته مرَّةً أخرى لـ"لي آن"، لكنه تجاهلها. فبلَّت قطعةً من القماش، ثم عصرتها، ثم أعطتها له. كان يرى الدموع على وجهها، لكنها ظلَّت تُعامله بحنان، امتلأ قلبه بالحزن.

- ليس عليكِ مُعاملتي بلُطف، أو المُجازفة بحياتكِ من أجلي، من الأفضل لي أن أموت.

غطَّت فمه والخوف في عينيها حقيقي. لم يستطع منع نفسه من ضمها. لمس آثار ضربه لها وبكى. قال لعلَّها لم تفعل أيَّ سوء، ربما "تشين ياو" هو الشخص الملعون. استغل نفوذه ليحظى بزوجة غيره كرهًا. ورغم ذلك يعبده سُكَّان نهر "قوارب التنين" بما فيهم "وو نيانغ". يا لها من سخافة!

فقد "لي آن" والديه وعمره سبعة أعوام، أصبح مُشرَّدًا حتى قابل سيِّده الذي تعلَّم منه حرفة النِّجارة. كان يجد نفسه مُنغرسًا في شجارات مع أفراد أكبر منه سنًّا من عصابة في المنطقة الجنوبية الغربية. بعد أن تبع سيِّده، تعلَّم النظام والالتزام، وتعلَّم حرفة يكسب منها قوته. كان سيِّده سريع الغضب – كان يضرب تلاميذه لأبسط الأخطاء. لهذا السبب رحل عنه معظم تلاميذه، بقي فقط "لي آن" لذكائه وإخلاصه، كان يفعل كل شيءٍ لإرضائه. في كل صباح، كان يسرع ليفرغ مبولة السيِّد، كان هذا كافيًا ليشعر السيِّد بالرضا، ويجعله يسقيه من خبرته في الحرفة. بعد ثلاثة أعوام، أنهى دراسته لدى سيِّده وأصبح نجَّارًا مُستقِّلًا.

في الصباح الذي ترك فيه سيِّده، رحل في صمت، دون أن يفرغ المبولة. كان يتوقَّع أنه سوف يكسب دخلًا مناسبًا من حرفته، ثم يتزوَّج ويُنجب أبناءً ويحيا حياةً سعيدةً، لكنَّ جيش "سيتشوان" بدأ في تجنيد أفراد جُدد، كان عليه الهرب من التجنيد الإلزامي. لكنه لم يتوقَّع أن يمرَّ بكل تلك المتاعب خلال هربه. الأمر أشبه بالسفينة التي نجت من المعركة، لكنها سقطت في قناة مائية. لم يتوقَّع أن يقابل عدو حياته في مكان لم يكن يكترث بأمره أدنى اكتراث. يبدو "تشين ياو" أحيانًا محدود الذكاء، وأحيانًا راقيًا، أحيانًا يبدو تقليديًّا مثل حفنة من الرَّمل والتُّربة من نهر "قوارب التنين"، حفنة يُمكن الإلقاء بها بسهولة. وفي الوقت ذاته، يبدو في قوة قمَّة جبل لا يمكن الوصول إليها، بل فقط تأمُّلها. يصيب "لي آن" بالغضب والخوف، كما تختلط مشاعره بالغيرة، والامتنان، لكنه لن يعترف بذلك. ما كان يصيبه بالضيق أن "تشين ياو" بالفعل تسلَّل إلى قلبه.

في النهاية، قرَّر "لي آن": "حسنًا، يُمكننا أن نحيا وجهًا لوجه، لكنني لن أسمح لك بأن تحيا حياة هنيئة يسيرة".

لهذا، سوف يبني "لي آن" منزلًا خشبيًّا جديدًا بيديه، وسوف يصنع سريرًا كبيرًا به زخارف تشبه الأزهار، سوف يجتمع بـ"وو نيانغ" كل ليلة، وينجب عديدًا من الأبناء، ويجعل منهم رجالًا أقوياء، حتى يسرعوا ويصيحوا على ضفاف نهر "قوارب التنين".

بعد فترات من التفكُّر، بدأ "لي آن" يحيا حياة مُسالمة، لم يعد يُسبِّب المتاعب لنفسه بضرب "وو نيانغ". بل أصبح مُحبًّا ورقيقًا تجاهها. كان الحب مُتوَّجًا بينهما ليلًا ونهارًا. وطبيعة "وو نيانغ" الفاتنة تظهر بعد قليل من الحب، فهي سعيدة ونشيطة طوال اليوم. كانت تجمع كثيرًا من الأعشاب من الجبال، مثل يرقانة الفطر الصيني، تغلي الأعشاب في طبق كبير ثم يستحمُّ "لي آن" فيها مرَّةً يوميًّا. وكما هو مُتوقَّع، كان هذا الأمر يمنحه الراحة والاسترخاء ويُغذِّي روحه.

بعد شهر، كانت الأخشاب المطلوبة لبناء المنزل جاهزةً، عدا واحدًا، الجذع الرئيسي. وجـد "لي آن" خشبًا أحمرَ عند الجبل. أخبره سُكَّان نهر "قوارب التنـين" أنـه لا يمكنـه اسـتخدامه في البناء وفقًا لتقاليدهم. اتَّضح أن تقاليدهم توجب أن يكون الخشب المستخدم في بناء الجـذع الرئيسي مسروقًا، وليس مجموعًا من الجبال الخاصة بهم. كما يجب أن يأتي ذلك الخشب مـن شجرة مُزهرة ووفيرة كرمز للرَّخـاء والازدهـار. ولا يجـوز أن يُمسـك مالـك الشـجرة بالسـارق. استهزأ "لي آن" بالأمر في البداية، ثم خطرت على باله فكرة.

- هل علينا سرقة جذع رئيسي؟

- كل عائلة تفعل ذلك.

- هل حقًّا لا يمكن للمالك الإمساك بالسارق وتعريضه للمُحاسبة.

- كيف يمكن أن لا يكون ذلك حقيقيًّا؟

- حسنًا فلتتَّبعاني لنسرق واحدًا الليلة.

أومأ الرجلان وقالا إنهـما سـيحضران فـور حلـول الظـلام. مـن الأمـور الجيـدة بشـأن نهـر "قوارب التنين" أنه كلما كان هناك من يُرتِّب لزفاف أو جنازة، أو بناء منزل، كـان هنـاك كثـير من المتطوعين للمُساعدة. وليس على صاحب الشأن أن يدفع لهـم شـيئًا أو حتـى يقـدم لهـم الشكر. عليه فقط أن يقدم لهم وجبتين. وهنـاك دائمًـا بعـض المتطـوعين ذوي الخـبرة، الـذين يقومون بالأمر أفضل من صاحب الشأن بكثير. وحيث إنها كانت المرَّة الثانية لبناء منزل لـ"وو نيانغ" فلقد أتى عدد كبير من المتطوعين، ولم يرفض "لي آن" منهم أحدًا.

في تلك الليلة، لم يكن هناك قمر في السماء. بعـد تنـاول العشـاء، قـام "لي آن" بقيادة الرجلين من نصف الصخرة. سألوه عن الجبل الـذي يتوجَّهـون إليـه فقـال إنه لا يريد أن يصيبهم بالتعب، سيسرقون واحـدًا مـن مكـان قريـب. وصـلوا إلى

الجهة الجنوبية الشرقية، حيث يقع منزل شـيخ القبيلـة في الظـلام. كانـت هنـاك شـجرة سرو عالية تقف أمام المنزل، تبثُّ رائحة مُنعشة.

توقَّف "لي آن"، وقال:

- تلك هي الشجرة.

تفاجأ الرجلان.

كان الناس جميعًا – حتى على بعد عشرة أميال - يعرفون أن تلك الشجرة لها عُمر مديـد. زرعها شيخ القبيلة، بينما كان يبني المنزل. أصـبحت الشـجرة الآن أطـول مـن المنـزل، ممتلئـة بالورق الأخضر وتبثُّ الرائحة الجميلة طوال العام. كان كبار القبيلة يجتمعون تحتها لمناقشـة الأمور المهمة. وكان أهل "تو چيا" يشعرون بالوقار والاحترام نحو تلك الشجرة كلَّما مـرُّوا بهـا. حتى الأطفال الأشقياء لا يجرؤون على تسلُّق تلك الشجرة.

قالا:

- أخي "لي آن"، من الأفضل اختيار شجرة أخرى.

- تلك هي الشجرة التي أريدها.

في اليوم الذي علم فيه أنه تم حمل "وو نيانغ" إلى منزل "تشين ياو"، نـوى قتلـه بطريقـة وحشية، لكنَّ ساقه المبتورة جعلت الأمر صعبًا. كان يتنفَّس بصعوبة وهو يستحمُّ أمام منزلـه، عندما ينظر إلى أعلى كان يرى تلك الشجرة. تقف في الظلام مثل الوحش الـذي يفـتح ذراعيـه ليحمي هذا المنزل. تسلَّل الخوف إلى قلبه وللأسف احتاج للرحيل. قال:

- أشكر تقاليد نهر "قوارب التنين" التي دلَّتني إلى ذلك الجذع العظيم.

- تلك الشجرة لا تصلح أن تكون الجذع الرئيسي، فهي سميكة للغاية.

- ألا يُمكنني قطعها إلى نصفين؟ سوف أستخدم القلب فقط.

علا صوته وهو يقول:

- أنتم لستم صادقين، لقد اقتنعت بحديثكم رغم كوني غريبًا، وفور أن بدأت في التنفيذ ترفضون، هل تعاملونني كطفل في الثالثة من عُمره؟

قالا:

- حديثنا السابق صادق، لكن لا يمكن قطع تلك الشجرة.

قبل أن يُنهيا حديثهما، كان صوت فأس "لي آن" يقطع في الشجرة. قال:

- حيث إن حديثكما السابق صادق، فليس هناك داعٍ لأن لا أقطع الشجرة، عودا إلى منزليكما من فضلكم، فلتأتيا فقط في الصباح لأنني سوف أحتاج للمساعدة لحملها.

بينما يقول هذا، كان بالفعل يقطع في الشجرة مستخدمًا فأسه. كانت الأصوات الصادرة مثل قرع الطبول، تهزُّ الأرواح، في الظلام هرب الرجلان وهما يُغطِّيان أذانهما.

بدا شعاع ضوء من المنزل ثم خرج شيخ القبيلة حاملًا شُعلة. كان يرى كل شيءٍ بوضوح وهو يقف في الممر.

أدرك "لي آن" وجود "تشين ياو"، لكنه تجاهله، دفن فأسه في قلب الشجرة، ثم اضطر أن يسعُل بصوت مرتفع.

وقف "تشين ياو" يشاهده في صمت.

بدأت شعلة "تشين ياو" تنطفئ، شعر "لي آن" بالعرق يتصبَّب عليه. تملَّت أطراف أصابعه، بينما جذع الشجرة لم يُقطع سوى بقدر لا يتعدَّى البوصة.

كان يحتاج للرَّاحة، استند على الشجرة ومسح عرقه الذي تسلَّل إلى عينيه. حينهـا جـاء صـوت "تشين ياو" الهادئ:

- لكي تقطع شجرة ضخمة مثل تلك، عليك استخدام منشار وإلا ستسقط الشـجرة نحـوك وتُصيبك.

قال "لي آن":

- لقد أحضرت المنشار، لكن لا يُمكنني استخدامه وحدي.

- هل تحتاج إلى مساعدتي؟

رفع "لي آن" رأسه، وقال:

- ألا تكترث لأمر تلك الشجرة.

- الشجرة شجرة، ما الأهمية التي يمكن أن تحملهـا؟ إنهـا تنمـو مـن أجـل أن يسـتخدمها الإنسان، هذا ما يهم.

نزع "لي آن" الفأس من الشجرة، وقال:

- إن كنت لا تكترث بأمرها فلمَ أعاني لأقطعها.

عاد "لي آن" إلى البيت عابسًا، وهو يشعر أن "تشين ياو" هزمه من جديد.

لكنها لم تكن النهاية؛ لم يزل هناك طريق طويل أمامهما. ذهب إلى الجبل وقطع الخشـب الأحمر الوردي الذي كـان يرغـب بـه في البدايـة، وصـنع منـه جـذعًا مثاليًّـا، وبخـطٍّ مثـالي في المنتصف، رسم الرمزين: "السماء والأرض" باللونين الأحمر والأسـود، بالترتيـب، عـلى الجـانبين. يوم رفع الجذع، دعا الرجلين اللذين سـاعداه، وسـكان نهـر "قـوارب التنـين". كـما دعـا شـيخ القبيلة بشكل شخصي. كان مُهذَّبًا وهادئًا وهو يدعوه، مما أجبر شيخ القبيلة على المجيء.

في عصر هذا اليوم، وصل "تشين ياو" إلى نصف الصخرة، رآه "لي آن" فـأسرع إليـه يُرحِّـب به ومعه "وو نيانغ" بعد أن ترك ما كان يفعل.

بعد أن رأى "تشين ياو" ابتسامة "وو نيانغ" وجسدها الفاتن قـد أصـبح مُختلفًـا – تخيَّلـه يتعرَّض للذُّبول والحزن – أصبحت مشاعره مضطربة. امتلأ قلبه بمشاعر مختلطة، ولم يـتمكَّن من التفريق بين المُر والعذب. شرد قليلًا. لاحظ "لي آن" هذا وطلب من "وو نيانغ" أن تـحضر له كرسيًّا يجلس عليه.

قال "تشين ياو":

- حان الوقت لرفع الجذع، من الأفضل أن نهم.

قال "لي آن":

- لا أعتقد أن شيخ القبيلة يبدو في حالٍ جيِّدٍ، هل تشعر بعدم اتِّزان؟

لم يجب "تشين ياو" فارتسمت ابتسامة زائفة على وجه "لي آن".

امتلأت الصالة بأهل "تو چيـا" الـذين أتـوا لتهنئـة "لي آن". أشـعل الكـاهن البخـور والـورق للتعبُّد للآلهة. تدلَّى الحبل من السطح لاستخدامه في رفع الجذع.

تمَّ رفعه بنجاح في دقيقة.

بدأ الكاهن يمدح:

- كان مُبكِّرًا، لكن ليس قبل الأوان، لقد رفع المُضـيف الجـذع بنجـاح. كـان مُتـأخِّرًا، لكـن ليس بعد فوات الأوان، رفع المُضيف الجذع في الوقـت المناسـب. جلـس المُضـيف عـلى موقـع جيِّدٍ، كان في قلب شريان التنين، إن جلس على رأس التنين، فسوف يخرج إمبراطور من هنـاك، وإن جلس على خصر التنين، فسوف يخرج تلاميذ متفوِّقون من كل جيل من أحفاده.

صاح الجمع:

- مديح ممتاز.

تهلَّل وجه "لي آن"، وانحنى للجمع.

- أشكركم لمجيئكم، هناك أمران نحتفل بهما.

سأل أحدهم:

- رفع الجذع هذا أمر واحد للاحتفال، فما الأمر الآخر؟

- لقد علمت بـالخبر هـذا الصـباح، إن زوجتـي تحمـل جنينًـا، ألـيس هـذا أمـرًا يسـتحقُّ الاحتفال؟

هلل الجمع:

- تهانينا لكما.

- لولا مساعدتكم لما تمكَّن وافد مثلي من الاستقرار هنا وبناء أسرة.

سار "لي آن" نحو "تشين ياو" مباشرةً وانحنى له. كان "تشين يـاو" يشـعر كأنـه في دوامـة، لكنه أجبر وجهه على الابتسام.

بعد أن شربوا نبيذ الأرز، ودع "لي آن" شيخ القبيلة باحترام. تأمَّل ظهر هـذا الرجـل وهـو يرحل بسعادة. لم يكن يسير بشكل مُتَّزن. كان "لي آن" يعلم أن مـا سـمعه ورآه اليـوم أصـابه بالألم. لذا عاد إلى الصالة وشرب المتبقي من نبيذ الأرز في سعادة. "وو نيانغ" هي مـن أعـدَّت النبيذ، لذا كان شهيًّا وعذبًا.

بينما يشرب النبيذ، بدا كأنه يرى شخصًا أمامه. كان الكاهن جالسًا هناك، وعيناه تُحدِّقان في "لي آن" في صمت. تفاجأ "لي آن".

قال الكاهن ببُطءٍ:

- ماذا كان هدفك من القيام بهذا؟

- ماذا تعني بماذا كان هدفي؟

تمتم الكاهن:

- اللؤم يوقع باللئيم.

七

لماذا لم أقتله؟

ابتعد "تشين ياو" عن نصف الصخرة. كان يعاني لهيب الغضب بداخله. كانت فترة ما بعد الظهيرة هي الأشد حرارة وجفافًا في اليوم. حتى العُشب يفقد طاقته. كانت هناك بقـرة تلهـو في بركة صغيرة، والماء الثقيل بالطين ينسال على جسدها، أشد إرهاقًا من أن تصدر حتى صوتًا. داس على ضفدع قد قفز إلى حافة الحقل وسمع صـوت انفجـار معدتـه بوضـوح. عنـدما رأى السائل الوردي ينسال من أحشائه، شعر بشيءٍ من لذة الوحشية.

بإمكانه قتل الوافد دون عناء. في الشتاء الماضي، تسـلَّلت مجموعـة مـن اللصـوص إلى القريـة. طلبوا من "تشين ياو" وسكان القرية تقديم ثلاثمئة رطل من الأرز، وعشرة خنـازير. وإن لم يفعلـوا فسيحرقون منزله المُشيَّد بثبات وسيأخذون نساء القرية إلى جبـل "الثمانيـة وجـوه". وقـف فـوق منزله، وقال للصوص:

- ليس من الصعب أن نقدِّم لكم ما طلبتم، لكنـه لـيس مـن السـهل أيضًـا أن تأخـذونهنَّ بعيدًا، فقط انظروا فوق أكتافكم.

بعد أن قال هذا، أطلق عليهم النار، لم يصوب نحو رؤوسهم أو قلوبهم، بل نحو أكتـافهم. سقطوا فورًا. قال لهم "تشين ياو":

- حافظوا على أرواحكم، ويُمكننا أن نكون أصدقاءً في المستقبل.

أدركوا أنه ليس رجلًا بسيطًا، وتركوا القرية فورًا. كان السلاح ذاته الذي صوب به نحو اللصوص لا يزال مُعلَّقًا على الحائط عنده. كان ينظفه كل ليلة. المناخ رطب في الجبال، إن لم ينظفه يوميًّا لتعرَّض للصدأ. أسرع إلى منزله مثل الريح وأخذ السلاح وصوَّب به من النافذة نحو المنزل عند نصف الصخرة. كان المنظر قد أصبح مألوفًا له، فمعظم يومه يقضيه أمام النافذة. يعرف أن "وو نيانغ" في الصباح تنظف وتنثر الماء أمام المنزل، تنعكس أشعَّة الشمس على قطرات الماء فتبدو مثل حبات قوس قزح. وفي المساء يراها بوضوح، تُلوِّح بيديها لتقود بعض الغنم الأبيض ليعود. لم تصدر صوتًا. فقط تلوح بذراعيها الفاتنتين والغنم ينساق أمامها. حتى سيقان "البامبو" الجديدة التي كانت تنمو كل يوم أعلى وأعلى، كان يتساءل إن كانت "وو نيانغ" سوف تتركها أو تقطعها. الآن يرى الوافد يخرج من المنزل يستند على الباب ويتثاءب.

امتلأ بالغضب والثورة.

"ألا يفهم الوافد؟ لقد أنقذته من موت مُحقَّق وأشاهده يعيش مع المرأة التي أحب، كم من الآلام يجب أن أعاني من أجله؟".

كان هناك اثنان "تشين ياو" يتصارعان في عقله. كلاهما شاب مليء بالحماس، وينحدران من الأجداد ذاتهم. لكن أحدهما يريد أن يحصل على ما يريد أيًّا كان الثمن. رغم اعتراض سُكَّان القرية، ورغمًا عن رأي "وو نيانغ"، لكان هذا الشخص سار إلى نصف الصخرة وجذب جسد المرأة الناعم وأخذها إلى بيته وأجبرها أن تعيش معه، لكنَّ "تشين ياو" الآخر كان يعرف مسؤولياته. كان سليل أجداده، والإله المقدس لأهل "تو چيا" في نهر "قوارب التنين" و"وو نيانغ"، تهوره لن ينال رضا أيٍّ منهم. لا يمكنه الإطاحة بسُمعة أجداده.

أنهكته تلك المُعاناة. بذل قصارى جهده ليصبر ويتمالك نفسه، لكنَّ الوافد جرؤ على السُّخرية منه، وكأنه يصبُّ الماء القذر على وجهه. كيف لا يقتله؟

كان يُصوِّب السلاح نحو رأسه، بينما الوافد يتطلَّع إلى بعيد شاردًا. إن سحب الزناد، فسوف يتخلَّص من نظرة الاستفزاز تلك. لكنَّ هذا سيصيب "وو نيانغ" بالذعر. صوَّب نحو صدر الوافد، قميصه الأبيض ناصع، لا بُدَّ أن "وو نيانغ" غسلته له. لكن في لمح البصر، سوف يطغى اللون الأحمر على الأبيض. لكنه تردَّد مجدَّدًا، ربما يجب أن يصيب ساقه الأخرى. كانت ساقه الصناعية مُلتويةً قليلًا، لكنها كانت مصنوعة بحرفية واضحة، لن يسمح له بصنع واحدة أخرى.

كان كل تركيزه مُنصبًّا على ضحيَّته، ولم يلحظ أن أحدهم يقترب منه. ربما صُدم المقترب مما رآه، فنادى عليه بصوت خافت. التفت فوجد الكاهن "تشين لاو أر". كان يقف هناك مذهولًا بوجه شاحب. ابتسم غصبًا، والإنهاك واضح عليه، ويداه تلمسان السلاح اللامع.

قال:

- ليست هناك ذخيرة في السلاح.

ظل الكاهن مُضطربًا قليلًا حتى فهم ما سمع. أراد "تشين لاو أر" أن يقول شيئًا، لكنه توقَّف وتأمَّل "تشين ياو" في قلق. قال "تشين ياو":

- أرجوك أن ترحل، لا أريد التَّحدُّث الآن.

أغلق عينيه بضعف. وشعر بنسيم يمرُّ في الصالة. لم تعد حشرات الزيز المُزعجة تحدث ضوضاء على شجر السرو. ربما تعبوا. كانوا ينادون بعضهما بعضًا بصوتٍ عالٍ، ثم يردُّون بصوتٍ منخفض. نام لفترة. شعر بضوء مُسلَّط على وجهه. عندما استيقظ، كان "تشين لاو أر" لا يزال واقفًا هناك، دون حركة.

تفاجأ:

- لماذا لم ترحل؟

- هناك أمر واحد يجب أن أقوله لك.

- هل هو أمر عاجل؟

قال "تشين لاو أر":

- الجنين الذي تحمله "وو نيانغ" هو لك.

وقف "تشين ياو" بوهن، استند إلى كتف "تشين لاو أر"، قال الكاهن:

- طلب مني "لي آن" هذا الصباح أن أفحص النبض لـ"وو نيانغ". إنها في الشهر الثالث. وفقًا لحسابي للوقت، لا يمكن أن يكون الجنين له، بل لك.

تملَّك منه شعور بالسعادة. انحنى وهو يبكي في سعادة. اختفت كل المتاعب التي كان يُفكِّر بها في لحظة، وهو يُفكِّر في واقع جديد، جنينه بداخل "وو نيانغ". لم يعد رجلًا غريبًا بالنسبة لتلك الفتاة الجميلة. وصار لديه ما ينتظره.

لكنَّ "تشين لاو أر" كان ينظر إليه بقلق.

- سوف تأتي المتاعب إليك.

تفاجأ "تشين ياو". إن عرف "لي آن" أن الطفل ليس طفله فسوف يُعذِّب "وو نيانغ"، لكنه إن جرؤ على لمسها فسوف يقطع له "تشين ياو" يديه. فور أن تضع "وو نيانغ" هذا الطفل، سيذهب إلى منزلها ويطالب بهذا الطفل، ثم يأخذه ليُربِّي بشكل مناسب في منزله العريق، لكنه سمع "تشين لاو أر" يهمس في أذنه:

- من الأفضل التخلُّص من الأمر الآن.

- التخلُّص من ماذا؟

بقي "تشين لاو أر" صامتًا، لكنَّ "تشين ياو" رأى الإجابة على وجهه. ارتعش جسده غضبًا عنه كأن ثعبانًا قد لدغه. أراد أن يصفع الكاهن. أشار إلى الباب، وصاح في غضب:

- اخرج.

لم يدافع "تشين لاو أر" عن نفسه. رحل وظهره مُنحنٍ قليلًا.

في تلك الليلة، انحنى "تشين ياو" للأجداد مُجدَّدًا. وفتح الغُرفة السِّريَّة بحرص، ثم أخرج طبلة الـ"تشون يوي"، ووضعها على سريره ليتعبَّد. شاع ضوء غامض من الأنتيكة البرونزية. أذاع الهدوء في المنزل المُشيَّد ليتمكَّن "تشين ياو" من النوم.

في الصباح الباكر، فتح النافذة ورأى "وو نيانغ" تقود الغنم الأبيض على المنحدر العشبي.

جلست "وو نيانغ" على صخرة، وشردت تتأمَّل السحاب. ضربها زوجها ليلة أمس مُجدَّدًا. هذه المرَّة لم يركلها، بل قرص أعضاءها بكل قوة وكراهية. كان الألم غير مُحتمل. لم ترتكب أيَّ خطأ. كل ما أرادته هو تعديل بعض الملابس القديمة حتى يصبح مقاسها مناسبًا لها في الحمل. فور انتهائها من الحياكة، هجم عليها زوجها مثل الشيطان الغاضب.

أصبح زوجها غريبًا بالنسبة لها، والأمر يزداد يومًا بعد يوم. كانت مشاعره غير متوقعة مثل طقس مارس. رغم مُحاولتها لم تفهمه. كيف أصبح زوجها الوسيم الرقيق وحشًا أنانيًّا ومُنزعجًا. لم تعرف إن كان الأمر سوف يستمر للأبد. كانت تخشى أن تكبر الكراهية التي بدأت تنمو في قلبها ببُطءٍ تحت تأثير تصرُّفات زوجها. لم تشأ أن تكره زوجها. اجتاح القلق جسدها، وبكت مُكرهةً وهي تستند إلى الصخرة.

أتى رجل من بين العُشب والأشجار. رأت "وو نيانغ" الكاهن. عرفت أن دموعها في عينيها، فقد بدا شديد القلق حيالها.

- يا لكِ من امرأة مسكينة.

سالت دموعها فورًا مثل الشلّال.

- تناولي تلك الحبّة وسوف تشعرين بتحسُّن.

قدَّم لها حبَّةً ذهبيةً لها رائحة قوية. تفاجأت "وو نيانغ". لم ترغب أن تسـأله عـن المـرض الذي يحاول أن يُعالجها منه. ففنُّه في علاج الناس ظلَّ غامضًا بالنسبة للجميع. كل مـا أرادتـه كان محو حزنها الدائم. وأن تعود إليها السعادة. لذا تناولت الدواء. كادت تبتلعه، لكـنَّ نـداء قويًّا من بعيد فاجأها.

خرج "لي آن"، وأخذ منها الدواء. تأمَّل الدواء، ثم قال:

- لماذا تُقدِّم تلك الحبَّة لزوجتي؟ إن أردت ككاهن أن تساعد زوجتي خلال حملها فعليك أن تخبرني أوّلًا. لم يكن سهلًا لها أن تحمل جنينًا؛ لذا يجب أن نتأكَّد أن أيَّ شيءٍ تتناوله آمن.

بينما يقول هذا، جلب ماعزًا تحمل جنينًا وأخذ نصـف الحبَّـة ووضـعها في فمهـا. في تلـك اللحظة، سمعوا وقع أقدام قويًّا مثل الريح.

نظرت أعينهم في الاتِّجاه نفسه. توقَّع "لي آن" والكاهن القادم؛ لكـنهما تفاجـآ عنـد رؤيـة شيخ القبيلة. ظهر متعرقًا. صدره يتحرّك مثل الريح. وعلى وجهه نظرة ذُعر.

نظر "لي آن" إليه ببرود.

اتَّجه "تشين ياو" إلى "تشين لاو أر"، وقال:

- لم تخبرني أنك تنتوي القيام بذلك.

قال "تشين لاو أر" بهدوء:

- إنه من مسؤولية الطبيب أن يُنقذ الناس، والعالم.

بينما يتحدَّثون، كانت الماعز تُبدي أعراض الألم بالفعل. تألَّمت ثم تعـثَّرت ووقعـت عـلى الأرض، ثم نزفت كُتلة من الدَّم. فقدت "وو نيانغ" الوعي، وسقطت على الصخرة فـور أن رأت هـذا. اقـترب الكاهن منها وضغط على مناطق الأعصاب لديها.

دفع "لي آن" الكاهن بعيدًا، وقال ساخرًا:

- لقد أتى شيخ القبيلة بنفسه دون دعوة، هل لي أن أنتهـز الفرصـة وأسـأل: أراد الكـاهن الخاص بكم قتل الجنين بداخل "وو نيانغ" دون سبب بيِّن، ما رأيك في ذلك؟

كان بداخل "تشين ياو" بحر عاصف من المشاعر المضطربة، لكنه لم يتمكَّن من قـول شيءٍ حيال ذلـك. كـان يعـرف أنـه و"لي آن" يحمـلان بـداخلهما معرفـة ضـمنية عـن والـد الطفـل البيولوجي. قال ببساطة:

- لم ينجح في ذلك.

قال "لي آن":

- ماذا إن كان نجح؟

- من يفعل ذلك فسأقطع يده وأنفيه من نهر "قوارب التنين" أيًّا كان.

نظر "تشين ياو" إلى عيني "لي آن" مباشرةً.

ضحك "لي آن"، وقال:

- جيِّد، تحت حماية شيخ القبيلة، سيأتي هـذا الطفـل إلى العـالم في أمـان، وسـوف أعتمـد عليه في المستقبل.

نظر "تشين لاو أر" إلى السماء في قلق.

في تلك اللحظة، كل ما كان يريده "تشين ياو" هو إخبارهم بهوية والد الطفل، لكنـه يعـرف أن إثبـات ذلـك قبـل مـيلاد الطفـل أمـر صـعب. حينهـا يقومـون

باختبار الدَّم أمام الجميع ويتمكَّن هو من المطالبة بطفله. أما الآن فكل ما يمكنه فعله هو تحمُّل ابتسامة الشر الغامضة على وجه الوافد والبقاء صامتًا.

ابتسم "لي آن"، واستأنف حديثه:

- كوافد من الخارج، لا أعرف ما التقاليد عندكم، لذا أتساءل كيف سوف يتعامل شيخ القبيلة مع الكاهن؟

قال "تشين ياو":

- سأعاقبه. سوف يعمل بكَدٍّ في ساحة "شه با" لمائة يوم.





كانت ساحة "شه با" تقع بالقرب من نهر "قـوارب التنـين" الـذي يجـري بـلا توقُّـف لـيلًا ونهارًا. كان مكان اجتماع مهمًّا لسكان القرية خلال موسم الاحتفالات. بنـى الأجـداد السـاحة وفق الطرق النموذجية، حيث يستخدمون الصخر من النهر فقط لبناء الحوائط المحيطة بهـا. كان بالحائط منصَّة من التربة، وسقف للألواح التذكارية مـن الأجـداد، فقـط. تتَّسـع السـاحة لألف شخص، سُكَّان القرية والأصدقاء، وحتى الأقارب من القـرى الأخـرى. تـتم إعـادة صـيانة حوائط ساحة "شه با" عامًا بعد عام. يحمل سُكَّان القرية الصخور المطلوبة من النهر. وحيـث إن فيضانًا وقع العام الماضي، على الرغم من أنه يقع مرَّةً واحدةً في القرن، فإن معظم الحوائط تحطَّمت، وهذا يحتاج إلى مشروع صيانة ضخم.

حمل الكاهن الصخور لساحة "شه با" لمدة مائة يوم بالفعل. خلال الأيـام السـاخنة جـدًّا، يتم حرق الصخور بجانب النهر إلى رماد. تصبح كل صخرة وكأنها جمرة مُلتهبة. وأقل احتكاك يُحدث شرارة زرقاء. كان الكاهن النحيل يرتدي حذاءً من القش ويحمل الصـخور مـن جانـب النهر الواحد تلو الآخر. بينما التهبت الحبَّات الضخمة عـلى شـفتيه. وضـع "تشـين يـاو" طبقًـا كبيرًا من الماء البارد في طريق "تشين لاو أر"، يمكنه الشرب منه متى شعر بالعطش.

في البداية، كان "تشين لاو أر" وحده بجانب النهر الأبيض، مثل النملة السوداء، لكـن مـع مرور الوقت، كان يأتي اثنان أو ثلاثة من أهل "تـو چيـا" في الليـل والنهـار لمسـاعدته. مـؤخَّرًا، وخاصة بعد الغروب، يأتي كثير من سُكَّان القرية، حتى أصبح المكـان ممتلئًـا بالضوضـاء مثـل السوق. بعد مائة يوم، تم تكويم الصخور المطلوبة في تلال عديدة. دعا "تشين ياو" عددًا مـن البنَّائين لبناء حوائط سميكة قوية لساحة "شه با"، واستخدموا الصخور الزائدة لرصـف الأرض بداخل الساحة.

يوم الانتهاء من البناء، جاء بكاء رضيع من قرب نصف الصخرة. علـم السـكان جميعًـا أن "وو نيانغ" قد أصبحت أُمًّـا. لكـن "لي آن" علَّـق شريطًـا أحمـرَ عـلى البـاب، ورفـض السـماح بالزيارة، مما أحاط المنزل الخشبي المُغلق بغموض لم يعد سُكَّان القرية يتحمَّلونه.

قضى "تشين ياو" ثلاثين يومًا يحترق من القلق. حتـى أصـبح عُمـر الطفـل شـهرًا. في ذلـك الوقت، توقَّف نزول الثلج على نهر "قوارب التنـين"، كانـت الجبـال والأسـطح لهـا لـون أبـيض لامع. انتظر منذ الصباح الباكر حتى يرى "وو نيانغ" تخرج تحت أشعَّة الشمس بالطفل، لكـنَّ أحدًا لم يخرج حتى الظهيرة. أتى إليه بعض العجائز ليخبرنه عن نتيجة بحثهنَّ عـن زوجـة لـه. كانت هناك فتاة تنحدر من سلالة "مياو". نالت رضاهنَّ جميعًا. كان والدها شيخ قبيلـة تلـك المنطقة أيضًا. وكانت الفتاة نفسـها جميلـة وفاتنـة. العقبـة الوحيـدة كانـت المسـافة الكبـيرة بينهما، حيث يُكلِّفهم الأمر ثلاثة أحذية من القش للعودة. بعيدًا عن ذلـك، فكـل شيءٍ مثـالي. وعدهم "تشين ياو" أن يذهب لرؤيتها فور أن يأتي الربيع. وسوف يُعجِّل بالزِّفاف حتى يعفـي كبار السن من الحرج، لكنَّ هناك أمرًا عاجلًا يحتاج إلى موافقتهم.

سألوه عن هذا.

قال:

- عندما تبزغ الشمس غدًا، فلنجتمع تحت شجرة السرو، وسوف أخبركم بالأمر.

أصابتهم الحيرة، وتبادلوا النظرات.

كان اليوم قصيراً في الشتاء، حلَّ الظلام سريعًا بعد أن رحلوا عنه. تناول كأسًا من نبيذ الذرة، وبعض لحم الغزال. أحكم حزامه حول خصره، وسار نحو نصف الصخرة ومعه سلاحه. تهشَّم الثلج تحت قدمه، لكنَّه كان أهدأ، ليس مضطربًا مثل الأوقات الماضية، تفاجأ لهدوئه هذا.

تسلَّق نصف الصخرة، فوجد الأرض مكسوَّة بثلج أبيض خالٍ تمامًا من آثار الأقدام، وكأنه فراش مُنبسط. كان المنزل هادئًا وكأن الجميع نيامٌ. تمكَّن الخوف من قلبه فجأةً. زحف إلى المنزل، وسمع صوتًا:

- أخرج عصا الكلب.

رفع "تشين ياو" رأسه، رأى مصباحًا زيتيًّا مُضاءً في الصالة، لا غير، و"لي آن" جالس تحت الضوء بلا حراك. انعكس الضوء على وجهه الرقيق الوسيم. كان سُكَّان القرية جميعًا يتحدَّثون عن وسامة وجه الوافد، الآن فقط رأى "تشين ياو" ذلك.

أعاد "لي آن" قوله:

- قلت أخرج عصا الكلب.

ألقى "تشين ياو" سلاحه على الأرض. انحنى ونظَّف الثلج عن بنطاله. ثم ختم الأرض قبل أن يدخل الغُرفة. نظر هو و"لي آن" لبعضهما بعضًا لوقت طويل. اشتدَّت الرياح في الخارج، وعوت فوق سطح المنزل. اهتزَّت النار في المصباح، وكادت تخمد، وبدأ القلق يعتلي الغُرفة. كاد كل منهما يسمع ضربات قلب الآخر، ثقيلة وسريعة.

- واه! واه واه!

في تلك اللحظة، جاء بكاء الرضيع من داخل المنزل عاليًا. التفت "تشين ياو" وحدَّق في الباب، ملأ الحنين عينيه فورًا. ابتسم "لي آن" ببرود، وركل الباب ففتحه.

شعر "تشين ياو" كأن الدَّم تجمَّد في جسده بالكامل.

كانت "وو نيانغ" التي يشتاق إليها ليلًا ونهارًا هناك، على السرير. لكنَّ وجهها مُغطًّى بشعرها وأطرافها مربوطة إلى أطراف السرير. على السرير شيء صغير ملفوف في غطاء، يأتي البكاء من هناك. امتزج الفرح بالغضب والقلق داخل "تشين ياو". اقترب "لي آن" من السرير وحمل الطفل. فاشتدَّ بكاؤه.

صرخ "تشين ياو":

- هذا ابني، ابني.

أخفض "لي آن" ذراعيه برفق:

- هل هو كذلك؟ ليس ابني، فهل هو لك؟ فلنسأل "وو نيانغ".

قبل أن ينهي حديثه، أزاحت "وو نيانغ" شعرها وهزَّت رأسها بكل قوة. تمكَّن الغضب من "تشين ياو". شعر كأن أعضاءه سوف تنفجر. ضحك "لي آن". داعب شفتي الطفل بيده فتوقَّف عن البكاء ولاحق إصبعه برأسه.

قال "لي آن":

- هل تعرف لماذا هزَّت رأسها نفيًا؟ لأنني أخبرتها أنها إن أكَّدت أن الطفل لك...

ووضع يديه حول عنق الطفل.

- فسوف أقتله.

تقدَّم "تشين ياو" متعثِّرًا وقال في صوت أجشَّ:

- أعطه لي وسوف أفعل كل ما تريد.

راوغه "لي آن"، وقال:

- عُد إلى الباب، وابقَ هناك، وإلا سأخنقه الآن.

بدأت "وو نيانغ" تبكي بشدَّة وتصارع بيديها وساقيها بألم. تراجع "تشين ياو" ببُطءٍ. حـدَّق "لي آن" به دون أن يرمش. ثم فجأةً ضحك بشدَّة.

- إذًا، فأنت في الواقع رجل ضعيف، لطالما كنـت شـديد الغـرور، والكـرم والتحمُّـل. لكـن يمكنك أيضًا أن تبكي وتشعر بقلَّة الحيلة. لكنـك لم تعـرف الكراهيـة بعـد. دعنـي أعلِّمـك مـا الكراهية اليوم. هل تعرف ما يعنيه زفُّ عروس رجل إلى رجل آخر بالقوة، بينما على الزوج أن يهرب بعيدًا في اللا شيء مثل الكلب؟ وأن يكون أوَّل مولود له هو ابن رجـل آخـر. تلـك هـي الكراهية. هل تفهم؟ هل تريد أن تشعر بها؟

رأى "تشين ياو" الكراهية تتلوَّى على وجه "لي آن" وشعر بقلَّة الحيلة. حتى أراد أن يشرح له كل شيءٍ الآن فمن الصعب التواصل معه. كانا طائرين مـن جبـال مختلفـة، أو مياهًـا مـن نهرين مختلفين.

بعد فترة، قال "تشين ياو":

- ماذا تريد؟

- لقد انتظرت هذا اليوم منذ البداية، لمدة عشرة أشـهر حتـى الآن. انظـر إليَّ، لقـد شـاب الشعر في ذقني. وفي النهاية أتيت. قلت إنني سأجعلك تشـعر بالكراهيـة، سـوف أقتـل ابنـك أمام عينيك.

سحب سكينًا حادًّا وغرسه في الطاولة.

صرخ "تشين ياو":

- كلَّا.

وارتعشت "وو نيانغ" بشدَّة.

قال "تشين ياو" وهو يرتعش:

- لا تقتله، أنا مستعدٌّ لإعطائك كل شيءٍ.

اشتدَّت الرياح أكثر، وعوت حول المنزل، بينما صفعت الأبواب والنوافذ. تـألَّم المنـزل كلُّـه واهتزَّ تحت الريح.

فجأةً، حلَّ الظلام عـلى الغُرفـة، أصـبحت مُعتمـة مـع انعكـاس خفيـف للـثلج القـابع في الخارج. قال "لي آن" في الظلام:

- حيث إنك مستعدٌّ الآن للتضحية بكل شيءٍ مقابل ابنك، فسأسمح لك بـذلك، وإلا كنـت شخصًا شريرًا. سوف أعتبر هذا ردَّ الجميل لك لأنك أنقذت حياتي، ولست بذلك الطمع، كل ما عرضته عليَّ لا أجرؤ على قبوله، لا أريد منك إلا أمـرين، وأرغـب فقـط أن تعطينـي أحـدهما، الاختيار لك؟

قال "تشين ياو":

- أسمعك.

- قف بثبات وإلا لا تلُمني إن تصرَّفت بوحشية، هناك أسباب قوية تجعلني أريـد هـذين الشيئين منك، وحيث إنني رجل منطقي فسـأشرح لـك الأسـباب. الشيء الأوَّل هـو الـ"تشـون يوي"، أعرف بالطبع أنه ميراث مهم من أجدادك – وإلا لماذا أراد جيش "سيتشوان" واللصوص أخذه؟ من أجل كل التناحر بيننا فسوف أتخلَّص منه – سأبيعه مقابل بعض المال لأتمكَّن مـن الذهاب بعيدًا مع "وو نيانغ"، ومن هناك يمكن لكل منـا أن يهـتم بـأموره الخاصـة، أرى مـن وجهة نظري أن هذا هو الخيار الأفضل لك، لكن لا أعرف إن كنت سوف توافق.

- وماذا عن الخيار الآخر؟

- أخشى أنه خيار صعب، لكن إن رفضت الخيار الأوَّل فسوف أهتم بالحصول على الثاني. إن لم أتمكَّن من ترك المكان هنا مع "وو نيانغ"، والذهاب للعيش معها بعيدًا. فأنت الشخص الذي لا أريد أن أراه أبدًا، لكنني لا أريد لك أن تموت. كل ما أريد هو صوتك. صوتك المغرور الواثق.

على نواح "وو نيانغ" في الظلام:

- أوه أه!!

- لا أريد الانتظار كثيراً، عليك أن تعرف أن هذا الطفل لم يأكل منذ يوم وليلة، إن أخذ الأمر وقتًا طويلًا فسيكون هو أوَّل الضحايا.

توقَّفت الرياح، وعلا السماء قمر يحاول المرور بين السحاب بأسى. ارتفع القمر من الأرض إلى السماء. وشعاع من الضوء الأبيض يعكس ظل "تشين ياو" على الأرض، مثل تمثال ضخم من الحجارة.

قال "تشين ياو":

- سأعطيك إيَّاه، أعني صوتي.

وقف "لي آن" فورًا:

- أنت رجل حقيقي.

قال "تشين ياو":

- سوف أعطيك إيَّاه الآن، لكن عليك أن تعيد لي ابني.

- أذكر جيِّدًا أنك قلت إن وعد الرجل يساوي ألف حجر من الذهب. إن خلفت وعدي، فلتدع البرق والرعد يصيبني الآن.

أخذ السكين من الطاولة وقدَّمه لـ"تشين ياو" قائلًا:

- هل تحتاج إلى ذلك؟

هزَّ "تشين ياو" رأسه ببُطءٍ. وقع في حالة تأمُّل لوهلة. ثم فجأةً رفع رأسه ثم أسقطها وهو يعوي مثل النمر، أطلق صوتًا قويًّا صدم "لي آن" وجعله يخطو إلى الخلف. سقط شيء من جسده إلى الأرض، وقع على الأرض المُغطَّاة بقطرات الثلج. ثم بدأ الدَّم الثقيل يسيل. اعتلى وجه "لي آن" نظرة احترام، وسلَّم الطفل لـ"تشين ياو".

- يمكنك الذهاب الآن.

خرج "تشين ياو" تحت ضوء القمر والرضيع على ذراعه ونواح "وو نيانغ" يتبعه بشكل متقطع. عيناه مليئتان بالدموع، وفمه مليء بالدم. تعثَّر وسقط الدَّم على الثلج. كاد يقع، وأصبحت الرؤية غير واضحة، مدَّ الكاهن، الذي كان يقف أمام منزله يديه وسنده.

في الصباح التالي، ومع بزوغ الشمس، اجتمع كبار السن تحت شجرة السرو واحدًا تلو الآخر، وفق طلب شيخ القبيلة. وجدوا باب المنزل المُشيَّد مفتوحًا على مصراعيه، خرج شيخ القبيلة حاملًا بين يديه رضيعًا، شفتاه مُغلقتان بقوَّة، ووجهه شاحب. صُدم كبار السن جميعًا. كان الكاهن يرتدي ملابس الاحتفالات والطقوس. رداؤه الأحمر، ورباط الرأس الخاص بالطقوس، وجرس الكنوز الثمانية البرونزي في يده. وضع وعاءً برونزيًّا من الماء تحت الشجرة وعلى وجهه نظرة واثقة.

عندما وقف شيخ القبيلة تحت الشجرة، أخرج الكاهن إبرة من الفضة أمام الجميع، ووخز إصبع "تشين ياو"، وإصبع الرضيع. سقطت قطرتا الدِّماء في الوعاء، ثم بالتدريج سبحت معًا مثل الضفادع الصغيرة، ثم اندمجتا معًا سريعًا. تفاجأ الحاضرون. ثم قطع الكاهن حزمة من الشعر من رأس "تشين

ياو" ومن رأس الرضيع. وأحرق كل حزمة وحدها على طاولة. ارتفع الدخان من كل حزمة ثـم التقيا وامتزجا، حتى أصبحا خطًّا واحدًا.

أسرع كبار السن إلى شيخ القبيلة:

- شيخ القبيلة، لقد أصبح لك ابن؟

لمعت عيناه، لكنه لم يخرج صوتًا.

قالوا:

- شيخ القبيلة، أنت...

بكى الرضيع بين يديه.

هزَّ الكاهن الجرس، وكاد يبدأ في المراسم، لكن خرجت "وو نيانغ" من بين الجمـع، تبعـت صوت بكاء الرضيع نحو "تشين ياو". رأت الرضيع بـين يديـه، فلمعـت عيناهـا. أسرعـت إليـه، وأخذته بين ذراعيها. وكأنها لم تشعر بالجمع حولها، فتحت ملابسـها ووضـعت نهـدها في فـم الرضيع. أحاطته بالحب وقبَّلته. وبعض الأصوات تخرج من فمها.

اقترب "تشين ياو" منها وعيناه مليئتان بالأسى.

اتَّسعت عينا "وو نيانغ" وهي تحمل الرضيع. تراجعـت ثـم قفـزت فجـأةً ونزلـت السـلالم سريعًا.

فرَّت بعيدًا.



九

لم تشعر بالأمان حتى وصلت إلى الكهوف، دخلت أحد الكهوف ومعها الرضيع، لم تتردَّد. كان كهفًا لا يعرفه أحد غيرها. حينها فقط، هدأ قلبها، وشعرت ببعض الراحة. نام الرضيع. ربما لأنه حصل على السلام الذي لا يمكن لأحد غير الأم منحه لرضيعها. شعرت بنشوة السعادة. لامست وجه رضيعها الرقيق برفق، وكأنها تخشى أن يذوب.

منذ خرج الرضيع من رحمها، ازداد العالم قطعة وردية إضافية، ولا يشغل بالها سواه. حين يبكي، لا يكون بكاؤه أقلَّ شدَّة من الرَّعد بالنسبة لها، وحين يعلو وجهه نظرة جوع، تشعر بضغط شديد. لم يعد غضب زوجها واكتئابه يعنيها، ولا زيارة شيخ القبيلة. لا يقوى أحد على التفريق بينها وبين رضيعها.

لم تدرك كم من الوقت مرَّ وهي تحمل رضيعها. لم تعد تتذكَّر الجوع أو العطش. بدا كأنها تسمع زوجها يناديها خارج الكهف. كأنه كاد يدخل الكهف، لكنه ابتعد. لا يعرف زوجها أن هناك عددًا لا نهائيًا من الكهوف هنا، وأن هذا الكهف متَّصل مباشرةً بنهر "قوارب التنين". لم يتمكَّن من الوصول إليها. ابتسمت "وو نيانغ" بفخر.

لكن، في الظلام الذي اعتادته، رأت مجموعة من الخفافيش تطير وتُحلِّق في أعلى الكهف. أطلقوا ضربات من الريح البارد الذي امتزج برطوبة التربة ورائحتها النَّتنة.

في تلك اللحظة، اقتربت مجموعة من الأضواء من مدخل الكهف. أصبح الضوء أكبر وأكبر حتى ملأ الفراغ أمام "وو نيانغ". تحت الضوء، رأت عيني شيخ القبيلة، سعيدة رغم الأسى الساكن فيها.

لم تندهش أو تخف. كانت مُمتنَّة لهذا الرجل الذي يُمثِّل الإله، الذي وهبها ابنًا. لكنها لم تعد تنظر إليه بانبهار، فقد بدا في حاجة إلى رعاية، مثل رضيعها. لم يكن له الحق في سلب طفلها منها. ليس لأحد هذا الحق. أمسكت بالرضيع بقوَّة وهي تحاول الصياح:

- آه آه.

فتح شيخ القبيلة فمه، لكنَّ الألم الذي شعر به بدا على وجهه فورًا. إلا أنه تمكَّن من إخراج بعض الأصوات:

- أو أو.

- آه.

بدا الحنين في عيني "وو نيانغ". تفهَّمت الحزن والألم في صوته. أرادت أن تُهدِّئه.

لمس حنينها قلبه. اقترب منها، وتكوَّر مثل الأسد الجريح، ثم وضع رأسه على ركبتيها في ضعف. شعر بيد دافئة تُلامس رأسه الدَّائخ.

- آه آه.

أراد لو يتوقَّف الزمن للأبد. حتى يتمتَّع بتلك اللمسة الحانية ورائحة اللبن القوية الآتية من ابنه. عوَّضته تلك اللحظة عن عنائه. كان ينتحب بصوت خافت.

رأى "لي آن" - الذي كان يبحث عن "وو نيانغ" - الأضواء وتبعها إلى الكهف. رأى ما كان يحدث. رفع "تشين ياو" رأسه عندما سمع وقع الأقدام.

أراد أخذ الرضيع من "وو نيانغ".

- آه آه.

دفعته بيد واحدة فأوقعته، وحاولت الهرب إلى أعماق الكهف.

صرخ "لي آن":

- عودي يا "وو نيانغ" فلنعد إلى المنزل معًا. واتركي لـه الطفـل. يُمكننـا البـدء مـن جديـد. يُمكننا الحصول على طفل خاص بنا.

هزَّت رأسها نفيًا، وظلَّت تحاول الخطو إلى الخلف نحو ظلام الكهف.

تحرّك "تشين ياو" للإمساك بها، فراوغته بنعومة. استمر "لي آن" في الصياح:

- أرجوكِ لا تذهبي يا "وو نيانغ"، سأوافق على جميع طلباتـك، لا يوجـد شيء في الكهـف، سوف يقتلكِ الجوع ومعكِ الطفل.

توقَّفت "وو نيانغ"، نظرت نحوه بتردُّد ونظرت إلى "تشين ياو".

قال لـ"تشين ياو":

- أنا لستُ السبب في كل هذا، لن تسمح لك "وو نيانغ" أن تأخذ طفلها. إن كنت لا تريد لها الموت من الجوع هنا، فلترحل.

رحل "تشين ياو"، كان يعرف أنه لم يكن عليه أن يتجاهل "وو نيانغ" فهي أحقُّهم بالطفل. لم يقوَ سوى على كتم ألمه في أعماق قلبه. على أي حال، الجميع يعرف أنه والد الطفل. سـوف ينتظر بصبر حتى يكبر.

بعد محاولات "لي آن" العديدة، خرجت "وو نيـانغ" مـن الكهـف وعـادت إلى منزلهم الخشبي. قامـت بكـل شيءٍ كالمعتـاد، حملـت المـاء وزرعـت الـخضراوات وغسلت الملابس وأعدَّت الوجبات. قامت بواجباتها الزوجية بإخلاص، لكنها كانت تضع طفلها على ظهرهـا وهـي تقـوم بكـل هـذا. لم تسـمح لـ"لي آن" أن يلمـس الطفـل. في الليـل، تنـام محتضـنة ابنهـا. تحمـل "لي آن" هـذا عـلى أمـل تغيـيره

على المدى الطويل، لكن عندما رآها تضع قلبها كله ملكًا لابنها وأدرك أنه لن يتمكَّن من قضاء ليلة واحدة معها، أصابه الغضب.

في منتصف الليل، صفعها "لي آن" بعنف.

- أنتِ أيَّتها الخبيثة، جرحتِ مشاعري بشدَّة، وتتصرَّفين كأن شيئًا لم يكن.

لم يكفه صفعها، فوخزها بعنف. لم تبدِ "وو نيانغ" رد فعل. كانت مثل قطعة خشب، مما زاد غضبه. لذا صفع الرضيع.

- فلنرَ إن كنتِ خرساء حقًّا.

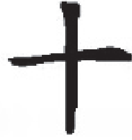
قفزت "وو نيانغ" – التي كانت تجلس مُتكوِّرة في ركن من السرير – وسحبت الإبرة التي تستخدمها في الحياكة، وطعنت بها "لي آن". تراجع "لي آن" سريعًا، وهو يتعرَّق خوفًا. أما هي، فأسرعت إلى الرضيع الباكي وحملته بين ذراعيها ولم تحاول اللحاق بـ"لي آن".

قال "لي آن":

- حسنًا، لا يُمكنني لمس ابن غيري، لكنَّ عليَّ السيطرة على زوجتي، فلنتحدَّث عن اليوم الذي قضيتِه في الكهف وأنتِ تُغازلين هذا الرجل الملعون. هل فكرتِ بزوجكِ؟ قدَّمت لكِ قلبي فدمرته بالخيانة.

شعرت "وو نيانغ" بالخوف والحيرة عند سماع هذا. ما دام لا يلمس الطفل، فسوف تسمح له بضربها وصفعها وتكسير الأشياء كما يشاء، دون مقاومة أو عتاب.

مع الوقت، أصبح ضربها أمرًا مُرهقًا بالنسبة لـ"لي آن" نفسه.



ربيع آخر، لا يهم كم العناء الموجود على وجه الأرض، فشجر الخوخ أزهر، وكان مُشرقًا كالعادة، وغطَّى الظل الأخضر الجبال. جاء مُجدَّدًا، أهم احتفال في العام، يوم الإله "شه با".

تمت صيانة وإعادة بناء ساحة "شه با" فبدت جديدة. تسارع سُكَّان القرية لعبادة الإله. وبينما يُقدِّمون القرابين، بدأ يوم الإله "شه با" بقرع الطبول المتكرِّر لثلاث مرَّات، الخاص بالكاهن "تشين لاو أر". حين ارتفعت الشمس عن قمَّة الجبل، كانت الساحة بالفعل مكتظَّةً بالناس.

قدَّم الكاهن الشمع المُحترق إلى شيخ القبيلة "تشين ياو". استحمَّ "تشين ياو" وارتدى ملابسه كالعادة. كان يرتدي ملابسه الكبيرة الفضفاضة والرباط على رأسه. أخذ الشموع بكلتا يديه، ثم وضعها على الضريح. أصبح البناء مزدحمًا بالشمع الذهبي والفضِّي. والأوراق وأطعمة الاحتفال، والتوفو، والسكاكين، والشموع على مساند مرتفعة، والبخور وعلب شاي وعسل ونبيذ مُحلَّى.

دوَّى قرع الطبول في الساحة مثل الرعد. أدخلوا بقرة الفداء مُجدَّدًا. بعد ثلاث قرعات من الطبل، انفجر الدَّم الأحمر من البقرة. ومعه هتاف سُكَّان القرية الذي يهزُّ الأرض، ثم بدأ الرقص الخاص بيوم الإله "شه با". في البداية، جاءت مجموعة تُمثِّل الأجداد مثل "ماو جو سي" الذي كان يمسح الأرض، حتى يتخلَّص من أوبئة السماء والأرض، وأوبئة الخيل والبقر، حتى يحصلوا على

مطر جيِّد ورياح للمحاصيل، وأمن وسلام للسكان. عادوا جميعًا إلى أصولهم الطبيعية، مجردين من كل شيءٍ عدا رقعة قماش تغطي أعضاءهم الخاصة، ومع كلٍ منهم عصا بين ساقيه ليمسح الأرض.

بعد تنظيف الأرض، كان يجب أن تظهر "وو نيانغ". كانت تنير المكان بأسره مثل الشعلة عند دخولها كل عام. لكن لم يكن هناك أثر لـ"وو نيانغ" في المكان. أين هي؟ بدأ القلق ينتشر في الساحة. نظر الجميع نحو شيخ القبيلة. في الماضي، كان يصفق بيديه وينادي بصوته الرجولي القوي. لكنه اليوم يجلس تحت الضريح، فمه مغلق، مثل تمثال من الخشب أو الطين.

قرع الكاهن الطبل مجدَّدًا وأشار للناس أن يحرِّكوا أيديهم مع قرع الطبول. شعر الجميع بضغط ثقيل. تردَّدوا، قي تلك اللحظة، هتف هؤلاء الجالسون قرب المدخل، وانقسم الجمع إلى فرقتين مثل الماء الجاري.

أخيرًا، ظهرت "وو نيانغ" أمام ساحة "شه با". كانت ترتدي ملابسها السوداء ذات الأطراف الحمراء. فتح "تشين ياو" عينيه فورًا.

كانت المرأة مثل الشعلة حقًّا. حلقت إلى منتصف الساحة، ركعت – فكادت تقع – ومثل الأعوام السابقة، استخدمت كل جزء في جسدها لتحترق، لتُحلِّق وتطير، لكنها هذا العام كانت تواجه صعوبات بالغة مع كل خطوة. كل تحرُّك كان يجعل جسدها يصرخ بالألم، فيرتعش حاجباها. كادت تقع عدَّة مرَّات، لكنَّ قرع الطبل الأشبه بالرعد كان يساعدها على الوقوف من جديد، لتحاول مرَّة أخرى.

نادت:

- آه آه.

ومدَّت ذراعيها إلى السماء، مـرَّةً تلـو أخـرى. كانـت تائهـة في حـيرة وتتوجَّـع بيـنما تسري الدموع. لكنها تبتسم بإشراق في الوقت ذاته: كأن بينما هي تحترق في النـار، وجـدت وجهتهـا الأخيرة. تفاجأ الحاضرون، ومن بينهم صرخ شخص:

- دماء!

بالفعل، كانت هناك قطرات من الدِّماء على الأرض النظيفة. كان الدَّم يسيل مـن بنطالهـا مع كل حركة. رأى "تشين ياو" وجهها شاحبًا مثل قطعة ورق. أسرع إليها يريد أن يمنعهـا مـن الرقص. لكنها لم تتوقَّف كأنها نسيت كل شيءٍ.

أسرع "تشين ياو" إلى الطبل، يريد أن يوقف الكاهن الذي رفض وهزَّ رأسه. غضب بشـدَّة حتى أنه دفع الكاهن بعيدًا وأخذ العصي منه.

توقَّفت المرأة فجأة، دارت في حلقة بعينين حائرتين، لكنها سقطت قبل أن تسمع الإجابة.

بعد الصدمة الأولى، أسرع سُكَّان القرية إليها، لكنَّ هذا أيضًا لم يساعد. كانت "وو نيـانغ" قد رحلت بعد تألقها الأخير، ضحَّت بجسدها ليوم الإله "شه با"، تاركةً أسئلة غير مُجابة.

قال "تشين لاو أر":

- كنت أعرف أنها سوف تسقط فور توقُّف الطبل.

حرَّك "تشـين يـاو" جسـده وطلـب منـه إنقاذهـا. حـاول "تشـين لاو أر" إيجـاد النـبض في جسدها، لكن لم يكن هناك شيء.

غضب أهل نهر "قوارب التنـين" وأسرعـوا إلى نصـف الصـخرة بـاحثين عـن "لي آن"، لكـنَّ المنزل كان خاليًا، اختفى الوافد ومعه الطفل.

حمل "لي آن" الطفل على ظهره وهو يسير في أكثر طريـق مهجـور نحـو نهـر "يـانجتسي". حاول إقناع "وو نيانغ" بالرحيل معه إلى مكان لا يعرفه أحـد، حيـث سيعيشـان حيـاة أفضـل ويعاملها معاملة أحسن، لكنها لم توافق رغم محاولاته القوية. وفي يوم الإله "شـه بـا"، أرادت أن تذهب للرقص رغـم كـل شيءٍ. حتـى أنـه خبَّـأ الطفـل منهـا ليعطلهـا – متوقعًـا انشـغالها بالبحث عنه – لكنها ذهبت. يا لها من امرأة! لا يسهل فهمها. لذا بعـد رحيلهـا، أخـذ الطفـل من مخبئه في الغابة وترك المنزل وهو يتنهَّد.

وبعد أن تسلَّق ثلاثـة جبـال ونـزل منحـدرًا، اختفـت القريـة أخـيرًا عـن ناظريـه. تـنفَّس الصعداء.

حين وصل إلى فم النهر، حيث يلتقي نهر "قوارب التنين" ونهـر "يـانجتسي"، حـلَّ الغسـق. رأى في الظلام بعض الأخشاب تظهر عند فم النهر، لم يكن يتذكَّر المكان هكـذا. وحـين اقـترب، فهم، لم تكن أخشابًا، كانت مجموعة من الناس، من سُكَّان نهر "قوارب التنين"، ينتظرونه. سار نحوهم بتلقائية، وحينها رأى "تشين ياو" و"تشين لاو أر".

قال:

- أنت أسرع منِّي حقًّا.

قال "تشين لاو أر":

- كانت "وو نيانغ" ميِّتة.

غضب "لي آن" قليلًا، ثم قال:

- لا تنظر نحوي هكذا، لم أتمنَّ موتها قط.

فكَّ الحزام الذي يربط الطفل به ووضع الطفل النـائم عـلى الأرض. لفَّـه بالغطـاء بعنايـة وإحكام، ووضعه على صخرة كبيرة. ثم مرَّ من خلال الجمـع. انقسـم الجمـع إلى فـرعين مثـل الجدول. حين خرج من بينهم، رأى نهر "يانجتسي". كانت هنـاك معديـة تغـادر الميناء، أسرع نحوها وهو يهتف. سمع صوت إطلاق نار فسقط أرضًا. ظن أنه مـات. لم تـزل النجـوم تلمـع فوقه، وسمع صوت الرجل من المعدِّية يصيح:

- لقد حل الظلام. لماذا لم تسرع؟

لقد مرَّت الرصاصة دون أن تصيبه. التفت ونظر نحو الكتلة المظلمة – الجمـع – وسـالت الدموع على خدَّيه.

استمرَّ يوم الإله "شه با" في نهر "قوارب التنين" ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. في اليوم التـالي، رأى الناس شعر "تشين ياو" وقد تحوَّل إلى اللون الأبيض في ليلة.55

وعلى ركبتيه، يجلس صبي له شعر أسود ووجه مثل القمر.

قال "تشين لاو أر" لسكان القرية:

- إن لشيخ القبيلة ابنًا بالتأكيد.



كهف في الجبال



كان هناك جبل، وبداخله كهف، وفي الكهف صخرة عُمرها آلاف الأعوام.

لم يكن الجميع على علم بوجود كهوف كبـيرة وصـغيرة في الجبـال، عـلى امتـداد المضـايق الثلاثة في نهر "يانجتسي". تلك الكهوف هي الأعين المفتوحة لتلك الجبال. ترى الأرض والسماء، الحقيقي والمزيف، الجيد والسيئ، العسير واليسير. يتغير العالم بمرور الوقت، جيلًا بعـد جيـل، يتقدم البشر في العُمر، لكن الكهوف تزداد شبابًا.





يرسل "تيان" شيخ القبيلة ابنه ليدرس في الكهف، لكنَّ أميره الصغير يقع هناك في الحب.

في هذا اليوم، سار صبي يحمل اللقب "تيان" من الكهف المظلم الذي يدعوه البيت، وهو يتمطَّى أسفل الشمس الحمراء الساطعة، بينما يُحلِّق طائر فوق كتفه. رفع صوته ليناديه. تردد الطائر قليلًا ثم ضرب بجناحيه بقوة، وحلق في السماء الزرقاء. ارتفع في حلقات جميلة نحو أعلى التلال الخضراء على الجهة المقابلة.

شعر الصبي بالغيرة وهو ينظر إلى الطائر، لكنَّ تحته كان هناك منحدر مباشر يجري أسفله نهر عذب. كانت المنحدرات مُغطَّاة بالأشجار الخضراء، وأثار المنظر إعجاب الصبي. كلما سطعت الشمس في الصبح، تخرج فتاة، مرتدية تنورة حمراء، من أحد الأكواخ على جانب التل.

كانت تحمل حقيبة ظهر صغيرة ومنجلًا حادًّ في يدها. خمَّن الصبي أنها مُتَّجهة إلى الجبال لقطع الحطب. سارت، بخفة وجاذبية، نحو العُشب الأخضر الذي يغطي التل، ثم اختفت بعيدًا، لتظهر ثانية بين الأشجار حتى اختفت مرَّةً أخرى في الغابة الأكثر كثافة. حدسه وحماسه كانا يتبعان جسد الفتاة المتلألئ.

كان هذا الصبي "تيان كون" الابن المُفضَّل لشيخ القبيلة. حملت زوجة شيخ القبيلة الجنين لمدة عشرة أشهر، ولم تستطع وضعه رغم الألم الشديد لمدة ثلاثة أيام. اضطر شيخ القبيلة إلى السجود للإله النمر الأبيض، ونذر له أفضل ما

يملك. وأخيراً، وضعت زوجته ابنهما. رعته السيِّدة "تيان" كأنه عيناها. كان شديد النشاط حتى أن السيِّدة "تيان" ألبسته ملابس فتاة ليهدأ قليلًا. تمنَّت أن يصبح رقيقًا. ولم يهتم شيخ القبيلة "تيان" لأن لديه كثيراً من الأطفال، لكنه سافر مرَّة لمدة نصف عام، ثم عاد إلى المنزل ليجد فتاة جميلة تقف هناك. لفتت الفتاة نظره، فسأل من تكون. ابتسمت زوجته وأخبرته أنها ليست بفتاة، بل ابنه الصغير، "تيان كون". صاح شيخ القبيلة مثل النمر قائلًا إن كونه ذكرًا من "تو چيا" يُحتِّم عليه أن يكون له مظهر الرجال، ثم أمره بخلع الملابس الملونة، ومزَّقها. لم يشعر "تيان كون" الصغير بالخوف، ابتسم لوالده مثل الزهرة. من بعدها، أعطاه شيخ القبيلة اهتمامًا خاصًّا، وعلَّمه فنون القتال.

كان "تيان كون" يتميَّز بسرعة الاستيعاب، وكان أسرع تعلُّمًا من إخوته، لكنه كان يرفض العمل الشاق.

قال شيخ القبيلة "تيان":

- خُلق الرجل ليقوم بالمساهمة. مثل جدِّك الأكبر. عليك تعلُّم فنون القتال من أجل مستقبلك.

قال "تيان كون":

- أنت على حق يا أبي، لكنني أعتقد أن المساهمة لا تعتمد فقط على فنون القتال، بل هناك أمور أخرى كذلك...

كان لشيخ القبيلة هيبة قوية، لم يجرؤ أيٌّ من تابعيه على الاعتراض على قوله، لكن في تلك اللحظة لم يملك سوى الابتسام.

في العام التالي، أحضر له "تيان" معلمًا من "جينجتشو" البعيدة، تولَّى تعليمه الأدب والشعر. كانت مدرسته تقع على منحنى الكهف على الجبل.

علينا الإشارة إلى عمـق المشـاعر التـي يحملهـا الــ"تـو چيـا" تجـاه الكهـوف منـذ عصـور أجدادهم. عندما كان يسكن أشخاص من خمس عائلات مختلفـة حـول ميـاه النهـر الصـافية وجبل الـ"وو لوه تشونغ لي". في البداية لم يكن لديهم مناصب مختلفة، بل كانوا يفعلـون كـل شيءٍ معًا، بعدها قرروا إلقاء السيف في الكهف الحجري، عـلى أن يتـوج الفـائز ملكًـا علـيهم. وعاملوا "با وو شيانغ" على أنه الملك، واعتبروه لاحقًا الجد الأكبر لشعب الـ"تو چيا".

نالت عائلة "تيان" تقدير الإمبراطور وهداياه طوال ثلاثة أجيال. نشأ شيخ القبيلـة "تيـان" في "وشانج" ليتعلم فنون القتال، فأصبح رجل جيِّد التعليم وكـفـء بدرجـة كبـيرة. الآن، جعـل من الكهف شديد العلو في الجبل مدرسة لابنه. كان الكهف معزولًا، تحيط بـه منـاظر خلابـة. أمر شيخ القبيلة تابعيه ببناء دورة مياه وسرير في الكهف، وإرسال الوجبـات كـل ثلاثـة أيـام، والملابس كل خمسة أيام، وأمر بمنع جميع الأقارب من الزيارة.

في البداية، رفض "تيان كون" وكان يتمنى أن يدرس مع إخوتـه في "جينـغ تشـو"، لكنـه لم يملك في النهاية سوى الذهاب إلى الجبل مع معلمه. كان شيخ القبيلة يتوقَّع من "تيـان كـون" إظهار الرغبة في العودة إلى المنزل، لكن لم تصل إليه أي أخبار من هذا القبيـل. أخـبره الخـادم الذي يوصل الوجبات أن أميره الصغير سعيد هناك. اطمأن شيخ القبيلة وسـمح لابنـه بالبقـاء هناك لثلاثة أشهر متواصلة دون عودة.

لم يكن شيخ القبيلة "تيان" يعلم أن لابنه مهام تطوعية إلى جانب دراسته، منهـا الحملقـة إلى بعيد من مدخل الكهف. كانت هناك فتاة ترتدي اللون الأحمـر تظهـر مـن بـين العشـب. سحرته تمامًا، مثل تعويذة من "شامين تيام". كان اهتمامه بهذه الفتاة يفوق اهتمامه بأي من الكتب التي يعلمها له أستاذه.

أغضب ذلك معلمه، ودفعه إلى التعجب في الوقت نفسه. كان هذا المعلم عريسًا جديـدًا، تنتظره عروسته وحيدة في المنزل. ولولا المبلغ الكبـير الـذي قدمـه لـه شـيخ القبيلـة وظروفـه المالية الصعبة، لما رغب في البقاء هنا. كان هذا المكان خاص بالبربر، من حسن الحظ أن "تيان كون" كان شديد الذكاء، حيث كان يتمكَّن من تلاوة النص بعد قراءته مرة واحـدة. مـما وفـر على معلمه جهدًا كبيرًا. هكذا، لم يكن لديه شكوى من "تيان كون". لكنه لم يتوقَّع زيارة شـيخ القبيلة للجبل بنفسه.

كان "تيان كون" يتوجه إلى الجبل، ويصفر بصوت مرتفع:

- أووه هووو هوو!

فيتبع كل صدى أخاه عبر القرية. مثـل ومـيض الـبرق المتتـابع. لا بُـدَّ أن تلـك الفتـاة قـد تمكنت من سماع ذلك بوضوح، فقد وقفت والتفتت.

قال "تيان كون" بسعادة:

- هل رأيت يا سيدي؟ لقد ابتسمت لي.

كانت المنحنيات هناك حادة ومرتفعة. لم ينظر "تيان كـون" خلفـه عنـدما جـذب معلمـه كتفه. لكنه قال:

- لقد قرأت الكتاب وأنهيت الكتابة، لماذا تجذبني؟

اضطر المعلم إلى لف جسد الفتى. استدار الفتى إلى ما جذب أنظار معلمه الخائفة، فرأى أباه وأخاه "تيان قاو" أمامه.

عقد شيخ القبيلة حاجبيه. وظهر الغضب على وجهه. ركع "تيان كون" عـلى الفـور. وقبـل أن يتمكَّن من فتح فمه بكلمة، بادره شيخ القبيلة بكلمتين:

- اصفع وجهك.

ابتسم "تيان كون" محاولًا المماطلة. فقاطعه أبوه قائلًا:

- أمرتك بصفع نفسك.

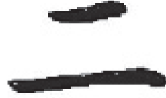
ابتسم "تيان كون" مجددًا، وقال:

- أبي، ماذا ارتكبت من أخطاء اليوم؟ كنت أذاكر، يمكنك سؤال معلمي إن لم تكن تصدق..

قبل أن ينهي كلماته، رأى "تيان كون" ظلًا ضخمًا يمر أمام عينيه، تبعه رعدًا زلزل الأرض، ثم فوجئ بنفسه منبطحًا على الأرض، وبنطال أبيه الأسود أمام أنفه. شعر للحظة بسائل مالح يسيل من فمه. نهر أحمر ترك أثره على رمال الجبل البنية والصفراء. لم يستطع إلا إغلاق عينيه.

- أبي، لقد سببت لي صفعتك ألمًا كبيرًا!





يتمنـى "تيـان كـواي هـوه"، المـزارع التقليـدي، وحفيـد شـيخ القبيلـة "تيـان"، أن يتـزوج "بيتش".

في هذا المساء، عاد "تيان كواي هوه" من كهفه المرتفع واستمتع ببعض الراحـة في غرفتـه. عندما استيقظ، كان الظلام قد حل، وراحت الدجاجات تنقر أسفل النافـذة. تقلـب في سريـره فشعر ببلل حجر بنطاله. تسارع قلبه ولعـق لسـانه. كـان حلـمًا يشـبه الحقيقـة. لقـد مـارس الجنس بلهفة معها، مع "بيتش".

في البداية، لم توافـق "بيـتش" عـلى ذلـك، وأسرعـت فلحـق بهـا. وأمسـك بهـا في النهايـة. احتضنها ككومة قطـن. وعنـدما بـدأ في خلـع ملابسـها وفـك قميصـها، لم تقـاوم. وحملهـا إلى العُشب الأخضر المجاور للنهر. استلقت هناك في هدوء مع ابتسـامة مخادعـة تكسـو وجههـا. عقدت شفتيها وهي تذكره بعمله في المدينة لمـدة عـامين دون أن يجنـي شـيئًا. مـارس معهـا الجنس دون تردُّد. وواصلت التلوِّي، حتى أثارت جنونه.

بعدها، خلد إلى النوم.

تناول" تيان كواي هوه" طبق البطاطس مع الأرز بأكلمه حتى أنه كحت قعر الطبق. كان يفكر فيما يمكن للدجاجات تناوله، عندما صرخت زوجة أخيه بغضب عند الباب:

- فلتسرع يا "كواي هوه" وتسيطر على دجاجاتك!

سحبت منه الصحن، وهي تقول:

- هل تتظاهر بالصمم؟ أنت لا تهتم بدجاجاتك، ولقد هاجمت خضراواتي، عليك أن تعوضني!

نظر "تيان" إلى أخته، بوجهها المحمر وصدرها العريض الذي يكاد يمزق أزرار قميصها.

رد عليها "تيان" بنصف ضحكة:

- مهلًا، مهلًا، يا زوجة أخي.

فاجأها ذلك، وسحبت تنورتها دون وعي. ثم صاحت:

- أيها الحقير، إلى ماذا تنظر؟ أريدك أن تعوضني، هل ترفض؟ حسنًا...

فصرخت، وخرجت من الغُرفة. سحبت ملعقة حديدية جديدة من المطبخ ووزنتها في يدها.

- إن لم تدفع، سيصبح هذا الشيء ملكًا لي.

أجاب "تيان" بهدوء:

- حسنًا، إنه لكِ الآن. لكنني سأتناول الوجبات في غرفتكِ بدءًا من صباح الغد.

- أنت تحلم!

- ألا تصدقينني؟

لكنها كانت تصدق أنه سيفعل ما يقول، لذا أعادت الملعقة.

طاردها "تيان" إلى الخارج، وهو يصيح:

- احترسي يا أختي، هناك خلية نحل أسفل شجرة الكاكا، فلا تصدمي رأسكِ!

أسرعت تغطي رأسها بيديها وخفضتها. مرَّ "تيان" بشكل طبيعي وابتسم قائلًا:

- كنت أمزح. لا تأخذي الأمور بجدية.

فتناولت صخرة وقذفته بها.

- سترزق يا "تيان كواي هوه" بولد لا يملك فتحة شرج!

كان كثيراً ما يشتكي منه أخوه وزوجة أخيه. وعندما أخبرهم في العام الماضي أنه ينوي العمل في المدينة، فرحت زوجة أخيه بشدة، حتى أنها أعدت له ملابسه، بل وسلقت له عشر بيضات في ماء الشاي. قالت بسعادة:

- لا تنسنا إذا ما جنيت الثروة يومًا ما.

كانا يعتقدان أنه لن يعود أبدًا، وأن الحقول والمنازل والغابة الخاصة بها ستصبح ملكًا لأخيه. لم يتوقعا عودته بعد فترة قصيرة. شعر بعدم الراحة في المدينة. وأصابه الحنين إلى بلده ونهر المياه العذبة. كان مكانًا فقيراً، لكنه كان جميلًا. كان يحلم بالعودة كل يوم. يشتاق إلى الجبل والكهوف الحجرية. وفي النهاية، قرر العودة بالفعل. وحده الله يعلم ما شعر به أخوه وزوجته يومها. كانوا يفتعلون المشكلات معه كل يوم، وأجبروه على تقسيم ميراث العائلة والانفصال عنهما، في محاولة لإبعاده.

لكنه لم يكترث، ولم يغضب منهما كثيراً. كان يدرك أن الاستمرار في الحياة هنا أمر صعب على كل شخص. وأن الغضب لن يأتي بفائدة. عندما ابتعدت زوجة أخيه، أخرج ضوء كشاف من السرير وحزمة من الولاعات، ثم أحكم ربط حزامه واتجه إلى الجبال. كان المكان هناك هادئًا، وغناء الحشرات في العُشب مسموعًا بشكل مميز تحت ضوء القمر. كان هناك طريق واحد للوصول إلى الكهف العالي، طريق شديد الانحدار، لذا صعد سريعًا وفي قلبه رهبة عظيمة، كأنه يوشك على تحقيق أمر عظيم.

يحوي هذا الكهف الغامض كثيراً من الكنوز المُخبَّأة.

لم يتوهَّم "تيان" ذلك، بل علم بأمر هذه الكنوز المُخبَّأة من كبار السن. قـالوا إن نهـر الميـاه العذبة كان تحت إشراف شيخ قبيلة يدعى "تيان"، قبل زمن بعيد. أحب ابنه الصـغير فتـاة مـن عائلة "مو". تبادلا الحب سرًّا، وعندما كادا يتزوَّجان، قام نائب الملك الـذي يحكـم إقليمـي "هـو نان" و"هو بي" بتلفيق قضية لشيخ القبيلة "تيـان". فنقـل شـيخ القبيلـة في يـأس ممتلكاتـه مـن الذهب والفضة والمجوهرات من قصره إلى الكهف. كـان هـذا سرًّا لا يعرفـه سـوى أولاده. لكـن نُفيت عائلة "تيان" بعيدًا، عدا ابنه الصغير. قال هذا الابن الأصغر إن نقل الكنـز مـن الكهـف لا يحق له حتى يعود إخوته ويجتمعون معًا. لكن إخوته لم يعودوا أبدًا.

انتشر السر، وهو حقيقة. الكهف معروف، لكنَّ القردة نفسها لا تصل إليه بسهولة. هناك طريق وحيد أقل صعوبة، يمكنك السير فيه بعد التسلُّق من ناحية نهر الميـاه العذبـة. ذهـب أجيال من الشعب للبحث عن الكنز، لكـنهم عـادوا فـارغي الأيـدي. وذات مـرة، كسر رجـلان ساقيهما خلال البحث. وفقد آخر بصره بسبب الطيور. وثالث اختفى لدرجـة أنهـم لم يجـدوا عظامه حتى اليوم. الآن، يخشى الناس الذهاب إلى الكهف. لكن "تيان كـواي هـوه" لم يصـدق القصص.

وصل إلى هناك في منتصف الليل. كان القمر مضيئًا فوق الجبال، وطبقات السحب تطفو على جانبي الجبل. أسفل الجبل، كانت القرية صامتة بشكل مريـب، لا يمكـن سـماع إلا صـوت الميـاه. كانت "بيتش" تسكن على التل المقابل، تعمل في المدينة ولا تعرف أنه ذاهب إلى الكهف. ولعله – مثل بعض أجداده – لن يعود.

كانت "بيتش" زميلته في الفصل. العزيزة على قلبه. أحبها منذ الصغر. شعر بالجوع مرَّةً في طريق العودة من المدرسة، فقالت "بيتش":

- يُمكنني مساعدتك في جمع التوت البري.

كان التوت البري الأحمر يلمع بين الأشواك، على حافة المنحدرات الجبلية. لم تكن "بيتش" تخشى الانحناء وغمس إصبعها لجمعها. مدت عنقها فتمكن "تيان" من رؤية نمش أحمر صغير خلف أذنها، مثل حبة شفافة تتلألأ في ضوء الشمس. امتلأ قلبه بالدفء وتمنى لمسه. جمعت "بيتش" التوت وقدمت إليه بعضه ليتناوله، لكنه كان يضحك. عندما يتذكر الآن ما مضى، يشعر أن في هذه اللحظة نبت حب "بيتش" في قلبه.

كان يبلغ من العمر يومها اثني عشر عامًا.

ابتسم لها، وقال:

- أريدك زوجة متى كبرنا، حسنًا؟

فأغلقت كفها، وأصبح التوت الأحمر فجأةً على وجهه. لعق العصارة اللذيذة وأسرع ليلحق بها، مناديًا:

- "بيتش"، "بيتش"...

لم يزل يجد حلاوة ذلك المذاق في قلبه حتى اليوم.

لم تغضب "بيتش". ظلَّت تجمع له التوت في الطريق إلى المنزل وتقول له مثل الكبار:

- فلتتناوله، أنت حقًّا شبح جائع.

تقدم بهما العُمر في لمح البصر. صارت "بيتش" تعمل في صالون تجميل في المدينة. أصبحت تنظر إليه بتردُّد. تجبر شفتيها على ابتسامة مصطنعة، كأنها تراه لا يستحقها. لذا حاول "تيان" اتباع أخيه والعمل مبلِّطًا في مواقع البناء بالمدينة. يحمل الأسمنت والرمل يوميًّا ويصعد بهما حتى ازدادت كتفيه قوة وتحجرتا. وبأول راتب يحصل عليه، اشترى لـ"بيتش" معطفًا وردي اللون،

بحزام به خمسة أزرار بخمسة ألوان مختلفة. قالوا في المدينة إنه موضة، لكن "بيتش" نظـرت إليه وأخبرته أن بإمكانه منحه إلى ابنة أخيه.

فتن بها وهو يتأمَّلها، العقد في رقبتها والأسورة الخضراء وأظافرهـا مطليـة بـاللون الـفضي. دعاها إلى تناول المكرونة.

طلبا مكرونة بقطع لحم الخنزير. كان سعر الصحن ثلاثة يوانات، وليس ذلك بمبلغ قليـل. ابتسمت ابتسـامة خفيفـة، وقالـت "مكرونـة"؟، ثـم قالـت إنهـا لا تشـعر بـالجوع. قالـت إن بإمكانه تناول طبقها أيضًا إن أراد. وجد "تيان" المكرونة شهية فتناول الطبقين. ورغـم ادِّعائهـا عدم الجوع، فإنها توجَّهت فورًا إلى مطعم "كنتاكي" وطلبت شيئًا لم يسمع به مـن قبـل. دقـق في طلبها، قطعتان من الدجاج مع البرجر، وفطيرة تفاح. دفعـت "بيـتش" مائـة يـوان فأعـادوا إليها مبلغًا صغيرًا جدًّا. سألته بأدب إن كان يريد تجربة البعض. أصابته الزغطة وبدا كالأبلـه. لكنه قال لنفسه إنه رجل، رجل من نهر المياه العذبة. لماذا لا يمكنه توفير وجبة "كنتاكي" لها؟

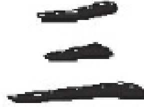
ثارت الرياح أعلى الجبل فشعر بالبرد. أشعل إحدى الشعلات. كـان الكهـف كبـيرًا، يكفـي لآلاف الناس. أكبر من قلاع الأساطير والخرافات. كان يحب اللعب هنا في صغره. توجد صـخرة كبيرة ملساء في المنتصف مثل طاولة. كان يلعب مع أخيه الشطرنج على هذه الطاولـة، وكـان بإمكانهما رؤية الخطوط الرفيعة على لوح الشطرنج في ضوء النهـار. كانـت هنـاك مئـات مـن العلامات المحفورة بعمق على الصخر، علامات مختلفة الأشكال، لكن لا أحد يعرف هوية مـن حفرها أو في عهد أي سلالة حاكمة كان يعيش. كان الكبار يسمحون لهم باللعـب في الكهـف ما داموا لا يذهبون إلى عمقه. لكن "تيـان" اسـتجمع شـجاعته في أحـد الأيـام ودخـل في أحـد الأنفاق ليلبي نداء الطبيعة. بحث أخوه عنه وعندما رآه ضربه في رأسه فظل يتألم لأيام.

كانت هناك أنفاق كثيرة تتفرع من الكهف. عرف "تيان" العديد منها بمرور الأعوام. كان النفق الذي قضى فيه حاجته قصيرًا وغير مُلتوٍ، لم يكن به ما يغري بالاستكشاف. وكان هناك نفق آخر يفضي إلى تل شاهق، كان يستخدم بعض الآلات لتسلقه مثل البُرص. يتذكر "تيان" رؤية ضوء هناك، حفرة كبيرة في أعلى التل. تسلق وحشر رأسه بها. فظهر له صقر كبير، تفوح من جسده رائحة البول. كانت مخالب الصقر على بعد ثلاث أقدام فقط، وكانت هناك عظام وريش وفوضى في كل مكان. أصابه حينئذٍ خوف شديد.

كان هناك نفق آخر. ذهب لاستكشافه كثيرًا، لكنَّ به عديدًا من التفريعات، مثل متاهة، وهو ما أصابه بالدوار. كان النفق مليئًا بالثنيات والتحويلات، ورغم أنه يبدو ملائمًا لإخفاء الأشياء، فإنه لم يجد فيه سوى فضلات الخفافيش. في إحدى المرَّات، اجتهد في البحث، وظن أنه وجد تفريعة جديدة، لكنه وجد أمامه الصخرة التي اتخذوها طاولة للعب الشطرنج عليها. كان عاجزًا عن تصديق الأمر - بالطبع – إلى أن لمس العلامات المحفورة التي يعرفها جيِّدًا.

لكن كان هناك نفق واحد لم يستكشفه بعد. وإن كانت الأسطورة صحيحة بالفعل، فلا بد أن الكنز هناك.





أزهر قلب الأمير الصغير عشقًا وتفتَّح، لكنه الآن مضطر إلى الرحيل.

بعد أن ذاق "تيان كون" وجع صفعة أبيه، صار يجلس إلى الطاولة طواعية، ليقرأ مع معلمه. أرسل والده أربعة حراس ليقفوا أمام الكهف. لم يعد مسموحًا له بالخروج سوى لتعلُّم فنون القتال على السد في الصباح والمساء. كان يحفر علامات في الطاولة بالسيف لينفس عن ضيقه.

رغم انه لم يعد يستطيع الوقوف أمام الكهف ومشاهدة الضباب والسحاب المار أمام الجبل، أو الفتاة التي تمشي بخفة بين العُشب الأخضر، فلم يزل بمقدوره إغماض عينيه وتخيل المنظر. لكن يومًا ما، حين لم يعد "تيان كون" قادرًا على السيطرة على نفسه، وبينما هو يتعلَّم فنون القتال على السد، كتب اسمه على ورقة ووضعها على رمح قذفه نحو شجرة الـ"مايدينهير".

لم ينم تلك الليلة. لم يعرف إن كانت الفتاة قد وجدت ورقته. كان يفكر أنها إن لم تجذب انتباهها في طريقها لقطع الحطب بالأمس فسوف يفسدها ندى الصباح ويصبح الكلام غير مقروء، لكنه لن يلومها على مثل هذا الإهمال، بل سيظل يطلق الأسهم حتى تقع الورقة في يدها.

كتب اسمه على ورقة أخرى ورسم نمرًا يحمل وردة في فمه. رغم أنها قد لا تميز النمر، فإنها ستخمن بالتأكيد هدف الرسمة، إنها فتاة نبيهة بلا شك.

أخذ رمحه وقوسه من الفجر وخرج. ومن بين السحب فوق الجبل رأى الفتاة مرتدية الأحمر، على الجهة المقابلة، الفتاة التي حرمته النوم طوال الليل. شعر بالسعادة، كانت تقطع العُشب بخنجر حاد. لم يعرف ماذا تريد أن تفعل، لكنه شعر بالدفء وهو يتخيَّل مرور تلك اليد الناعمة على وجهه. سحب القوس أطلق السهم بالورقة ومعها قلبه. وشاهدها تسقط بالقرب منها، أمسكت الورقة وتطلعت فيها لوقت طويل. شعر بمرور مائة عام.

رفعت الفتاة رأسها أخيرًا، لكنها لم تنظر نحوه، واصلت قطع العشب. قبل أن يتفاجأ من حركاتها، ظهرت صورة صادمة. اسم عائلته، "تيان"، الرمز المكون من خطين رأسيين وثلاثة خطوط أفقية 田 بدأ يظهر واضحًا وجميلًا مع حركة الخنجر في يدها فوق العشب. وقفت الفتاة في منتصف الرمز وفي لحظة بدت الجبال أكثر حميمية، أحاطت بهما الرياح والسحب كأن الجبلين أصبحا جبلًا واحدًا.

تأثَّر "تيان" حتى كست الدموع عينيه، علم أنه يسكن قلبها، مثلما تسكن قلبه ابتسامتها الحمراء المشرقة. شعر أنه لن يقوى على الابتعاد عن تلك الفتاة رغم أنه لم يعرف اسمها بعد.

في هذا اليوم، أتى أخوه "تيان قاو" إلى الجبل فجأة. أخبره أن والده أمر بعودته هو والمعلم فورًا. أثار ذلك دهشة الأمير والمعلم، ولكنَّ أخاه لم يوضح شيئًا فقط طلب منهم الإسراع.

في القصر، كان شيخ القبيلة ووزراؤه وإخوة "تيان كون" يتناقشون في حيرة وتوتر. وصل المعلم ومعه "تيان كون"، فأمر شيخ القبيلة على الفور بتجهيز مكافأة. كان الوزير قد أعد أربع قطع كبيرة من الفضة، وحمولة من الصناديق المعبأة بالطعام الشهي، زنابق فطر "الأوزموندا"، والمشروم البري،

والقرع والجنكة، إضافة إلى ثمانية ألوان من زخرفة الـ"تو چيا". ألقى المعلم نظرة خاطفة على الأشياء. قال شيخ القبيلة:

- حسنًا، لقد عملت بكد، ونتمنى أن تقبل هذا مع كامل تقديرنا، أتمنى لك العودة إلى "جينغ تشو" قبل حلول الظلام، لقد عينت حارسًا ليصطحبك.

تفاجأ المعلم، وقال بتردُّد:

- يا شيخ القبيلة، رغم أن لديَّ طاقة قليلة، فإنني عملت جاهدًا. أتمنَّى أن تصرفني عندما يتعلَّم الأمير الصغير المزيد.

- سيدي، لقد أسأت الفهم، لم أقصد أنك قصرت في تعليمه.

- إذًا، أرجوك ساعدني أن أفهم السبب وإلا فُضحت أمام سُكَّان القرية، ولن يسمح لي أحد بالتدريس مجددًا.

فرغ صبر شيخ القبيلة، وقال:

- إنك حقًا لا تعرف ما فيه الخير لك، لقد عقدت معك اتفاقًا جيدًا، عليك فقط العودة إلى منزلك، هيَّا، فلترشدوا ضيفنا إلى الطريق!

لكنَّ المعلم العنيد كان شديد التدقيق، وراح يخبط رأسه في الحائط الحجري.

من حسن الحظ أن "تيان كون" كان سريع البديهة والحركة، فسحبه بعيدًا وأنقذ حياته، لكنه أصيب ببعض الخدوش الدامية في رأسه.

- أوه، إنك حقًّا معلم، لماذا تتسبَّب لي في المتاعب الآن؟

وأمر أحدهم بإحضار العلاج والضمادات، وأخبر المعلم أنه سيتم ترحيله صباح اليوم التالي، حتى وإن اضطروا إلى حمله.

شعر "تيان كون" بالراحة عندما دخل القصر. كان والده مهيبًا في الماض,, لكنه الآن أصبح جلدًا وعظمًا، ولحية. سأله بخوف:

- أبي، ماذا حدث؟

تفحَّصه شيخ القبيلة من أعلى لأسفل، بملامح غامضة:

- هل أصبح عمرك ثمانية عشر عامًا هذا العام يا "كون"؟

أومأ "كون" برأسه مؤكدًا.

- عندما كان عمري ثمانية عشر عامًا، كنت في "تونجزو" بالقرب من بكين، كنت ضابطًا، وفي العام التالي، تزوجت أمك، التي أنجبت أخاك الأكبر.

تابعت عينا "تيان كون" أباه في صمت.

- لماذا أنت صامت؟

- لم تجب عن سؤالي يا أبي.

حدَّق "تيان" في ابنه بحزن:

- ربما من الأفضل أن لا تعرف.. هل شعرت بالكراهية نحوي يوم صفعتك؟

هز "تيان كون" رأسه، ثم أومأ؛ لأنه تذكر أنه حفر علامات كثيرة في المائدة. تنهد شيخ القبيلة.

- حسنًا، لا يمكنك خداعي، في الواقع أعلم أنك ستكرهني، لكن لماذا صفعتك؟

توقَّف ثم أضاف:

- لأنك ابني المُفضَّل.

شعر "تيان كون" بفيض من الدِّفء يمر بحلقه. شعر برغبة في الإسراع إلى ذراعي أبيه مثل الطفل، لكنه منع نفسه، حيث أراد أن يكون رجلًا حقيقيًا.

قال شيخ القبيلة:

- أتمنَّى أن تصبح رجلًا وتحكم هذه المنطقة مثلي. على الرجل أن يساهم ليعيش في هـذه الدنيا. مثل جدك الأكبر الذي ترك لنا سُمعة الـ"تيان" الحسنة، يسمى ذلك بـالفخر. هـذا أمـر يجب أن لا تنساه.

حدَّق به حتى أومأ "كون"، فقال:

- حسنًا، الوقت متأخر، لا يُمكننا قول المزيد. سـوف تـذهب في الصـباح مـع معلمـك إلى "جينـغ تشو", وهناك سيكمل تعليمك. سوف أرسل أحدهم لترتيب الأمور.

تفاجأ "تيان كون"، وقال فورًا:

- لن أذهب.

- لماذا؟

- أبي، لن أذهب إلى أي مكان حتى تخبرني بالحقيقة.

نظر إليه والده بحدَّة، وقال:

- لا يتوقَّف الأمر عليك. يجب أن تذهب لرؤية أمك وتتحرَّك في الصباح. لديَّ الكثير لأقوم به.

شعر "كون" أنه عاجز عن كتم سره.

- أبي، اسمح لي بيوم إضافي، عليَّ مقابلة شخص ما.

كان القصر يواجه كارثة كبيرة.

منذ نصف شهر، أرسلت المحكمـة أحـد الأشـخاص إلى الجبـال فجـأة. كـان شـيخ القبيلـة مشهورًا ويقوم بعمله، لذا اعتادت محكمة بكين منحه أفضل المكافـآت. لكـن في هـذه المـرَّة، تمت دعوته شخصيًّا إلى بكين للمرَّة الأولى، الأمر الذي أصابه بالتوتر.

وبالفعل، استطاع تأجيل رحلته، لكنه أرسل رجاله إلى نائب ملك إقليمي "هو نان" و"هـو بي" ليتحسَّسوا نية المحكمة الحقيقية. كان العام الجديد في بدايته، والجليد يغطـي كـل شيءٍ، حتى غصون الأشجار. وأزهـار الشـتاء الجميلـة تتفـتح. انتظـر "تيـان" عـودة الخيـول لمعرفـة الأخبار. امتطى المسافر الحصان ليوم وليلة، كان جسده ولحيته يكسوهما الثلج. وعند قـدمي شيخ القبيلة، فتح الرسالة المقدسة.

كان السبب وراء ذلك هو تقديم نائب الملك "ماي تشو" للإمبراطور تقريرًا سريًّا. قال فيه: "إن شيخ القبيلة "تيان"، المشرف عـلى منطقـة نهـر الميـاه العذبـة، تصرف بغـرور مـؤخرًا، لمـا ارتكبه من سلوك مشين. لقد خطط لبناء برج إداري من ثلاثـة طوابـق، ووضـع طبـول التنـين والعنقاء عليه. كما خطط لسحب المياه من نهر حزام "جاد"، وبنـاء جسر حجـري باسـم جسر قصر القمر. إضافة إلى ذلك، أقام مرصدًا فلكيًّا حتى يدعو الناس من مختلف الأماكن لمُطالعـة تشكيلات النجوم. قرأ الإمبراطور التقرير ولم يعجبـه الأمـر. فكتـب فـورًا بـالحبر الأحمـر يـأمر باستقدامه إلى بكين. شحب لون "تيان" عند رؤية رسالة الاستدعاء الآن.

لا يوجد دخان دون نار. في العام السابق، سافر "تيان" إلى "وو تشانغ"، وخطط بعد عودته لبنـاء قصر شاهق كمشروع طويل المدى. وعند اكتمال البناء، دعا كثير مـن الضـيوف. وحضر نائـب الملـك المشرف على الإقليم، وهنأه وقدم له الهدايا.

رغم أن قلعة "تيان" لم تكن أبدًا بتلك الضخامة التي ادَّعاها نائب الملـك في تقريـره، فـإن الإمبراطور - الذي لم يرَ الأمـر بنفسـه - تعامـل بحساسـية شـديدة مـع الأمـر، لـذا كـان مـن الطبيعي استدعاء شيخ القبيلة إلى بكين. في البداية، كتب إلى الإمبراطـور يبلغـه بمرضـه الـذي منعه من تلبية النداء الذي ما كان له أن يتأخر عنه، وأنه سوف يتحرك فور التعافي.

وبعد وقت قصير، وصلت الرسالة الثانية، وكانت أكثر حزمًا. قالت إن عليه إدراك سبب استدعائه إلى بكين وإلا فلن يستطيع الإمبراطور نفسه مساعدته، رغم رغبته في ذلك.

حينئذٍ أدرك أنه إن أجل السفر مجددًا فستأتي قوات الحكومة لأخذه، لكنه لم يكن يرغب في إطاعة الأوامر. أراد أن يؤمن شيئًا لزوجاته وأبنائه أوَّلًا.

لم يرغب شيخ القبيلة في إخبار "تيان كون" بهذه الأمور. أراد إرساله بعيدًا ليدرس من أجل مستقبله.

في صباح اليوم التالي، طلب شيخ القبيلة منهم إيقاظ "تيان كون". فنقر الخادم على الباب، لكن أحدًا لم يجب. خاف الخادم وأسرع عائدًا يبلغ شيخ القبيلة، الذي قال بإجهاد:

- لا بُدَّ أنه يمزح معنا. اطرق الباب بقوَّة أكبر!

تردَّد الخادم، فتوجَّه "تيان" إلى الباب وركله ليسقط مثيرًا سحابة من التراب. لكن لم يكن هناك سوى غطاء فارغ على سرير فارغ، وبارد.



四

سبق أن قام الجيش الأحمر، جيش "تيان"، جد "تيان كواي هوه"، بحماية الكهف العالي تسعة وأربعين يومًا. وكان هو الجندي الوحيد الناجي من هذه المعركة.

شعر "تيان كواي هوه" بالسعادة عند دخول الكهف العالي. كان يستطيع شمَّ أنفاس جدِّه ورائحة سجائره. كان يشعر أنه يتابعه بعينيه العجوزتين اللامعتين. عندما كان طفلًا، كان يجلس أمام الغليون الطويل، يستمع إلى القصص من جدِّه.

كان سُكَّان القبيلة يطلقون على جده "تيان الجيش الأحمر"، رغم شهرته منذ طفولته بـ"تيان الجسور". كان لا يخشى صيد الأسماك من النهر وهو في الثالثة، ويتسلَّق المرتفعات لجمع بيض الطيور في السادسة. عندما بلغ اثني عشر عامًا، راهنه اثنان من أشرار القرية على النوم في المقابر لليلة مقابل أذني خنزير. فاستعار معطف من القش ليقيه البرد، ونام ليلته بين قبرين لا يحملان أسماء. حاول الأشرار إخافته تلك الليلة، لكن الخوف أصابهما عندما وقف "تيان" فجأةً وهما يحاولان التسلُّل. كسر أحدهما ساقه وجن جنون الآخر وأصرَّ أن المقابر تحوي شبحًا سمينًا. في اليوم التالي، عاد "تيان" وأخبرهما أنه لا يوجد شبح سمين، بل كان هذا هو نفسه في معطف المطر. اتهمه الناس بالكذب، فوقفت فرصته في الشهرة عند هذا الحد.

انضم إلى الجيش الأحمر وعمره ستة عشر عامًا، وبعد أعوام من القتال، أصبح هو الناجي الوحيد من الجيش الأحمر، فأطلق عليه سُكَّان القرية "تيان الجيش الأحمر". حتى اعتقد بعض الناس أن ذلك اسمه الحقيقي.

فقد الجد ساقه اليمنى وهو في الجيش الأحمر، وبسبب مشيته المرتعشة، كان الأطفال يتتبَّعونه وهم يصيحون في الطريق. لهذا السبب، في أحد الأيام، بينما هو يبيع الجوز في الطريق، قام بتوبيخ الأطفال الذين اقتربوا وسرقوا الجوز من على الأرض حوله. لم تكن به قوة كافية لملاحقتهم، فكان يوبخهم وهو يضع يديه على خصره.

كان الجد يحب تناول الشراب، لكن لم يكن له مصدر رزق سوى بيع الفاكهة أو المحصول. عادة ما كان يبيع القليل فلا يحصل على مال كافٍ لشراء الشراب وتناوله بالمنزل. فكان يقف أمام حانة في المدينة، يستمتع بصحن غير ممتلئ من النبيذ. كان يشربه مع الفلفل الأحمر، فيحمر أنفه. كان له أنف قبيح، وأحمر، مما جعل اكتسابه للاحترام أصعب. أما الأمر الذي كان يسبب له المزيد من الإحراج فهو نسيانه الدائم لشراء الملح الذي تحتاج إليه الأسرة، فكانت والدة "تيان كواي هوه" تغضب عندما يعود إلى المنزل بيدين فارغتين، وتوبخه قائلة إنه لا يفعل شيئًا "سوى تناول الطعام والاحتضار".

كان يشعر بالأسف، لكنه لا يقول شيئًا، ويكتفي بملازمة غرفته الجانبية الصغيرة، حتى أنه كان يتناول الوجبات هناك. وكلما كبر في السن ازداد خجلًا وترددًّا. لم يعد يخرج لتناول الطعام، ولم تسمح والدة "تيان كواي هوه" لأبيه أن يرهق نفسه بالنداء عليه. كان "تيان" يشتري له كعك الذرة، ويطلب منه تناوله قبل أن يفقد سخونته. يضحك الجد ضحكة مكتومة ويضم "تيان" بين ذراعيه وهو يأكل. يقول "سأقصُّ عليك قصة". كانت قصصه وفيرة، تسافر عبر آلاف السنين، بالإضافة إلى ماضيه الشخصي.

وحده "تيان كواي هوه" كان يعرف أن جده كان بطلًا.

انضم الجد إلى الجيش الأحمر في عُمر السادسة عشرة. كان يقوم في هذا الوقت بتوصيل المياه إلى عائلة ذات سلطة ومال، عائلة "هوانغ". في صباح ما، بينما يسحب الماء، شعر بشيءٍ يلمس الدَّلو برفق، نظر إلى أسفل فرأى جثَّة "جوي جوي"، زوجة "هوانغ". تزوجها من المدينة منذ عام، كانت تصغره بثلاثين عامًا. عندما أتت، كانت مثل الزهرة، لكن بعد ستة أشهر أصبحت نحيلة. كان الجد يشعر بالشفقة نحو هذه السيدة. كانت مهذبة مع الخدم. في مرة، رأته وعمره ستة عشر عامًا يرتدي حذاءً من القش، وقدماه مشققتان والدَّم متجمِّد فيها من أثر الأيام الباردة، فتنهدت. لاحقًا، أحضرت له حذاءً وقالت إنها كانت ترتديه في المدرسة. كانت قدماه صغيرتين فلم يواجه صعوبة في ارتداء الحذاء.

كان يشعر أن "جوي جوي" سيِّدة صالحة، لكنها ماتت الآن في ظروف غامضة في البئر. رجح أن عائلة "هوانغ" قاموا بقتلها. كان الجميع يعلم أن زوجة "هوانغ" الأولى تكرهها، وابنه الأكبر يتآمر ضدها، ويطرق على بابها عندما يكون والده خارج المنزل. فأصبحت زوجة "هوانغ" الأولى تتهمها في شرفها، حتى أنها حاولت إقناع السيد "هوانغ" بإرسالها إلى بيت دعارة، بدلًا من إعادتها إلى المقاطعة. أصاب الجد الغضب حتى أنه شعر برغبة في الانتقام، لكنه كان يدرك عجزه عن ذلك. في هذا الوقت، كان جسده نحيلًا. في أحد الأيام، اتهمه ابن "هوانغ" الأكبر بالتسبب في اتِّساخ ساحة المنزل، فحمله مثل الدجاجة الصغيرة إلى الخارج وأوسعه ضربًا، حتى كاد يصيبه بعاهة.

رغم أنه لم يجرؤ على مواجهة عائلة "هوانغ"، فإنه أصر على فعل شيءٍ ما. لذا أشعل النيران في منزل "هوانغ" في تلك الليلة. جعلهم هذا يصرخون ويسرعون. كان الجد يتيمًا وليس له منزل، فعقد العزم على الالتحاق بالجيش الأحمر. كان يقال إن الجيش الأحمر يسرق من الأغنياء ليساعد الفقراء، وكان

هناك تأييد كبير له حينها في إقليمي "هو نـان" و"هـو بي"، وكـان الأغنيـاء هنـاك يعيشـون في قلق. سار الجد في الليل حاملًا شعلته، مبتعدًا عن مكان الحريق، حتى وجد الجـيش في قريـة "باييانج".

كانت "جوي جوي" سبب التحاقه بالجيش الأحمر. وهو أمر غريب، فلم يتبادلا أكـثر مـن عشر جُمل. لكن الجد كان مقتنعًا أنه لا يجوز لرجل صالح أن يموت بـلا هـدف. بعـد عـامين، وصل الجيش الأحمر إلى تلك القرية أسفل الكهف العالي، لكن "هوانغ" كان قد هـرب، ومعـه عائلته. لذا أخذ الجيش ممتلكات "هوانغ" من منزله ووزعهـا عـلى الفقـراء. في الوقـت ذاتـه، وجد الجد الحذاء المحبب له. شعر أنه نجح في الانتقام لـ"جوي جوي".

بعد شهور قليلة، وصل الجيش الوطني الثوري لمحاربة الجيش الأحمر. دارت عدَّة معارك. خرجت قوات الجيش الأحمر الرئيسية من غرب "هو نان" و"هو بي" إلى منطقة بحيرة "هونغ هو"، لكن العديد من الجرحى لم يتمكنوا من إتمام تلك الرحلـة الطويلـة. اختبـأ الجـد، الـذي كان مصابًا برصاصة في ساقه، مع المصابين الآخرين في الكهف. بعد أسبوعين، تم إرسـال فريـق تحت قيادة "هوانغ" لطرد اللصوص، الذين سمعوا بأمر الاختباء، فأتوا إلى نهـر الميـاه العذبـة لشن الهجمات على الكهف.

لكن لما كان الكهف يقع أعلى ربوة حادة، والطريق إلى هناك ضيقًا، فكان الذين يحاولون التسلُّق يسقطون أمام الجنود المجروحين المدافعين، مما أثـار غضـب القائـد. طلـب مـن ابـن "هوانغ" الأكبر إبلاغ رسالة إلى الكهف. قال إن مـن يستسـلم سـينقذ حياتـه ويُقـدم لـه الأرز والمال. أخذ الجد "تيان الجسور" السلاح من قائده المصاب وقال إنه يعرف الابن الأكبر جيـدًا، وإن من يستسلم سوف يفقد حياته. من الأفضل إطلاق النـار عليـه الآن. كـان ابـن "هوانـغ" خائفًا في البداية، لكن بمرور الوقت بـدأ يقـف ويصرخ بشـجاعة. وجـه الجـد السـلاح نحـوه،

وهو من لم يطلق النار على أحد خلال هذين العامين، بسبب نقص الذخيرة. لكنه كـان يملـك سيفًا كبيرًا.

استجمع الجد كل طاقته وصوب بدقـة. سـقط الرجـل مـن طلقـة واحـدة. انـتفض الجـد ضاحكًا، مدحه قائده لحسن مهارته وقال إنه يصلح ليكون جنديًا جيِّدًا. أخبره قائده أيضًا أنـه قد يصبح يومًا ما قائدًا كبيرًا إن تمكنوا من الهرب.

ردَّد الجد هذه الكلمات لاحقًا لـ"تيان كواي هوه".

- يا حفيدي، لا تقلل من جدك، إن لم تكن ساقي مصابة، فكنت على الأرجح سـأذهب إلى بكين بدلًا من أن أظل حبيسًا هنـا. لكـن مـن بـين عشرات المصـابين، كـان جـدك هـو النـاجي الوحيد. كان هذا حظي الجيِّد، من ماتوا كانوا في العشرينات من عمرهم وربما أصغر، عشـت عقودًا أكثر منهم، ولديَّ الآن ابن وحفيد، وأتمتع بتلك النعم.

خلال الأيام التي قضوها في الكهف، كان الجنود الـذي يحمـون المـدخل يسـمعون صـوت المأساة الدائرة في القرية أسفلهم. أصـاب "هوانـغ" اليـأس حتـى أنـه أمسـك بعـائلات هـؤلاء المصابين من جنود الجيش الأحمر في الجبل، ثم وضـع أكوامًـا مـن القطـن المنقـوع في الزيـت فوق رؤوسهم، ثم أشعل النار في القطن. عندما لم ينجح الأمر، أمـر "هوانـغ" بـربطهم معًـا في سلسلة ودفعهم للتسلُّق نحو الكهف العالي. لم يجرؤ جنود الجيش الأحمر عـلى إطـلاق النـار، واضطروا إلى مشاهدة العدو وهو يقترب نحوهم خلف أحبَّائهم.

ظل الجد في الكهف لمدة تسعة وأربعين يومًا. في النهاية، نفـد الطعـام ونفـدت الـذخيرة. أشعل الجيش الوطني الثوري النيران أمـام الكهـف، فـامتلأ بالـدخان الكثيـف، مـما زاد الأمـر صعوبة على الرجال المصابين الجوعى بالداخل.

أمر القائد الجميع بتدمير أسلحتهم، بدلًا من تركها للأعداء، ثم خرجوا مُترنِّحين من الكهف وقفزوا من أعلى المنحنى.

استمر وفود السيارات إلى القرية طوال سنة كاملة، مصطحبة القادة من الأقاليم. خرج رجل ذو شعر رمادي من السيارة، في بذلة جيش قديمة، تتبعه عن قرب مجموعة من الحرس طوال القامة. قال الناس إنه نائب رئيس الجيش لمنطقة "وو هان". وبينما كان يتجوَّل في المكان ويتفحصه، ظل يتمتم نادمًا على تأخره في المجيء. تأمَّلته مجموعة من الأطفال بأنوف غير نظيفة. مال الرجل العجوز عليهم ليسأل عن أسمائهم، لكنهم أسرعوا بعيدًا ضاحكين. شاهدهم والعاطفة تسيطر عليه، وتوجه إلى منزل أحد المزارعين، وأجرى تحقيقًا مفصلًا. جاء بعض سُكَّان القرية الفضوليين لتفحص الأمر. قال القائد إن الجيش الأحمر الثالث قد استقر هناك، وإن معظم أفراده كانوا من السكان المحليين. ذكر مجموعة من الأسماء وسألهم إن كانوا يعرفونهم. هز الواقفون رؤوسهم نفيًا، كان "تيان كواي هوه" واقفًا هناك عندما سمع اسم "تيان الجسور" بشكل غير واضح. صاح أنه يعرف ذلك الاسم، فضحك كل من حوله. لكن الرجل العجوز سمع بوضوح وخرج من المنزل سريعًا ليرى أين هو، أمسك القائد من المدينة بكُمَّي "تيان كواي هوه" وأخبره أنه لا مجال للمزاح. قال "تيان" إن "تيان الجسور" هو جده، وأن بإمكانهم سؤاله بشكل شخصي. في تلك اللحظة، كان يقوم بخياطة الأحذية المصنوعة من القش بالمنزل. تردد القائد القادم من المدينة، لكنَّ نائب قائد الجيش أسرع بالذهاب. مشت مجموعة كبيرة من سُكَّان القرية بحماس نحو منزل "تيان". كانت والدة "تيان" تطارد الدجاجات، وجده في غرفته الجانبية الصغيرة بأنفه الأحمر.

نادى "تيان":

- جدي، أتى أحدهم لزيارتك.

التفت الجد ورأى الرجل العجوز وجهًا لوجه.

- "بوبي"! ماذا تفعل هنا؟

أسرع نائب قائد الجيش وتعانق الرجلان بشكل غريب، حتى ابتلَّت أكتافهما بدموعهما.

كان "بوبي" رفيق سلاح الجد، في الفصيلة نفسها. كانا في العمر نفسه لكن "بوبي" التحق بالجيش بعد الجد بعام واحد. حينئذٍ، عندما لم يكن له مكان يأوي إليه، ولا شيء يملكه، بات ليلته مع الجد، في معطف واحد، ظهرًا لظهر.

قال الجد:

- لقد أصبحت قائدًا كبيرًا الآن وحظك أوفر من حظي.

- كنت أظن أنني سأعود خلال سنة من بعد رحيلنا، بعد التحرير أرسلت أشخاصًا إلى غرب "هو بي" ليتفقدوا المكان بعد أن رحلنا، لكنهم قالوا إن جميع الجرحى ماتوا في ذلك العام، كيف نجوت أنت؟

أجاب الجد:

- اعتنت بي السماء.

عندما أمر القائد جميع المصابين بالقفز، عاد الجد سرًّا خطوة إلى الخلف، رأى النيران خارج الكهف، ورفاقه يختفون الواحد تلو الآخر. تقهقر الجد إلى أحد الأنفاق المجهولة. كان يفكر أنه سيموت في جميع الأحوال، فلمَ لا يخوض التجربة. كان النفق عميقًا ومظلمًا، ومنحدرًا إلى الأسفل، سقط الجد فيه. وبعد فترة لا يعلمها إلا الله وصل إلى المخرج الآخر.

انتقل الجد إلى "تشونج تشينج" وحاول كسب عيشه. ولم يعد حتى عام 1949.

عندما دخل نائب قائد الجيش إلى غرفة الجد الجانبية الصغيرة، بحوائطها الفارغة، وسرير القطن الفاسد ووسادة قشر النخالة، لم يتمكَّن من إخفاء غضبه. فوبَّخ قائد المدينة قائلًا:

- أهكذا تعاملون بطلًا سابقًا من الجيش الأحمر؟ يجدر بي إصدار أمر بإعدامك رميًا بالرصاص.

فزع القائد ودافع عن نفسه قائلًا إن الجد لم يعلن عن كونه جنديًّا سابقًا في جنود الجيش الأحمر من قبل، لذا لم يكن أحد يعرف.

قال الجد:

- الحياة الصعبة أصبحت من الماضي، يا "بوبي"، أنا على بعد خطوة من القبر، لا يهمني نوع المعاملة، من فضلك لا تُثر أي متاعب.

ومع مرور الوقت، صار هذا الموقف جزءًا من الماضي، ولم يزل الجد يشرب الخمر ويناديه الناس بـ"تيان الجيش الأحمر".



五

ذهب الأمير الصغير إلى محبوبته رغم عتاب أبيه، وفي مواجهة الكهف العـالي تمثَّـل أمامـه والده.

هرب "تيان كون" من قصر أبيه في منتصف الليل، لم يكن هذا بالأمر الهين. لقد عين والده حراسًا لحماية القصر من برابرة "يون نان" و"قوي تشو" قبل ثلاثة أعوام. عندما تحدَّث "تيـان كون" عن هذا الأمر مع معلمه، ابتسم المعلم معترضًا، وقال:

- إن والدك عجوز، يرى الآخرين برابرة، بينما سُكَّان "جينـغ تشـو" ومـا حولهـا هـم عـلى حسب علمي من يرونكم أنتم الـ"تو چيا" أناسًا أشرارًا.

استمع "تيان كون"، لكن الحديث لم يسعده. في الواقع، درس والده بالخارج في شبابه، كما قابل الإمبراطور مرَّةً، وهو الذي أرسله ضابطًا إلى بكين. لاحقًا، شغل منصب شيخ القبيلة عنـد عودته إلى غرب "هو بي". تلقى والده تعليمًا جيدًا، وكان يتميز بتفكير منطقي، لـذا فـلا شـك أنه شخص منفتح.

سرق "تيان كون" خاتم والده الملكي ليتمكن من تجاوز الحـرس، وأخـيرًا وقـف عـلى قمـة التل بعيدًا عن القصر. كانت السماء صافية، والمنطقة المحيطة بـالقصر صـامتة وخاليـة. شـعر "تيان كون" ببعض الحزن فجأة.

لم يعانِ الحزن أو القلق خلال نشأته، لكنه بدأ يعيشهما في الليلة السابقة. لقد طلب منـه والده الرحيل دون تفسير. ورغم عدم التوضيح، عرف "تيان كون" أن السبب خطـير بـلا شـك. عرف ذلك من التعبير البادي على وجه أبيه. قرَّر "تيان كون" احـترام أوامـر والـده، لكنـه أراد أيضًا رؤية الفتاة الجميلة ثانية. استمع إليه والده، ثم اتهمه بالسخافة مع ابتسامة جافة. أراد "تيان" الاستئناف، لكنَّ والده لم يرغب في الاستماع، وأمره بالرحيل في الصباح البـاكر، ولا أحـد يستطيع تغيير ذلك. فلم يعد أمامه خيار سوى الهرب من القصر في منتصف الليل.

سار على ضفة النهر الشمالية في الطريق المرتفع المؤدِّي إلى الجبـل. بعـد فـترة، وصـل إلى المكان الآسر الذي كان يشغل فكره كل يوم في الفجر. تلك الحديقـة الآخـاذة، المُبلَّلـة بحبَّـات ندى تشبه اللؤلؤ، والفجر يضفي عليها لمعة الذهب. وهناك رأى هذا الرمز "田" مرة أخرى. ورأى تنورتها الحمراء تلمع أمام عينيه مثل الشعلة.

كانت الفتاة تقف تحت شجرة "المايدينهير" تنظر نحو الكهف. لم تكن تعرف أنه بالأسفل على التل، من المُؤكَّد أنها تتساءل عن سبب عجزها عن رؤية ظلـه. أراد "تيـان" نـداء اسـمها، لكنه كان يجهله. فنادى بدلًا من ذلك مواجهًا ظهر محبوبته، في مواجهة المنحدر. صاح ينشد:

- أوه هو هو!

في الوقت ذاته، جاء رد سريع من الجهة المقابلة:

- أوه هو هو!

اهتزَّ الغمام والنهر مع ندائه. التفتت الفتاة سريعًا وعيناها اللامعتان متفاجئتان، أشرقت بشغف وأسرعت تجاهه مثلما أسرع هو الآخر تجاهها. أسرعا إلى بعض حتى كادا يصدمان بعضهما. تنهَّدت الفتاة، وقالت ببساطة:

- أخيرًا جئت!

ثم سقطت بين ذراعيه.

شعرا كأنهما اجتمعا بعد آلاف السنين، شاعرَين بألفة تامة. داعب "تيان" شعرها الأسود الكثيف. تحرَّر شعرها بسبب الجري وانسدل على ظهرها، مثل الشلال. قبل "تيان" شعرها الناعم اللامع. وتعجَّب من رائحتها قائلًا:

- أنت جميلة. من أين لشعركِ بمثل هذه الرائحة الخلَّابة؟

أجابت بصوت عذب هامس:

- أغسله كل يوم من نهر المياه العذبة. المياه هناك مثل المرآة، يُمكنني رؤية مظهري ومعرفة إن كنت قبيحة، أم أستحقُّ محبوبي.

شعر "تيان" كأنه مُخدر، بدأ يقبل وجنتيها الوردتين، وقال:

- أنتِ أجمل فتاة في العالم بأسره. يمكن للمياه أن تشهد على ذلك. دعيني أقبِّل وجهكِ. أقبل أذنيكِ. شفتيكِ.. إنهما أكثر حمرة من زهر الكاميليا.

ودون مزيد من الكلمات، تقابلت شفاههما بقوة. وعندما انفصلا أخيرًا، كان وجه الفتاة أكثر حمرة من سحب النهار المشرقة.

- "تيان"، لقد كنت أنتظرك.

فأمسك بجسدها بشغف.

- هل أحلم الآن؟ أخبريني أنه ليس بحلم، لقد رأيت آلاف الأحلام المشابهة. لكنني أستيقظ عادة.. عزيزتي، لا تدعيني أستيقظ.

عضت الفتاة أذنه.

- "تيان"، هذا ليس بحلم. انظر إليَّ، إنها حقيقة.

نظر "تيان كون" إليها، إلى عينيها وابتسامتها، لم يكن تقبيلها قادرًا على إخماد شوقه.

- هل أنتِ جنية؟ أو عفريتة أرسلكِ لي النمر الأبيض؟ كيف التقينا عبر المرتفعات ووقعنا في الغرام؟

- "تيان" ما قلته للتَّوِّ، يشبه الشعر.

- أخبريني من أنتِ.

- اسم عائلتي "مو"، واسمي "أبريكوت".

كانت ابنة شيخ القبيلة، "مو"، الذي يشرف على الضفة الجنوبية لنهر المياه العذبة. كانت أمها سيِّدة تقليدية من سلالة "مياو". سيِّدة نحيلة، بساقين لونهما أبيض، كانت تلمع بشكل مميز في المياه. وضع شيخ القبيلة "مو" رمحه وقوسه ومشى نحوها، غير مكترث لأي شيء آخر. حملها على حصانه. لم يكن أمامها وقت لتصرخ. أخذها "مو" إلى ظل الكهف ونال مراده بسهولة.

لم تتزوج أمها شيخ القبيلة بالطريقة الرسمية مطلقًا؛ لأن زعيم شعب "مياو" لم يكن ليسمح لها بالزواج من هذا الرجل البربري من سلالة الـ"تو چيا". حتى إن كان شيخ قبيلة، إضافة إلى زواجه بالفعل من سبع زوجات وخليلات. حملت والدة "أبريكوت" الكراهية لشيخ القبيلة "مو" طوال حياتها، لكن عندما عرفت بحملها لـ"أبريكوت"، تقبَّلت قدرها، وقامت على رعايتها وحدها.

مالت "أبريكوت" إلى "تيان"، وتبادلا كلمات المحبين المعسولة تحت الشجرة. راقبتهما أعين زرقاء. لم تتمكَّن الأم من إخفاء التعبير الغريب الذي

كسا وجهها الوردي عندما رأت ابنتها المراهقة. وازداد قلقها لما رأته في عيني ابنتها. نادت عليها:

- يا "أبريكوت"!

شبكت "أبريكوت" يدها بيد "تيان"، مثل زوجي فراشات. أخذت "تيان كون" إلى أمها التي تقف تحت الإفريز، وقالت:

- أمي لقد أحضرت ضيفًا.

لم تنظر أمها إلى "تيان"، بل قالت، وهي لا تزال تنظر إليها:

- ادخلي إلى المنزل.

تفاجأت "أبريكوت" وسألت:

- أمي، لماذا لا تسألين عن هويته؟

- أعرفه، إنه الابن الأصغر لشيخ القبيلة "تيان"، كما أعرف أنه يفترض وجوده الآن للدراسة في الكهف العالي، لكنه يتسلل إلى الخارج، دعيه يذهب يا "أبريكوت"، فأنا لا أريد أيَّ ضيوف.

أمسكت "أبريكوت" بكتف أمها، وقالت وهي تحمرُّ خجلًا:

- اسمعيني يا أمي، إن "تيان" هو محبوبي، سأتزوَّج به.

فقدت الأم السيطرة على نفسها كما فقدت القدرة على النطق.

- يا إلهي، يا "أبريكوت".

أمسكت "أبريكوت" بها وقالت بتعجُّب:

- ما الأمر يا أمي؟

- كل هذا خطئـي أنـا، لم أدعـكِ تـرين سـوى القليـل مـن هـذا العـالم، والآن انظـري كـم أصبحتِ ساذجة. استمعي إلى أمكِ. لا تسلكي هذا الطريق، عليكِ الزواج برجل صادق تعيشين معه في سلام. لا تجلبي لنفسكِ الأسى مثلي.

- لن أفعل يا أمي، فـ"تيان" ليس مثل أبي.

حينئذٍ قاطعتها أمها:

- اخرسي، لا تستخدمي تلك النبرة عندما تتحدَّثين عن والدكِ.

تقدَّم "تيان كون" وانحنى:

- يا خالتي، سأتزوَّج "أبريكوت" لتصبح زوجتي رسميًّا. من فضلكِ اسمحي لنا..

نظرت إليه أمها باستياء:

- لقد صعدت التل بلا شيءٍ، انظر إلى ردائك وحذائك المفقودين، شيخ القبيلة "تيان" رجل معروف، وأنت ابنه، كيف تطلب ابنتي هكذا؟

قالت "أبريكوت":

- لماذا ترفضين طلبنا يا أمي؟

كانت أمها أكثر عندًا، فلم تتأثر بدموع ابنتها وتوسُّلها. لم تسمح لـ"تيـان" بالـدخول. كـان الوقت متأخرًا، ولم يدرِ إلى أين عليه الذهاب. لقد رحل دون أن يودع أحدًا. فكَّر في أمه وأبيه، لا بُدَّ أنهما يشعران بقلق شديد. أغضبته الفكرة. مكث على التل حتى ارتفع القمر، في مقابلة ذلك الكهف، حيث عاش لفترة طويلة. الكهف الذي كان يرقد الآن في هدوء وظلام.

بعد مرور وقت طويل، رأى الشُّعلات تتحرَّك على الجبل المواجه له. وقف ولم يصدق عينيه، كان الحريق يكبر، حتى أنار الكهف. وبين النيران رأى ظلًا مألوفًا، فصاح:

- أبي؟

ثم رأى أخاه "تيان قاو"، مع فريق من الجنود يحملون الصناديق إلى الكهف. كان الجنود منهمكين، بينما يقف والده أمام الكهف ثابتًا. رغم تأخر الوقت، شعر "تيان كون" كأنه يرى عيني والده الحادَّتين. أراد أن يصرخ حتى يعرف والده بوجوده.

في تلك اللحظة، سمع صوت أقدام تقترب منه. جاء صوت "أبريكوت" منهكًا:

- "تيان"، هل أنت هنا؟

التفت "تيان".

- لا بُدَّ أنك جائع، أسرع وتناول الطعام.

التهم "تيان كون" الكيكة المخبوزة التي أعدتها بنهم، مثل ذئب جائع.

- لا تلم أمي، فهي تخشى أن يتم خداعي مثلها، غدًا سأقنعها. وربما تغير رأيها.

نظر "تيان كون" إلى النار قبل أن يتحدَّث.

- إنني مضطر إلى الذهاب يا "أبريكوت".

تفاجأت، ورددت الكلمة:

- الذهاب؟

- أجل. إن قصر "تيان" يواجه صعابًا ضخمة. رغم أنني أجهل الأمر، فإنني أعتقد أنه أمر شديد السوء، وإلا ما كان أبي ليحضر رجاله إلى الكهف ليلًا. عليَّ مقابلة أبي.

أمسكت بيديه، وقالت:

- "تيان"، خذني معك. سوف أتبعك أينما تذهب. لا أريدك أن تتركني.

لمس حديثها قلبه لكنه ظل متماسكًا.

- لا يُمكنني ضمان سلامتي تلك المرَّة يا "أبريكوت". عليكِ البقاء في منزلكِ وانتظار أخباري. إن مرَّ كل شيءٍ بسلام، فسوف أرسل طلب زواج إلى منزلكِ، ومن ثم يُمكننا الزواج بشكل رسمي حتى تشعر أمكِ بالراحة والطمأنينة.

ارتعد قلبها.

- كلَّا، لديَّ شعور ما يخبرني أنك لن تعود. لذا يجب أن أتبعك. إن لم أفعل فلن أراك مجدَّدًا.

عندما تكلمت، شعر "تيان كون" بصدره يبتل بدموعها. شعر بألم لم يعرفه من قبل.

همس لها:

- لا أريد ترككِ يا "أبريكوت"، لكن أبي على الجهة المقابلة، شعرت بعينيه تحدِّقان في. أنا رجل من عائلة "تيان" ولا يُمكنني الاختباء في وقت مثل هذا. أرجوكِ سامحيني، سأعود قريبًا.



六

وحده "تيان كواي هوه" كان يعرف أن في الكهف عالمًا مثيرًا للاهتمام. يمكن أن يحدث أي شيءٍ بالداخل إلا رؤية الأشباح.

بعد منحنى حاد، يفضي النفق إلى مساحة مربعة، مثل الغرفة، وبداخلها حتى سرير من الحجارة إلى جانب الحائط، له مظهر مقبول. ابتسم "تيان كواي هوه" كأنه تعرف على المكان. فكر أن المعلم "لي" ماهر بلا شك في التوصل إلى الأماكن المناسبة. في الشهر الماضي، عندما حاول استكشاف تلك الغرفة، سمع صوتًا قويًا أخافه حتى الموت. فتذكر الشائعات الخاصة بالحيوانات الشرسة التي تأكل الناس داخل الكهوف. كان عليه توخّي الحذر.

لكنه استنشق رائحة مألوفة طمأنت قلبه. كان يعرف تلك الرائحة منذ كان يترك العلامات على سريره عندما كان عمره أربعة عشر عامًا.

أشعل شعلته وتقدَّم. فاستطاع تمييز شخصين في الظلام، يتحركان على السرير. فأشعل سيجارة.

عندما لاحظاه، حاولا الاختباء، لكنه كان يعرف أن الكهف مليء بالأخطار. يمكن للشخص السقوط بسهولة في إحدى الحفر العميقة.

- لا تخافا، أنا إنسان لست شبحًا!

راحا يرتديان الملابس سريعًا. قال الرجل بغضب:

- ليتك كنت شبحًا.

ميَّز "تيان كواي هوه" الصوت، إنه معلم الألعاب الرياضية بمدرسة "نهر المياه العذبة الابتدائية". المعلم "لي". كان يرتدي ملابس رياضية باللونين الأحمر والأزرق، ويعلق صفارة على صدره طوال اليوم، يصيح: "واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة".

لم يتوقَّع "تيان" رؤية "لي" هنا، ومما زاد المفاجأة أن هذه المرأة لم تكن زوجته، بل زوجة قائد القرية. توفيت زوجة القائد العام السابق، ثم تزوج تلك الفتاة من الجبل. كانت تكبر ابنه بخمسة أعوام. كانت نحيفة وهادئة، تبقى دائمًا بعيدة عن الزحام. لم يتمكَّن "تيان" من تخيل السيناريو الذي انتهى بهما هكذا.

بعد ذلك اليوم، رآها "تيان" مرَّةً واحدة إلى جانب البئر. وعندما رأته، حاولت الابتسام، لكنها لم تستطع إخفاء ارتباكها.

فيما بعد، سأله "لي" إن كان سيكشف سرهما. وأخبره أنها إحدى تلميذاته السابقات.

كل ما جال بخاطر "تيان" هو التفكير في طريقة للاقتراب من "بيتش" كما اقترب "لي" هذا القدر من زوجة قائد القرية.

أراد في مرة الإمساك بيد "بيتش"، لكنها أرادت التخلُّص منه، فحاول أن يحول الأمر إلى مزحة فضحكت. عندما قالت إنها تشعر بالعطش، اشترى زجاجة ماء، أراد شراء أخرى لنفسه، لكنه لم يكن يملك مالًا كافيًا. تنهَّدت وقالت له:

- أنت شخص صالح، لكنك فقير. في هذا العالم، يوجد الغني والفقير.

ثم، في يوم ما، بينما كان يتحدَّث مع "بيتش" عند مـدخل صـالون التجميـل الـذي تعمـل فيه، توقَّف موتوسيكل، ونزل قائدها وطلب من "بيتش" الـذهاب معـه في جولـة. بـدا ريفـي رغم ارتدائه بذلة وخاتمًا لافتًا من الذهب. كانت ياقة قميصه متَّسخة وحذاؤه ملطَّخًا بالطين، وتفوح منه رائحة الصويا.

منع "تيان" الرجل، وقال:

- لن تذهب "بيتش" إلى أي مكان.

فالتفت الرجل إليه وسأل:

- هل أنت أخوها؟

- كلَّا.

- إذًا، دعنا وشأننا.

ثار "تيان" ولكم الرجل. شعر "تيان" بالسعادة لبقائها لرعايته بدلًا من الـذهاب مـع هـذا الرجل.

أخبرته أن الرجل يعمل في تجارة صوص الصويا في مكان قريب. ذهب "تيان" إلى مكان إعـداد صوص الصويا سرًّا. كان عملًا مزيَّفًـا. مجموعـة مـن الأشـخاص اسـتأجروا مصـنعًا مهجـورًا، حيـث يقومون بإضافة الصبغة والملح إلى الماء، ثم يقومـون بتعبئتـه في زجاجـة وإلصـاق ورقـة مكتـوب عليها: "الصوص الذهبي".

بلغ "تيان" ديوان التجارة والصناعة. لكن يكن لدى أحدهم الوقت ليكترث، قالوا إنه أمـر منتشر. أخبرهم "تيان" أنه سوف يبلغ الصحافة، وعنـدها بـدؤوا يهتمـون. أخـذوه في السـيارة وسمحوا له بإرشادهم إلى الطريق. تظاهر أنه لا يعرف الطريق جيدًا حتى يجول عدَّة مـرَّات. كان الجو باردًا وهو يجلس في السيارة يشعر بالراحة والفخر، لن ينسى تلك التجربة.

كان "تيان كواي هوه" يستمتع بذكرى تلك التجربة، بينما يغوص أكثر في النفـق. لكـن في حين غفلة منه، وقع وسقط في الظلام العميق. وقعت شعلته من يده ورسمت خط من النـور الذهبي أمام عينيه. تمنى أن يتمسَّك بذلك الخط، لكن فات الأوان.



七

الوقت الذي يقضيه المرء في الكهف، يحوِّل كل الشُّهرة والثروة إلى أوهام.

رغم علم جميع الجنود بأنه الأمير الصغير، فقد سألوا "تيان كون" عن اسمه واسم عائلته وسبب مجيئه، مؤكدين على كونها أوامر شيخ القبيلة. لا يسمح لأحد الاقتراب من الكهف بلا سبب. بدا القلق والاضطراب على جميع من قابلهم. سأله أحدهم:

- يقال إن هناك كثيراً من الجنود في "يي تشانغ" و"جينغ تشو"، هل يأتون إلى هنا لأن شيخ القبيلة قد أثار غضب الإمبراطور؟

زادت هذه الكلمات قلق "تيان كون"، فأسرع إلى الكهف. وهناك رأى المشهد ذاته الذي رآه الليلة السابقة. كان والده يقف على حافة الجرف، واضعًا يديه على خصره، وأكمام ملابسه الواسعة تتحرَّك مع الرياح. أسرع "تيان كون" إليه، وركع أمامه. لكن قبل أن ينطق بكلمة قال والده:

- "كون"، هل أتيت؟

التفت والده، لقد صار شعره الأسود رماديًّا. تفاجأ "تيان كون" وشعر بالغضب. قال وهو يكاد يختنق:

- لقد أخطأت يا أبي، ما كان لي أن أخرج سرًّا.

تنهَّد شيخ القبيلة، وقال:

- ولماذا عدت الآن؟

ثم استدار وأعطاه ظهره.

- أبي، عاقبني، اصفعني وعنِّفني.

ظل شيخ القبيلة صامتًا فترة طويلة.

كان "تيان كون" يعرف أن شيخ القبيلة لا يغفر أخطاء مرؤوسيه مطلقًا.

- أبي، قل شيئًا.

التفت إليه شيخ القبيلة مجددًا، ومد يده لابنه لكنه تراجع، وقال:

- قف وحدك. فستضطر إلى الاعتماد على نفسك في المستقبل.

ثم أردف:

- منذ ورثت حكم هذه المنطقة من جدك، حرصت على بذل كل جهد ممكن لتوسيعها، لكن لم أتخيل أنني سأثير غضب الآخرين في النهاية. الآن غضب عليَّ الإمبراطور، ولَكَم أشعر بالحيرة والعجز. هل كنت مصيبًا أم مخطئًا؟ هل سيذهب كل جهدي هباءً؟

تقدم "تيان كون" وأمسك بذراع والده، قال:

- اجلس قليلًا يا أبي، لقد وقفت فترة طويلة.

- إن أطعت أبيك فسأدعك تهرب من هنا، يمكنك الذهاب أينما شئت.

- كلَّا يا أبي، لن أتركك في مثل هذه الظروف. لكنني لا أفهم كيف أثرت غضب الإمبراطور؟ أظن أن عليك تنفيذ الأوامر والذهاب إلى العاصمة لتقابله. هناك يمكنك تفسير موقفك بشكل أفضل.

- لطالما ملكت جرأة كافية للتعليق على أفعالي، حتى وأنت طفل.

في هذه اللحظة، دخل أخوه "تيان قاو" مع فريق من الجنود. بدا الاضطراب على الجميع. لم ينظر أخوه إليه عندما تحدَّث.

- أبي. لقد تحرَّك نائب الملك من "شي نان" مع الجنود. إنهم يتجهون مباشرة إلى نهر "المياه العذبة".

دخل جندي آخر يحمل سكينًا:

- أيها القائد، هناك فتاة صغيرة تريد مقابلة الأمير. لا يُمكنني إبعادها.

خرج اسمها من فم "تيان كون":

- "أبريكوت"!

نظر إليه "تيان قاو" بغضب، وقال:

- لقد أحضرت المزيد من المتاعب معك. ما قصة هذه الفتاة؟

- يا أبي، يا أخي، لا بُدَّ أنها الفتاة التي تسكن في التل المقابل، إنها الفتاة التي خرجت لمقابلتها بالأمس.

شرع "تيان قاو" في توبيخه، لكن شيخ القبيلة قاطعه قائلًا:

- لدينا ما يكفي من المشكلات، فلا حاجة بنا إلى جدالكم هذا.

قال "تيان قاو" بغضب:

- أبي، لقد ارتكب "تيان كون" خطأ جديدًا، لا بُدَّ أن يُعاقب.

لكنَّ شيخ القبيلة قال:

- اسمحوا لها بالدخول.

صاحت "أبريكوت" فور دخولها ورؤية "تيان كون":

- "تيان"، أخيرًا وجدتك.

- أخبرتكِ أن لا تحضري إلى هنا.

- لا، ما دمت هنا فلا يُمكنني الرحيل.

ثم استدارت وركعت أمام شيخ القبيلة تتوسَّل إليه كي يسمح لها بالبقاء.

بعد ثلاثة أيام، وصل نائب الملك "ماي تشو" وجنوده إلى المنطقة المحيطة بالنهر. وجدوا القصر خاليًا، لكنهم أقنعوا مسؤولًا أقل درجة بنقل رسالة إلى "تيان". تقول الرسالة إن الإمبراطور يطلب حضور شيخ القبيلة إلى بكين، هذا كل شيءٍ. وإن تمكن شيخ القبيلة من تفسير الأمر للإمبراطور، فسيحتفظ بمنصبه ولن يتغير أي شيءٍ.

عندما رأى "تيان كون" الرسالة قال لوالده:

- أبي، أريد الذهاب معك إلى بكين ومقابلة الإمبراطور.

لكن والده كان غاضبًا بشدة، حتى أنه أخرج سيفه وقطع جزءًا من الترسُّبات المتدلية من سقف الكهف إلى نصفين.

- من يجرؤ على مخاطبتي بهذه اللهجة فسيكون هذا مصيره.

ثم هدأ شيخ القبيلة وكتب إلى نائب الملك، ذكر له وقوع بعض الكوارث الطبيعية في العام الماضي، وأخبره أن رحيله في هذا الوقت لن يكون جيدًا لشعبه، وأنه سيتجه إلى بكين لمقابلة الإمبراطور فور زراعة بذور فصل الربيع.

كان كل شيءٍ هادئًا في تلك الليلة، نام الجنود مستندين على الحوائط الحجرية، في حين جلس شيخ القبيلة في الكهف يفكر. أثارت نظرته الشاحبة قلق "تيان كون".

قال:

- لماذا أنت شديد الحرص على ذهابي إلى بكين يا "كون"؟

أجاب "تيان كون":

- أبي، لقد ساعدتني على تعلُّم الكثير طوال عمري، لذا أعرف قليلًا عن شؤون هذا العالم، وأعتقد أن الإمبراطور لا ينتوي إلحاق أي أذى بك، كل ما يريده هو تغيير نظام شيوخ القبيلة عبر الجنوب الغربي، لذا يحتاج إلى الموازنة بين الشدة واللين في الوقت ذاته، ويريد أن يبدأ بك.

تفاجأ "تيان" وتعجب، ولم يملك سوى الوقوف وقول:

- لم أتوقَّع منك مثل هذا التفكير العميق في هذه السن.

- ربما يمكنك إرسال رسالة توضح فيها وجهة نظرك عن النظام، أو تجد وزيرًا يساعدك، وهكذا سيعيد الإمبراطور التفكير في كل شيءٍ قبل أي تصرُّف، وربما يعود حينها كل شيءٍ إلى وضعه الطبيعي.

هزَّ "تيان" رأسه نفيًا:

- فات الأوان، يعرفني الإمبراطور جيدًا، وأنا أيضًا أعرفه نوعًا ما، لكن فات الأوان.

في اليوم التالي، أمر "تيان" ابنه الأكبر بإعداد وليمة. رأى "قاو" على وجه والده تعبيرًا سعيدًا، فظن أن الأمور قد تبدَّلت، لكنَّ والده قال:

- طغى الحزن على قصرنا لأيام كثيرة، والآن، أصبح لأخيك محبوبة، وقد كانت شجاعة كفاية لتأتي وتجده، أريد إقامة حفل خطبة لهما، حتى نتمتع باحتفال مبهج.

فاجأ ذلك "قاو":

- هنا؟

- ولِمَ لا؟

- واليوم؟

- بالتأكيد، خير البر عاجله.

- يا أبي، لا أظنه وقتًا ملائمًا، لقد تقابلا للتَّوِّ، والآن يتزوجان؟

- إنهما يحبان بعضهما بعضًا، ومن الأفضل أن نسمح لهما بالزواج، فسيجلب ذلك الاحتفال لنا جميعًا بالسعادة.

صعق "تيان كون" و"أبريكوت" عند سماع هذه الأخبار.

كان حفل الخطبة فريدًا، لقد عاش أجدادهم في الكهف لأعوام وأعوام، لكنهم لم يكن لديهم الشموع لإنارته، وإكسابه دفئًا وإشراقًا. كان على كل صخرة شمعة، مئات منها ترسل الضوء بأحجام مختلفة، مثل النجوم. أصبح الكهف مكانًا خياليًا. جلس شيخ القبيلة على عرش مرتفع، مُحاطًا بأبنائه وزوجته. وكثير من الجنود يركعون احتفالًا. ابتسم شيخ القبيلة "تيان". أخذ قفلين من الفضة من صندوق الممتلكات. قدم واحدًا إلى "تيان كون" والآخر إلى "أبريكوت". قال:

- وفقًا لأعرافنا، يجب أن تخضع خطبتكما لجميع أنواع التقاليد المتبعة، لكننا لا نحتاج لها اليوم، أقدم لكما هذين القفلين لتتبادلاها، لتحفظا حُبَّكما.

ساعدتهما زوجة شيخ القبيلة - والدموع في عينيها - لوضع الأقفال على صدريهما.

كان "تيان كون" و"أبريكوت" يقفان وجهًا لوجه عندما قال شيخ القبيلة بصوتٍ عالٍ:

- فلتتناولوا الشراب!

ابتسم الجنود وتناولوا الشراب بسعادة. وعندما بدأت السعادة تعم المكان، سمعوا صرخة داخل الكهف. دخل جندي، مُغطًّى بالدماء وقال:

- ... "مو"، إن شيخ القبيلة "مو" ومعه نائب الملك وجنوده في طريقهم إلى هنا عبر الجبل.

حدَّق "تيان قاو" في "أبريكوت" بغضب ووجه سيفه نحوها قائلًا:

- كنت أعرف أنكِ نحس.

دافع "تيان كون" عن "أبريكوت" عندما هجم "تيان قاو" عليها بسيفه.

أمسك والدهما بكتف "تيان قاو" وأمره بالتوقف. ثم دعا نائب الملك إلى الكهف.

- أيها "الجنرال"، أنت ترى أن صغر الكهف وضيقه سيمنعنا من استخدام أسلحتنا بشكل جيد، إن شئت يُمكننا الاستسلام، لكنك بالفعل منهك. لماذا لا تجلس وتأخذ كأسًا في خطبة ابني؟ وسوف يكون "مو" قريبًا لأبنائي المستقبليين. وبما أنه من أرشدك إلى الكهف، فلماذا لا ندعوه للانضمام إلينا؟

أراد الجنرال الهجوم، لكنه لم يتمكَّن من رؤية من بالداخل. قال:

- حسنًا، سمعت أنك رجل صادق، وأثق أنك لن تعد لي فخًّا.

ثم طلب من شيخ القبيلة "مو" الحضور.

لطالما كان شيخ القبيلة "مو" ممتعضًا من توسيع شيخ القبيلة "تيان" لمنطقته. وفور سماعه بهروب ابنته، قرر التعاون مع نائب الملك للانتقام. لذا قاد نائب الملك وجنوده من خلال طريق سري إلى الكهف. لكن شيخ القبيلة "مو" كان رجلًا مستقيمًا، عندما تلقى الدعوة، دخل الكهف دون تردد. ملأ "تيان" كأسي نبيذ وقدمه إليه شخصيًّا وهو يدعوه:

- اشرب يا نسيبي.

- لقد أقمت هذا الحفل لطفلينا، إنه ملاذ أخير، كما أن مقابلتك أمر نادر الحدوث، أنا مسرور بحضورك.

ثم نادى على العريس والعروس:

- هيا، أسرعا لمقابلة والدكما.

فركعا معًا وقالا:

- أهلًا بك.

فلان قلب "مو" رغمًا عنه. ثم قال "تيان":

- "مو"، فلتشرب كأس النبيذ هذه، فلديَّ أمر أود مصارحتك به بعد ذلك.

سأل "مو" عن الأمر، لكن "تيان" قال:

- لا بُدَّ أن تشرب هذا النبيذ أوَّلًا.

قال "مو" بصوت مرتفع:

- كنت أود العودة إلى ابنتي اليوم، بما أننا تقابلنا، ولست خائفًا منك، حتى إن أردت حقًّا قتلي، فسيحاربك جنودي. نحن متعادلون اليوم.

ثم شرب طبق النبيذ بأكمله.

صاح "تيان":

- حسنًا، أنا لست نادمًا على إنجاب كثير من الأبناء بسببك أنت.

- ماذا تعني؟

- من اليوم، أصبح "تيان كون" بمثابة ابنك، وستحسن معاملته.

نظر "مو" إلى "تيان كون" فوجده طويلًا وسيمًا، صالحًا، وشعر أنه معجب به. لكن الأخبار كانت مفاجئة، حتى أنه لم يستطع قول "حسنًا".

لم ينتظر "تيان" وأضاف قائلًا:

- أعرف أنك تريد الإمساك بي، لكن إن وافقت على كلامي، وسمحت لهم بالعودة إلى المنزل، فسأترك سيفي وأتوجه إلى المحكمة.

تأمَّل الجنرال الموقف ثم أومأ، وقال:

- يُمكنني إخبار نائب الملك بمكانك وأضمن سلامتك.

- كلَّا، سأطمئن بنفسي على وصولهم إلى المنزل بسلام، لا يمكنك احتجازهم.

- إنك تضعني في مأزق.

- في حالة الرفض، أخشى أن جنودي سيحاربونك حتى النهاية، وسنعاني جميعًا، فلا داعي لذلك.

نظر الجنرال حوله متفحصًا جنود "تيان". كان "قاو" يقف حاملًا سيفه على أهبة الاستعداد للقتال فور إصدار الأوامر. فاستسلم في النهاية، وكتب ميثاق أمان بناءً على طلب "تيان". نظر "تيان" إلى جنوده في الكهف، وقال:

- منذ هذه اللحظة، لم يعد أحد مضطرًا إلى قتال المحكمة، ضعوا أسلحتكم وعودوا إلى منازلكم وتمتعوا بحياة آمنة.

تعجَّب الجنود وصاحوا:

- يا شيخ القبيلة!

لوَّح "تيان" بيده، وقال:

- أعتقد أن بي مزايا وعيوبًا، ربما بقدر متساوٍ، لكن ولائي للإمبراطور. وبما أنه أراد استبدال سياسة تعيين شيخ القبيلة، وفق رغبة الإدارة العليا، وقرر أن يبدأ بي، فسأحقق له هذه الأمنية. وسواء كنت مصيبًا أو مخطئًا. فلنترك الحكم للأجيال القادمة.

ثم سحب سيف حاد وتجنب النظر إلى "مو" أو الجنرال وهو يقول ببساطة:

- للأسف، رغم أن هذا سيف كان يقتل القراصنة اليابانيين وهـو في يـد أجـدادي، فإنـه صـار زينة اليوم في يدي. أردت لعقود استخدامه للإسهام في صـنع المجـد للإمبراطـور، لكـن لم تُـتح لي الفرصة. ولن تُتاح له الفرصة في المستقبل.

بالكاد بدأ صوته ينخفض عندما لمع السيف فجأةً. بدأت الـدِّماء تنسـال، ووقـع السـيف. صرخ "تيان كون" ومعه "تيان قاو":

- أبي!

وركع الجنود حزنًا.





أصبحت ثروة رئيس القرية بلا قيمة في الكهف. خرج "تيان كواي هوه" خالي اليدين، لكن هذه التجربة سوف تنفعه لأعوام عديدة.

سقط "تيان كواي هوه" نحو أعماق الكهف، تذكر ابتسـامة "بيـتش"، وألامـه الكثـيرة ومـا ندم على فعله.

وهو يفكر في إشراق الشمس والسماء الزرقاء بالخارج، تسـاءل "لمـاذا حياتنـا قصـيرة؟". في هذه اللحظة، شعر بشيءٍ مرن أسفله، وسمع صرخة.

ظن أنه سقط فوق وحش بري، لكنه شعر بملمـس القـماش، كـان الصـوت أشـبه بصـوت رجل. رغم خوفه سأل:

- هل أنت إنسان أم شبح؟

فتح الشيء فمه:

- أنت.. أنت كسرت ساقي.

لكن "تيان" كان سعيدًا، ليس فقط لكونه حيًا، لكن أيضًا لأنه وجد إنسانًا آخر هناك. كان هذا حظًا جيِّدًا. عانقه "تيان"، وقال:

- هذا أفضل من الفوز باليانصيب، من أين أنت؟ ولماذا أتيت إلى هذا الكهف؟

- "تيان كواي هوه"! لقد عرفت صوتك. أنا رئيس القرية.

تفاجأ "تيان"، وقال:

- الرئيس؟ كيف حالك؟ هل أتيت إلى هنا باحثًا عن الكنز؟ إن كنت أعرف لكنا أتينا معًـا. وما كنا لنقع في تلك الحفرة.

وبَّخه الرئيس قائلًا:

- أنت لا تعرف شيئًا، أقول جملة واحدة فتقول أنت عشرين جملـة. في الواقـع، لقـد تـم اختطافي.

حدث هذا أول أمس، كانـت الشـمس مرتفعـة وقـرر الـرئيس السـير مـن منـاجم الفحـم الصغيرة إلى المدينة لتناول الشراب. لم يكن معتادًا على الشراب، كان النبيذ قويًّا، وعنـدما مشى تحت الشمس، شعر بالدُّوار. اقتربت سيارة جيب وحُمِل إلى الجبال. ثم وضع اثنان قناعًا على وجهه وسحباه على التل. أدرك ما يحدث عندما زال عنه تأثير النبيـذ. لكنـه فشـل في الهـرب، أجلساه على الأرض وسألاه عن مكان أمواله. وعن كلمة سر حسابه البـنكي. كانـا يعرفـان أنـه يدير منجم فحم صغيرًا، وأن دخله من القرية ليس بالقليل. ومن لهجتهما، علم أنهما غريبـان عن القرية. وبينما كانا يتحدثان، كان هو يلعـن زوجتـه السـابقة التـي أخـبرت الجميـع بـأمر ثروتهما. لكنه لم يخبرهما عن ماله. لا يمكن أن يسلم جميع أمواله لمجرد تناوله بعض النبيذ.

ضرباه، لكنه لم يرفض الاعتراف بالكلمة السرية فحسب، بل رفـض الإقـرار بامتلاكـه ثـروة من الأساس. عند منتصف اليوم التالي، شعرا بالتعب، وقالا:

- حيث إنك لا تريد إخبارنا، فلا تلُمْنا على هذا.

اتضح أنهما قصدا بـ"هذا" إلقاءه في هذه الحفرة. ظن أنه مات. ورغم نجاته، فإنـه أيقـن أن بقاءه هناك ليومين وليلتين بلا ماء أو طريق للهرب، فسيموت هناك.

وحسب وصف رئيس القرية للتجربة، فقد بكى قائلًا:

- إن عادا فسأعطيهما المال، حتى بيتي وزوجتي، وإن تمكنت فقط من الخروج، فسأتخلى حتى عن منصبي.

لمس "تيان" رأسه فلم يجد حرارة. مجرد هراء يردده.

- "تيان كواي هوه"، هل لديك شيء يؤكل؟

كان يحمل بعض كعكات الذرة عندما خرج للاستكشاف، لكنه تناولها جميعًا.

صرخ رئيس القبيلة:

- لماذا أتيت إذًا؟ ليس لإنقاذي ولا حتى لإعطائي بعض الطعام!

- أنت مخطئ أيها الرئيس. عندما تموت، سيكون لك رفيق في القبر. هذه فرصة لا ينالها سوى الإمبراطور. لكن أمامك الفرصة للاستمتاع بها. يجب أن تشعر بالرضا.

صرخ به الرئيس:

- لا أريد من يصطحبني إلى الموت. أريد أن أحيا لا أن أموت.

- إن كنت لا تريد الموت، فلا توبخني ودعنا نفكر في حل آخر.

ثم صرخ فجأةً:

- آه، هناك بعض الحبوب مُخبَّأة في جيبي.

أسرع الرئيس نحوه:

- أين؟ أريد البعض..

أخذها من يديه، وأكلها، حتى القشرة. ابتلعها، وقال:

- يا إلهي! لم أتوقع أن يكونوا بتلك الحلاوة.

- إن كان لديَّ المزيد فعليك دفع المقابل.

- حسنًا. إن أنقذتني. لكان منجم الفحم الصغير لك. ولأصبحت مليونيرًا.

صرخ "تيان" فجأةً في الظلام:

- اقترب وتحسَّس هذا.

- ما هذا؟

رفض "تيان" الإدلاء بتفاصيل. لقد وجد شقًّا عرضه نصف بوصة في الحائط. كأنه سلم إلى الأعلى.

صرخ:

- يُمكننا الهروب.

لكن قبل أن يبدأ في الصعود، دفعه الرئيس، وقال:

- دعني أذهب أوَّلًا، أنا أكبر منك سنًّا.

لكنه سريعًا ما أُنهك وبدأ يشتكي:

- إنها ضيقة ولا أستطيع الدخول، حتى أنني أجد صعوبة في الوقوف عليها. لا بُدَّ أنها مزحة منك.

- من طلب منك التَّسلُّق؟ لم أنهِ حديثي والآن تلومني.

نزل الرئيس، وتمتم:

- حسنًا، سأنتظر الموت هنا. كنت محقًّا. في الماضي، عندما يموت الإمبراطور، كان يموت معه كثير من الناس. والآن حين أموت، يمكنك مرافقتي حتى لا أكون وحدي.

- حسنًا، سأسألك الآن. هل ارتكبت أفعالًا سيئة في حياتك؟

أجاب الرئيس بغضب:

- يا "تيان"! أنا أعاملك كفرد وأنت تتعامل كأنك إله؟ أنا رئيس قرية. ما الأفعال السيئة التي يمكن أن أكون قد ارتكبتها؟

- ليس لدينا ما نفعله الآن سوى التسلّي. حسب ما يعرض التليفزيون، يضطر الأجانب إلى الإدلاء باعتراف حتى للصعود إلى السماء، إن لم يفعلوا فلا يمكنهم الذهاب.

صمت الرئيس، ثم تنهَّد وقال:

- "تيان" أخشى أن تصاب بالذعر إن أخبرتك بتلك الأمور، يُمكنني قول هذا: ما فعلته لن يكفي لمعاقبتي بالإعدام، لكن ربما الحكم بالسجن مدى الحياة. مثلًا، في العام الماضي، عندما وقع حادث في المنجم الخاص بي، تُوفي اثنان من الصغار، عمرهما ستة عشر عامًا. كان خطئي أنا. كانا طالبين في المدرسة الثانوية، أتيا رغبة في كسب المال. كانا فقيرين، وكنت أعرف أن الأدوات تحتاج إلى تجديد. لم تسمح لي المقاطعة ببدء العمل، لكنني أردت كسب المال فسمحت لهما بالذهاب إلى المنجم. عندما حدث الانهيار، هرب اثنان من العمال المتمرسين، لكنهما تُوفيا. لم يُعثر على الجثتين مطلقًا. ومنذ تلك الواقعة، صرت أرى الكابوس ذاته. أرى وجهين داميين. أنا نادم على الأمر برمَّته.

صمتا لوهلة، ثم سأله "تيان":

- هل من أمر آخر؟

- رجاء، ما فائدة الحكي؟ هل تؤمن حقًّا بجنَّة بعد الموت؟

- من يعلم؟ في رأيي، أنت لا تستحق منصب الرئيس، فلم تقدم لنا أي فائدة، أصبحت قرى محيطة بنا كثيرة غنية، أما نحن فلا نزال فقراء.

- هذا ليس ذنبي..

وبينما كان يسمع "تيان" يحفر في الصخرة قال:

- مرَّت فترة دون أن أطرح أي أسئلة، لماذا جئت إلى هنا؟

- أبحث عن الكنز.

اهتم الرئيس:

- يقال إن شيخ القبيلة "تيان" ترك ثروة كبيرة في الكهف. كنت أخطط لإيجادها، لكنني لم أجد شيئًا. هل وجدت شيئًا؟

- أجل.

- أين؟

- هناك مشكلة أوَّلًا، فعلينا الخروج، إن لم نفعل، فلن يفيدنا إيجاد تل من الذهب بأيِّ شيءٍ.

- هذه وجهة نظر سديدة.

- سوف أكون صادقًا معك. لقد أتيت إلى الكهف لأجد المرأة السماوية. ألم تسمع أن بالكهف أنثى سماوية. يقال إن ابن عاق ترك والده هنا، وعاد بعد عدة أيام ليدفنه، لكنه فوجئ به حيًّا، بل وفي صحة جيِّدة. وذلك بفضل امرأة سماوية طيبة القلب، قدَّمت إلى الرجل العجوز طبقًا، وعندما يشعر بالجوع، يمكنه إيجاد الأرز في الطبق.

- هل تمزح معي يا "تيان"؟ إذا كان هذا صحيحًا فلماذا اضطر الناس إلى الزراعة على ضفتي نهر المياه العذبة، بل لقدموا إلى هنا للحصول على وجبة.

لم يرد "تيان"، فنادى:

- لماذا لا تجيب؟ أين أنت الآن؟

تلمس الرئيس المكان حوله، فلم يجد شيئًا.

- يا "كواي هوه"! هل أصبحت روحًا أو ما شابه؟

ضحك "تيان" من فوق رأسه. وقال:

- لا تناديني فهذا يربكني.

سمع الرئيس صوت "تيان" قادمًا من الأعلى.

- اسمع يا "كواي هوه"، عليك أن لا... أن لا تتركني هنا بمفردي... إن ارتكبت هذا الفعل القاسي فسيطاردك شبحي ويخنقك...

- أيها الرئيس، إن نجحت في التسلُّق إلى الخارج فعليك أن تعدني بأمر واحد. حينها سألقي إليك الحبل وأسحبك إلى الخارج.

- فلتطلب ما تشاء، المال أو منجم فحم صغير، أنا موافق.

- لا أريد تلك الأشياء، لكن أريدك أن تترك منصب رئيس القرية. أريد أن أصبح أنا الرئيس.

كان "تيان" – لحسن الحظ - محملًا بكمية كبيرة من الأسلحة، كان يحمل المسامير، وأعواد الثقاب، والحبال. لذا تسلَّق على الحائط مستخدمًا المسامير الحادة، ثم تسلَّق خطوة تلو خطوة على الشقوق. كانت الشقوق منحوتة بشكل ملتوٍ لتساعده على تسلق الحائط المبلل، ساعتها شعر بالامتنان لأجداده.

تذكر القصة التي قصها عليه جده. أخبره الجد أن أجداده هربوا من الكهف. انتحر شيخ القبيلة "تيان" أمام الجميع. طلب نائب الملك إذن الإمبراطور "تشنغ": اقترح جلد جثة "تيان" 300 جلدة ومصادرة جميع ممتلكاته، وبيع زوجاته وأبنائه رقيقًا، لكن الإمبراطور كان يرى أن "تيان" رجل قدم خدمات فائقة، لذا أمر بجنازة تليق به بدلًا من ذلك. شعرت عائلة

"تيان" بالامتنان، لكن بعد هذا العام، تغير نظام شيوخ القبيلة، وتم تعيين رؤساء الولايات والمقاطعات بأمر من المحكمة العليا.

قال الجد إن معظم أبناء "تيان" انتقلوا إلى المناطق البعيدة في "هان يانغ" و"هوانغ بوه". قدم لهم الإمبراطور منزلًا وعدة أفدنة من الأراضي الزراعية. ومن ساعتها، أصبحت منطقة نهر "المياه العذبة" سكنًا للآخرين. وحده الأمير الصغير سُمح له بالبقاء هناك، والعيش مع "أبريكوت". أنجبا خمسة أبناء وخمس بنات. أما عن الثروات، فأخبره الجد:

- إن كنت تعتقد أنها هناك، فهي هناك، إن لم تعتقد ذلك فما من ثروة، لكن في النهاية، إن وجدت دمية من الذهب فستسعدك لمدة عام، لكن ليس العمر كله.

لم يجد "كواي هوه" تلك الدُّمية، ولا حتى عملة ذهبية، لكنه وجد طريقه للعودة إلى الحياة، وآمن أن هذا أكثر قيمة من أي شيءٍ.

هكذا تمكَّن من التسلُّق إلى خارج المجرى، ووقف على حافة الحفرة. أراد الرقص والغناء، كان يعرف أن كونه حيًّا هو أكثر الأشياء إبهارًا. وعلى الفور أخذ قرارًا، من أجل نهر "المياه العذبة"، ومن أجل "بيتش"، وكل من حوله، قرر أن يحيا حياة ذات معنى.

نادى الرئيس:

- "كواي هوه".. اسحبني.

ألقى "تيان" الحبل، وسحبه بقوَّة هائلة. جلس الرئيس على الأرض وبكى بعنف.

ضحك "تيان" بحماس.

- ما الأمر يا "تيان"، هل قابلت "بوذا" الضاحك؟ ماذا يضحكك؟

شعر "تيان" فجأةً بقدسية المكان، بين الأشجار وخارجها.

- أيها الرئيس، أريد أن أكون رئيس نهر "المياه العذبة".

- هل أنت جاد حقًّا؟ كنت أمزح. ليست الرئاسة بأمر تحصل عليه بالكلام.

لم يغضب "تيان"، بل ابتسم بثقة:

- ربما لا يعتمد الأمر عليك. يجب أن أكون الرئيس، حتى وإن لم تسمح، إن لم تصدقني فيمكن لكل منا أن يحصل على فرصة. بالمناسبة، لا أعتقد أنك وزوجتك تليقان ببعضكما البعض، يجدر بك تطليقها وتركها ترحل، لتجنب المشكلات المستقبلية.

نظر إليه الرئيس، بحيرة:

- هل ترى نفسك شخصًا ذا قيمة يا "تيان"؟

تجاهله "تيان" وهو واقف على المنحدر، يضحك، ثم صرخ في الجبال المحيطة:

- أنا شخص ذو قيمة.. أنا لي قيمة.

وسافر الصوت مسافات طويلة.



شجرة الأزهار، شجرة الأزهار



لم تبكِ "تشاو نيوي" حينما ولـدت، وعنـدما صـفعت الدايـة جسـدها، في محاولـة لجعـل المولودة تبكي وتتنفس، تورد جسدها، لكنها لم تبكِ. لم تبكِ إلى أن صاح الـديك بصـوت شـجاع مدوٍّ، من موقعه داخل المنزل المستتر بحافة الجرف، مع شروق الشمس المصبوغة بحمرة مثل حمرة الدِّماء من وراء حافة الجرف، لتنتشر أشعتها الصافية في جميع الأرجاء.

أغلق "تشين لاو أر" - كاهن قرية "قوارب التنين" - عينيه، مسـتدعيًا الإلهـة السـابعة مـن السماوات، فسكنت جسده الذابل الجاف، وملأته إشراقًا وبركة. واصـل "تشـين لاو أر" إغـلاق عينيه وشدا صوته الأجش، كنداء طائر الرفراف في الصباح الباكر، وهو يتقدم بخفـة. سـمعت "السيِّدة" الموقرة – كبيرة عائلة "تيان" بكاء الرضيعة، فسألت بشغف:

- هل تستطيع الرؤية؟ هل ترى الشجرة المزهرة الخاصة بحفيدتي؟

نظرت الإلهة السـابعة بعينـين متردِّدتـين إلى السـحب الحمـراء، المحيطـة بالجبـل، حيـث تجتمع الآلهة. رأت الربيع أتيًا بعدما انتهت فـترة إقامـة الشـتاء عـلى الأرض، حيـث تفتحـت أزهار لا حصر لها بأقدار بشر لا حصر لهم، بعضهم وافر ومزدهر، والبعض ذابل وذاوٍ.

فحصت الإلهة السابعة شجرة القـدر الخاصـة بالحفيـدة. كانـت الشـجرة مغطـاة بأزهـار بيضاء، رقيقة بلورية. فإذا بشعاع أحمر لامع يمر أمام عينيها، فتغلق زهرة وردية رقيقة. قالت الإلهة لا إراديًّا:

- واحدة أخرى؟

في هذا الوقت، كانت أم الرضيعة تقف هناك، نصف ميتة، فوق حوض خشبي كبير، كان جسدها يحتاج لدعم رجل لما به من ضعف شديد، بأنين متقطع يخرج بصعوبة من حلقها، وبطنها العاي تتحرَّك لأعلى وأسفل، علامة على وجود شيءٍ ما بالداخل، شيءٍ حيٍّ، صوت حياة أخرى. أحضرت الداية العصا الخشبية التي كانوا يستخدمونها لتنظيف الملابس بالنهر وهي تتصبَّب عرقًا، استجمعت سائر قواها لتخرج هذا الطفل من بطن أمه، بالضغط على تلك العصا بينما تمرِّرها فوق بطن الأم. لم تتحمَّل "ينغ نيوي" البقاء مُكتَفة داخل ذلك الجسد الواسع الداكن من الماء، فتمدَّدت وركلت وخرجت مهرولة إلى الحوض الخشبي الملىء بالماء المختلط بالدماء، أطلقت أمها صرخة أخيرة قبل أن تسقط هامدة.

تحرَّكت الإلهة السابعة بخفَّة، وتركت جسد "تشين" ليسقط على الأرض واللعاب يسيل من فمه خلال نومه.

أيقظت الشمس الغاربة "تشين"، فسأل "السيِّدة" بصوت أجشّ:

- ماذا قالت الإلهة السابعة عن برج حفيدتكم؟

وقفت "السيِّدة" أمام "ضريح الأسلاف" في الغرفة الرئيسية بالمنزل، حاملة "تشاو نيوي" على ذراع و"ينغ نيوي" على الآخر، والألم واضح على وجهها.

هزت "السيِّدة" رأسها ولم تتكلم.

صارع والد الفتاتين الأمطار ودفن الوالدة في الجبل، ثم زرع شجرتين أمام ضريحها.

في الربيع التالي، أزهرت إحدى الشجرتين خوخًا والأخرى برقوقًا.



كانت "تشاو نيوي" أقلَّ جـمالًا مـن "ينـغ نيـوي" بدرجـة ملحوظـة، فوجـه "ينـغ نيـوي" مستدير، ورموشها كثيفة، تظهر غمَّازتان فاتنتـان بخـدَّيها حـين تضـحك، ولهـا أسـنان بيضـاء، وطبيعة مشرقة أخَّاذة.

عندما تسير الأختان معًا، يلتف الجميع حـول "ينـغ نيـوي"، يلامسـون خـديها الـورديتين، ويشتهون تذوقهما، بينما يتجاهلون "تشاو نيوي".

كان وجه "تشاو نيـوي" عاديًّـا، بـلا غـمَّازات أو رمـوش كثيفـة، وكانـت عيناهـا ضـيقتين، تحملان نظرات تأملية فاجأت سُكَّان القرية.

يقولون وهم يلمسون خدَّيها:

- تحمل الفتاة الكثير في قلبها.

تتركهم وتسير هي مبتعدة.

كبرت "تشاو نيوي" ولم تعد ترغب في السير إلى جانب أختها، والاستماع إلى مـدح الجميـع لها.

وبينما كانت "ينغ نيوي" تبحث عن المرح في القرية، كانت "تشاو نيوي" تختبئ في أركـان المنزل. لا تملك إلا بضعة كتب ومجموعة من القصص تحفظها عـن ظهـر قلـب، تحملهـا كـل صفحة إلى عالم آخر.

بعد الانتهاء من المدرسة الابتدائية، لم تستكمل "ينغ نيوي" تعليمها، بل كانت تحمل وعاءً على ظهرها لجمع "الهوجوييد"، أو البحث عن ثمار الفراولة الحمراء بين الحقول، أو الصيد عند النهر. في المقابل، كانت "تشاو نيوي" تحمل البطاطا الساخنة في صمت، وهي تسير عدة أميال إلى المدرسة الإعدادية لاستكمال دراستها، والبرد القارس يغرق الحوائط المصدعة، ويجمِّد يديها مثل الجزر. أما "السيدة"، التي كانت تستند على عكازها في طريقها إلى المدينة لتقايض البيض بالملح، فكانت تسمح لنظرتها الصارمة بالتعاطف مع "تشاو نيوي" عندما تراها تسير مرتعشة من البرد. أخبرتها أن "ينغ نيوي" تنام بجانب المدفأة، وأن عليها هي أيضًا العودة إلى المنزل. فلا ترجع قراءة الكتب على الفتيات بأي فائدة. مالت "تشاو نيوي" على ركبتي "السيِّدة" الجافتين، وهي تستنشق رائحة الخضراوات المخللة التي قضت "السيِّدة" يومها في إعدادها، ارتعشت "تشاو نيوي" وهزَّت رأسها بالرفض. تنهدت "السيِّدة" قائلة:

- وُلدت هذه الفتاة عنيدة.

هرمت "السيِّدة" كثيرًا خلال فصل ربيع واحد. وما دامت هناك شمس ساطعة، لم تكن تفعل شيئًا سوى الجلوس على العتبة أسفل "الإفريز" والغفو، أو جمع "تشاو نيوي" و"ينغ نيوي" معًا لتفحصهما. كانت تقول:

- فتياتي!

وتكمل:

- لا يمكن للفتيات البقاء هكذا بعد أن يكبرن، ستأتي الخاطبات قريبًا.

بدا للجميع أن العريس الأفضل كان شابًا من خارج المدينة، يعمل خيَّاطًا، يُدعى "ليو بينغ وا"، صاحب حرفة، ليس طويلًا أو قصيرًا، كان قد باع لهم الملابس من قبل، يصنع البنطالات الغربية السوداء، يتميز بحياكة متقنة على

الأقدام، يصنع الخطوط كأنها من صنع نملة. قالت "السيِّدة" إنـه مـن النـوع الـذي يسـتطيع الإنفاق على بيته، ونظرت إلى "ينغ نيوي" وهي تبصق الحبوب.

قالت "ينغ نيوي":

- من المفترض البدء بالابنة الكبرى.

فتحولت "السيِّدة" بنظرها إلى "تشاو نيوي" دون تردُّد.

جلست "تشاو نيوي" غير مكترثة تحت شمس الربيع، بوجه شاحب. كانت الجبال العالية المظلمة تحيط بالمدينة، وتتسلل الشمس من فوقها لتضيء حقولًا خضراء، وزهور نبات اللفت الذهبية، بينما يشق والدهما طريقه نحو حقـول الـذرة. وعصـا الـروث عـلى كتفـه. والربـاط الأزرق حول عنقه مبلل بالعرق.

قالت "السيدة":

- "تشاو نيوي"، لقد أنهيتِ دراستكِ الثانوية بتفوق، وتغيبتِ عن المنزل لمدة تقـترب مـن العامين حتى الآن، يتوجب عليكِ الآن إنشاء بيت لكِ.

أشاحت "تشاو نيوي" بوجهها، وقالت مؤكدة:

- سأذهب إلى شيخ القرية يا سيدتي.

اندهشت "السيدة".

- ولِمَ ذلك؟

قالت "ينغ نيوي":

- "تشاو نيوي" محقة، تحتاج القرية إلى شخص يصلح للتدريس.

لم تفكر "السيِّدة" في ذلـك، استسـلمت إلى أفكارهـا، وتركـت الشـمس ترسـم مزيـدًا مـن التجاعيد على وجهها.

- تعرفين أن عائلتنا تتميز بالشجاعة يا "تشاو نيوي".

أيدت "تشاو نيوي" ذلك، فأكملت "السيدة":

- لم نحتج قط إلى التوسُّل لطلب العون.

- لن أتوسَّل، لا أريد إلا الحصول على ما أستحقه.

تفرق المزارعون مع الغروب، بعد أن فترت حماستهم، واتجهوا إلى منازلهم، وتصاعدت الأدخنة من مداخن المنازل.

حدقت "السيِّدة" بعينين نصف مغلقتين فرأت صورة واهنة لظل "تشاو نيوي" تعبر حقل اللفت وذراعاها الرشيقان تتحركان بجانبها حتى اختفت.

قضت "السيِّدة" قيلولتها. وبينما يتناول المزارعون الغداء، ويتحركون نحو الحقول، كانت "تشاو نيوي" تمشي بين حقول الأرز، ترتدي قميصًا أبيضَ مزرقشًا ضيقًا، يكشف عن تفاصيل جسدها، وقطرات العرق الصغيرة تتعلق بأنفها، وخدودها متوردة.

تفهمت "السيِّدة" الأمر، ونادت "ينغ نيوي" تطلب كوبًا من الشاي.

- لا تحتمل الحياة هذا التعقيد يا "تشاو نيوي"، لستِ مضطرة إلى كل هذا العناد.

أجابت "تشاو نيوي" وهي تمسح العرق:

- سوف أذهب إلى المدينة غدًا.

- إلى المدينة؟

- لمقابلة الزعيم.

فجأةً، ظهر الأب أمامها.

- تظنينه أمرًا سهلًا، أليس كذلك؟

قالها وهو ينزل عامود السماد من على كتفه.

في اليوم الخامس من الشهر القمري، أخذ الأب "تشاو نيوي" و"ينغ نيوي" إلى أسواق المدينة، فلفتتا أنظار الجميع، كأنه يحمل زهرتين في منديله. امتص الأب النظرات الحاقدة، وسار بوقار واضعًا يديه خلف ظهره.

من حسن الحظ أنهم حينما وصلوا إلى أحجار مدخل السوق، سمعوا الجميع يحيُّون القائد واحدًا تلو الآخر. وهو يسير في طريقه الذي يقسم الحشد إلى نصفين.

توقَّف الأب ونادى القائد. تفحَّص القائد الحشد المصطف على جانبي الطريق، مثل دجاجة تنقر الحب، وأومأ برأسه مع دعوات الناس، وهو يعقد ذراعيه خلف ظهره.

تأمَّلته "تشاو نيوي" لأول مرة، بدا في الثلاثين من عمره، يرتدي زيًا باللون الأصفر القاتم. كان شعره مصففًا بعناية، مفروقًا من المنتصف، كاشفًا عن فروة رأس شاحبة خفيفة. ولكن أبرز ما بوجهه كانت النظارات التي تحتل وجهه الرفيع، مثل معلم المدرسة. تابع الأب القائد قليلًا، وهو يبتعد، وتنهَّد قائلًا:

- "تشو قوه تساي"! يا له من رجل!

في المجالس الخاصة، كان الأب - مثل سائر سُكَّان قرية "قوارب التنين" - يذكر القائد باسمه بدلًا من لقبه، بنبرة من المودة الحميمة في صوته.

قال الأب إن القائد كان "شخصًا" أتى من عائلة قليلة الحظ، لم يعرف أخوته الأربعة سوى العمل الشاق حتى الموت، لكنَّ القائد كان ذكيًا، درس وتعلَّم، حتى أصبح ما هو عليه اليوم. إنه يحمل مسؤولية سبعة أو ثمانية آلاف من الناس. ألا يستحق ذلك الإعجاب؟

- سبعة أو ثمانية آلاف، ألا تظنين أن..

- أبي، لا داعٍ لقول المزيد، أنا ذاهبة على أي حال.

قالت "تشاو نيوي" ذلك فتنهَّدت "السيدة".

أحاطت "ينغ نيوي" أختها بذراعيها، وتنفست الهواء الدافئ في وجهها، وهي تقول:

- سأذهب معكِ.

وفي اليوم التالي، رحلتا بالفعل. تبخرت الأميال مثل الدخان حتى وصلتا إلى المدينة. تحتل حكومة المدينة مبنى من طابقين، جدرانه بلون الأرض، وأرضياته سوداء. يقف المبنى عاليًا، مثل رجل أصفر الوجه، يتطلع بوجه خالٍ من التعبير إلى التلال خلف المدينة.

كانت "تشاو نيوي" و"ينغ نيوي" تتصببان عرقًا عندما دخلتا المبنى. أزعجت أنفيهما رائحة حادَّة. كانت الأروقة ممتلئة بأكوام من الحقائب البلاستيكية الداكنة المملوءة بسماد الأمونيا. سمعتا شخصًا يصيح بأن الأجتماع قد بدأ، فشرع الناس يخرجون من الغرف الواقعة على جانبي الممر، في مجموعات من اثنين أو ثلاثة، يحملون أدوات مكتبية وأكواب شاي، ويتوجهون جميعًا إلى الطابق الأعلى. ظهر القائد لوهلة في الممر، بوجه متوتر.

استجمعت "تشاو نيوي" شجاعتها، ونادت عليه، لكنه لم يلتفت.

- هل تظنين أنه سمعني يا "ينغ نيوي"؟

أمالت "ينغ نيوي" رأسها ونظرت إلى حوائط الممر المزينة ببهرجة.

- ربما لم يسمعكِ، فصوتك مثل طنين الذبابة، يصعب ملاحظته.

- هراء، لقد ناديت بصوت مرتفع.

اكتفت "ينغ نيوي" بالابتسام.

مرَّت دقيقة أخرى، وخفتت أصوات الأقدام والمحادثات بالأعلى، لم يبقَ سوى صوت القائد وهو يتحدث، ببطء ووضوح. كان حديثه يريح الأعصاب مثل مياه نهر "قوارب التنين". يتحرَّك إلى الأمام ببُطءٍ.

أصاب الاستماع "ينغ نيوي" بالملل.

- قدماي تؤلمانني يا "تشاو نيوي"، لماذا لا نتجول في المدينة ونعود لاحقًا؟

تردَّدت "تشاو نيوي":

- ماذا لو انتهى الاجتماع فور مغادرتنا؟

خرجت الفتاتان إلى الميدان أمام مبنى الحكومة. جلستا على الأحجار وتأملتا المدينة. تمتـد شوارع المدينة مثل غصون "البونساي". بُنيت المدينة بين أحضان الجبال. وتمركزت على طريـق طويل من الألواح الحجرية. قيل إنه شُيد في عصر الإمبراطور "تشينغ يونغ تشنغ"، كـان البُنـاة يأخذون الأحجار من الجبـال الغربيـة، ويقومـون بصـقلها إلى أن تصبح مثـل المـرآة، حتـى لا تتلوث بالطين في الأمطار ولا بالتراب في الأيام الحارة. على جانبي شارع الجسر الحجـري، تقـع صفوف من البيوت الخشبية، والمحال المُشيَّدة بألواح خشـبية قابلـة للإزالـة. في أيـام السـوق، يقطع آلاف البشر هـذا الطريـق وينـتشرون داخـل المدينـة، فيملـؤون الطرقـات مثـل النحـل المجتمع حول زهرة. وينصبون البضاعة، ويبيعون البيض، واللحم المجفـف، والتبـغ، والملابـس. كانوا يحملون السِّلال على ظهورهم وهـم يتجوَّلـون، أو يسـتخدمون الحبـال العشـبية لـربط الخرفان والخنازير، التي تسير خلفهـم باستسـلام. كانـت وجـوههم الحيوانيـة تشـبه وجوهًـا تحاول الحفاظ على ذلك الدخل الثابت الذي يوفر لهم شيئًا من الكرامـة رغـم أن ذلـك يهـين كرامتهم في الوقت نفسه.

وجدت "ينغ نيوي" بعض قطع المكسرات داخل حقيبتها. وبعد وقت قليل، وجدت على الأرض حجرًا في حجم قبضة اليد، استخدمته بحرص لكسر المكسرات، وأزاحت القشرة، ثم أكلتها قطعة تلو الأخرى.

- كم من الوقت سنبقى هنا، يا "تشاو نيوي"؟

أجابتها "تشاو نيوي":

- لا بُدَّ أن يخرج في النهاية.

علقت "ينغ نيوي":

- في الواقع، لا أرى شيئًا مثيرًا في مهنة المعلم، فهم يجنون القليل من المال، لا يتعدَّى دخلهم المئة يوان شهريًا، ومع ذلك يخضعون إلى مراقبة وإشراف يومي، من الأفضل ممارسة التجارة في المدينة، انظري إلى هذا المبنى ذي الطابع الغربي، الذي تملكه عائلة "جيوي تسي" زميلتنا في المدرسة. مارس والدها التجارة في المدينة لعامين فقط، لكنه جنى ثروة من ذلك.

أشارت "ينغ نيوي" إلى مبنى من ثلاثة طوابق، مصنوع من الصلب، وله شرفة تطل على مدخل المدينة. كان مطليًا بالأبيض ومغطًّى بأكوام من البلاستيك الأخضر، يعلو المباني الخشبية المجاورة له بكثير. كان يقف هناك مثل نجم، مثل شخصية شهيرة على خشبة مسرح، في ملابس لا يمكن لمعجبيها أبدًا شراؤها.

قالت "ينغ نيوي":

- تملك عائلة "جيوي تسي" كل شيءٍ.

ظلت "تشاو نيوي" صامتة، تستمع إلى الأصوات بالأعلى، أناس يتحدثون ويسعلون. فجأة، بدأ الناس في الهبوط، ووقفت هي، تنظر بلا حيلة إلى وجوه

الجموع وهي تمر أمامها. ظلَّت منتظرة دون أن يظهر للقائد أثر. فصعدت السُلَّم وهي تقول لـ"ينغ نيوي" بأن تلحق بها.

وهناك، بين الهواء المُحمَّل بالدخان بداخل غرفة الاجتماع، بنهاية الممر، لمحت القائد. كان يجلس فوق المنصة بمفرده، يستند إلى الخلف، رافعًا قدميه على كرسي أمامه، ووجهه الرفيع شاردًا في أفكاره.

نادت عليه "تشاو نيوي" ففوجئ، وأنزل قدميه، وتلفت ليبصر محدثه بفم مفتوح.

تقدَّمت "تشاو نيوي" – وهي تسحب "ينجنبو" معها - وخطيبته مرَّة أخرى.

كان وجهه جافًّا.

- ما الأمر؟

- جئت لأناقشك في أمر ما.

أشاح القائد بنظره، متجاهلًا وجود الفتاتين، ووقف ليتناول كوب شاي نصف ممتلئ من فوق المائدة.

- إن كان لديكما مشكلة فعليكما التوجُّه إلى رابطة المرأة أوَّلًا، إنها بالأسفل. فلديَّ الكثير لأقوم به.

- استمع إليها أيها القائد، أرجوك.

قال القائد وهو يهم بالمغادرة:

- لديَّ اجتماع بعد دقائق، لما لا تتوجهان إلى رابطة المرأة؟

وأعقبه بالتوجه إلى الأسفل مسرعًا.

ذُهلت "تشاو نيوي" وهي تشاهده يرحل، ترقرقت الدموع في عينيها رغمًا عنها، فسحبتها "ينغ نيوي" بعيدًا وقالت بصوت غاضب:

- هيَّا لنذهب. أى نوع من الرجال هذا؟ أهذا هو القائد حقًّا؟

كان الغروب خلَّابًا ذلك اليوم، الأشجار فوق الجبل مزينة بورد أحمر، كأنها شعلات موقدة، تجذب الأعين ثم تحرقها. والطريق المؤدي إلى خارج المدينة يبدو دقيقًا مثل سيقان العنكبوت. بقيت "تشاو نيوي" صامتة وهي تتبع "ينغ نيوي" إلى خارج المدينة، لكنها فجأةً نادت:

- "ينغ نيوي"، هل يجب أن نعود؟

-ألا تزالين راغبة في مقابلة القائد؟ فلتذهبي وحدكِ هذه المرَّة!

استدارت "ينغ نيوي" بوجه حانق وابتعدت، بينما عادت "تشاو نيوي" إلى مبنى الحكومة بمفردها، فلما بلغت أحجار المدخل جلست. وحينما كان الشفق يتوارى في الأسفل، كانت الأصوات في الأعلى تعلو وتنخفض. سمعت "تشاو نيوي" رنين الجرس الرتيب يعلو في السماء، لعلَّه جرس مدرسة المدينة، أو غرفة الطعام الخاصة بالحكومة. وراحت ظلال البشر تغدو وتروح، هناك أمام عينيها.

وقفت "تشاو نيوي" بثبات والتفتت، ثم ثبتت نظرها على المشهد البعيد، هناك كانت حواف الجبال تزداد ظلمة، فتبدو جوانبها منحوتة كالصخور. ارتفع القمر، رفيعًا بين السحب، ولسبب ما أثار فيها ذلك شعورًا بالراحة.

سمعت صوت أقدام آتية من بعيد. ثم أصبحوا خلفها، وكأن الزمن لم يمر.

- ماذا تفعلين هنا؟

وقفت "تشاو نيوي" ونظرت إلى القائد.

- ما من طالب في قرية "قوارب التنين" في نهاية الثانوية بمؤهلات مثل مؤهلاتي.

وأخرجت من حقيبتها مجموعة سميكة من الشهادات.

- لقد تُوفي المعلم القديم بالمدرسة، هل يُمكنني التدريس؟

أجابها القائد بنعومة:

- هذا أمر يُفترض عرضه على رئيس القرية، كما تعرفين.

- لكن لرئيس القرية ابن، وقال إن بإمكاني أنا أو ابنه القيام بذلك، لكنه قال أيضًا إنني سأحتاج إلى الزواج بابنه أوَّلًا، إن كنت من سيتولى ذلك.

صمت القائد، وقلب شهاداتها بتركيز، ثم رفع رأسه تحت ضوء القمر، وعلى وجهه تعبير يصعب تفسيره.

- فلتذهبي إلى المنزل، اذهبي.

استدارت "تشاو نيوي" وتحركت مغادرة، دون نطق كلمة واحدة، لكن صوته لحق بها.

- ما اسمكِ؟

- "تشاو نيوي تيان".

تمدَّد ظل القائد في ضوء القمر حتى وصل إلى كعبيها، فبدت كأنها تقف على كتفه.

بعد بضعة أيام، كانت "السيِّدة" تنام تحت الشمس على السلم، لكنها استيقظت على صوت نباح يختلط بصوت رئيس القرية الذي يهتف من بعيد.

- فليوقف أحدكم هذا الكلب!

صرخت "السيِّدة" بالكلب، واقترب رئيس القرية.

- هل "تشاو نيوي" بالمنزل؟

- لقد ذهبت لجمع نبات "الهرقلية" من الحقل.

فقال رئيس القرية بصوت عميق:

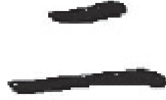
حسنًا، يبدو أنكم أقمتم مقابر العائلة في موقع مبارك، لقـد أصـبحت حفيـدتكِ معلمـة الآن.

نظرت "السيِّدة" إليه بتمعُّن، وقالت:

- لا يصح لك التصرُّف بهذا الشكل، فـ"تشاو نيوي" لم تأخذ منك شيئًا.

تطلعـت "السـيِّدة" إلى التـل البعيـد، فمـلأت شـجرتي الخـوخ والبرقـوق المثمـرتين قلبهـا بالطمأنينة.





تقع مدرسة المدينـة في خلـيج "الرمـل الأحمـر". مكوَّنـة مـن غـرفتين بـأرض مـن الـبلاط، وحوائط بلون الرمل الأحمر، وهناك ملعب من الرمل الأحمر به طوق لكرة السلة وشجرة من فصيلة الزيتونيات معلَّق عليها ساعة معدنية ضخمة.

كانت "تشاو نيوي" تقف أسفل الشجرة، أمضت عامًا في التدريس حتى الآن، وازداد جسـدها نحافة عمَّا كان، تقف بـذراعيها الطـويلتين، وأصـابعها النحيفـة، ووجهها الرقيـق شـاحب بدرجـة ملحوظة. بدت كأنها لوحة، والمدرسة هي الخلفية.

أما الأب، ومعه "ليو بينغ وا"، فتفـادى طـلاب المدرسـة وهـم يرحلـون فـور انتهـاء اليـوم الدراسي. أنارت شمس المغرب الحوائط الحمراء، وتصـاعدت خيـوط دخـان أبـيض نـاعم مـن المنازل المستترة بين أشجار البامبو، كان الطلاب مثل الطيور التي تعود إلى أعشاشها.

خجلت "تشاو نيوي"، ولامت على والدها بصوت خافت:

- لماذا أحضرت "بينغ وا" هنا؟

ابتسم الأب:

- إنه يحيك ملابس زفاف ابنة عمكِ الأكبر، ولقد سلك الطريق القريب وأراد رؤيتكِ.

لم يكن أمامها خيار سوى اصطحابهما إلى غرفتها، حيث الحوائط المُغطَّاة بأوراق الجرائد.

قدَّمت له نصف كوب من الماء المغلي، في حين أسند كوعيه على ركبتيه وخفض رأسه، ثـم شرب الماء بصوت واضح وهو يتحرك إلى الأمام والخلف خلال جلوسه بلا انقطاع.

وبينما هو يضع الكوب، بدت على جبهته قطرات صغيرة من العرق، مسحها بكفه.

قالت "تشاو نيوي":

- سيحل الظلام قريبًا، ولن يكون السفر يسيرًا، من الأفضل لكما الإسراع.

وضع "بينغ وا" حقيبة ورقية خفية أسفل وسـادة "تشـاو نيـوي"، وبعـد رحـيلهما فتشـت "تشاو نيوي" أسفل الوسادة ووجدت ساعة من ماركة "بيكين"، لها لون أبـيض خـلَّاب وجـمال مميز.

إنها تعبير عن عاطفة لا يمكنها مبادلته إيَّاها.

أسرعت "تشاو نيوي" خلف الأب و"بينغ وا"، ووضعت الساعة بيد "بينغ وا" وهي تقول:

- لقد أوقعت هذه.

ابيضَّ وجهه، كأنها وضعت بيده قطعة من الفحم المتوهج، لكنها كانت بالفعل قد رحلت ولم تنظر خلفها.

لم يكن قلبها راضيًا عـمَّا حـدث، لكنهـا لم تسـتطع تحديـد السـبب. كـان جسـدها واهنًـا وضعيفًا وهي تعود إلى المدرسة.

وعند وصولها، سمعت صوت قطع الشطرنج تتصادم في مكتب مدير المدرسة.

قفز قلبها، لقد أتى القائد بعد تناوله العشاء، ليلعب مع المدير، قاطعًا مسافة ميلين.

تكرَّرت المقابلات بصورة شبه يومية، منذ شهور وحتى الآن.

في الصيف، حينما كانت "تشاو نيـوي" تـذهب إلى المدرسـة، كـان المطـر غزيـرًا لا ينقطـع لعدَّة أيام. ملأت الأمطار الوديان بين الجبال بماء مخلوط بالطين الأصفر. فانهمرت تلـك الميـاه ودمرت نصف مراحيض المدرسة، وخرج الطلاب يسرعون وهـم يمسـكون ببنطـالاتهم ونصـف أجسادهم عارية.

كتب المدير تقريرًا، بالحبر الأسود، يطلب مئتي يوان من الحكومة.

فرد القائد:

- إنها مدرسة تابعة للقرية، لذا عليك الطلب من رئيس القرية، لماذا تطلب مني المال؟

لكنَّ المدير ألحَّ في الحصول على المال منه، حتى أصابه الغضب:

- إن الحكومة فقيرة لدرجة أنها تعجز عن شراء تليفون، فكيف لها أن توفر المال لك؟

حينئذٍ توجَّه المدير إلى "تشاو نيوي" وطلب منها رفع التقرير إلى القائد.

- لماذا تظن أن إيجاده أمر سهل بالنسبة لي؟

ابتسم المدير، قائلًا:

- ولِمَ لا يكون سهلًا؟ كيف وصلتِ إلى هنا على أي حال؟

لم تجد "تشاو نيوي" ردًا، واضطرت إلى الذهاب إلى حكومة المدينة. كانت المرة الأولى لهـا داخل مكتب القائد. غرفـة تخـدم المكتـب وغرفـة النـوم في آنٍ واحـد، بهـا مكتبتـان كبيرتـان مُعبَّأتان بالكتب المُغرية ورائحة عطر مميزة. استنشقت "تشاو نيـوي" الرائحـة فأدركـت أنهـا رائحة شامبو من نوع "فينجوا". وعندما نظرت إلى شـعر القائـد، الأسـود النـاعم، أيقنـت أنـه مغسول بشامبو لا محالة. حينها انطلقت الكلمات من فمها بسهولة.

عندما كان القائد يـزور المدرسـة في المـاضي، كـان المـدير والمعلمـون يقفـون وأيـديهم إلى جانبهم، ويتحدثون بصوت مهذب، والقائد واضـعًا ذراعيـه خلـف ظهـره، لم ينظـر إلى "تشـاو نيوي" مباشرة قط.

لكن في ذلك اليوم، كان متحمسًا بصورة مفاجئة، رحَّب بها بـدفءٍ، ودعاهـا إلى الجلـوس، ثم قدَّم لها كوبًا من الشاي القوي فواح الرائحة.

لمحت "تشاو نيوي" الأوراق المبعثرة على مكتبه، مثـل أكـوام مـن الشـعر، وحيـنما لاحـظ القائد نظرتها حاول ترتيبها.

قدمت إليه تقرير المدير، فتفحصه بنظرة موجزة.

- لماذا سمحوا لكِ بالمجيء؟

تفهَّمت "تشاو نيوي" أن سؤاله لا يحمل إهانة.

استجمعت شجاعتها، وقالت:

- أيها القائد، يمكنك القيام بشيءٍ جيِّد بمئتي يوان فقط.

وضع القائد ابتسامة زائفة على وجهه وهو يجيب:

- أجل، أنتِ تجهلين صعوبة منصبي هذا، يصل إلينا عديد من طلبات المال هنا وجميعها ضروري ومهم، لكن لا يُمكننا توفيرها جميعًا، حتى لو قمنا ببيع الحكومة ذاتها.

عندما كان القائد يتخلَّى عن الوجه الخشبي، كان يبدو ضعيفًا وبحاجة إلى مساعدة.

- حسنًا، سأتركك لتستريح.

قال بشكلٍ غير متوقع:

- ألا تحتاجين إلى المال؟

- لا تقلق، سأتحدَّث مع أبي ليبحث عن العون في القرية.

عادت الأريحية إلى وجه القائد فورًا، وردَّد:

- بالضبط، بالضبط.

وبهذه الأريحية تحدَّثا معًا، ليكتشفا أن كليهما يحب القراءة. استمعت إليه باهتمام وهو يقصُّ عليها ذكريات المدرسة، لدرجة أنها كانت تعيد كلامه عليه. لم يكن من السهل على أبناء الجبل الذهاب إلى المدرسة والتعلُّم.

التحق القائد بالمدرسة الثانوية قبل الثورة الثقافية، كانت الأحلام تملأ عقله، يحلم أن يصبح كاتبًا أو مهندسًا أو ما شابه، كان يجتهد قدر الإمكان في دراسته. وحينما يغلق نور الغرفة، كان يذهب بكل بساطة ليذاكر تحت ضوء الحمام.

لكنَّ الثورة الثقافية أنهت دراسته، ولما لم يكن يملك أي مال، لم يبقَ أمامه خيار سوى طاعة أمر الزعيم "ماو"، الذي أمر الطلاب بحمل حقائبهم على ظهورهم والتوجه إلى الريف.

نظر القائد إلى "تشاو نيوي"، بعد أن سرت الألفة بينهما، وقال:

- تبدو عليكِ نباغة المثقفين، وهذا أمر تندر رؤيته هنا.

كان شعرها مربوطًا خلف ظهرها، لم يبقَ منه غير خصال رقيقة على جبهتها، تبدو مثل طالبة من أوائل القرن العشرين.

قال القائد:

- أنتِ شجاعة حقًّا، أليس كذلك؟

- كيف؟

فأجاب:

- أنا لست أهلًا لكِ.

كان القائد يعيش في صباه في منزل من الطمي، من ثلاث غرف، ولم يكـن يسـتطيع تـوفير وجبة يومية. بكى حين وصل إلى الريف، وفي اليوم التالي، قام بمقايضة ملابسه مقابـل معطـف وصندل من القش. كان همه تغيير حال بلده الفقير. بنهاية هذا العام، كان بالكـاد قـد جمـع ثمانية وعشرين يوانًا، وتسعة أخرى للمؤن.

بالكاد كان "تشو قوه تساي" في صغره يكسب ما يقل عن يومية عامل بدرجة يسيرة.

في هذا الوقت، كان السكرتير العسكري يطلب من أحـدهم ممارسـة دور الخاطبـة، وقـام بدعوة "تشو قوه تساي" للانضمام إلى عائلته صهرًا له، على شرط عدم توريث اسم عائلة "زو" لأي من الأحفاد.

كـان للسـكرتير منـزل ضـخم لـه هيبـة، يقـف عـلى ركـائز متينـة لحمايتـه مـن الأمطـار والحشرات. أعد الطباخ مائدة لثمانية أشخاص، والفحم المتوهج يترك أثرًا ورديًّـا عـلى اللحـوم والأسماك التي تشوى باستخدامه، مزينة بطبقة من أوراق الثوم الخضراء.

لكنَّ ابنة السكرتير كانت تكبر "تشو قوه تساي" ببضعة أعوام، ولها جسـد ناضـج كجسـد سيِّدة متزوجة. كان من السهل ملاحظة صدرها وأردافها المترهلين من على بعد.

لكنَّ الذي شغل بال القائد كان تعليمها الذي توقف بعد المرحلة الابتدائية، ويقال إنها لا تعرف حتى كتابة حرف كامل. كان القائد يبدو في عين الجميع مميزًا، رغـم فقـر عائلتـه، فلـه جسد نحيل ووجه أبيض مثل مباني المدينة. بغض النظر عن ارتفاع عظـام وجنتيـه مثـل غـيره من سُكَّان الجبل.

لذا لم يتشجع للزواج من ابنة السكرتير، لكن السكرتير لم يتعجَّل الأمر، ولم يتحدَّث بالسوء عن القائد. لكن بمرور الوقت، حصل جميع الشبان الذين توجهوا إلى الريف على وظائف معلمين ومذيعين مع نهاية مرحلة الزعيم "ماو"، في حين ظل القائد في بيته الفقير، رغم سمعته كمثقف.

اسودَّ وجه والده وأخيه، مثل سماء توشك أن تمطر. صاروا يؤجلون دوره عند توزيع الطعام ويمنحونه النصيب الأصغر؛ لأنه لم يكن له مستقبل، إضافة إلى عدم زواجه من ابنة السكرتير.

لذا، ترك منزله في يوم ممطر، خالي الوفاض، واتجه مباشرة إلى منزل السكرتير، مذعنًا لأمره بعدم توريث اسم عائلته لذريته.

رُزق القائد وزوجته بذكر وأنثى، وأصبح معلمًا بصفة رسمية، ثم تم نقله إلى حكومة المدينة ليعمل ناسخًا، ثم تمت ترقيته إلى نائب قائد المدينة، ثم القائد.

"يخفي الرجل الحقيقي حزنه في قلبه"، كانت هذه الجملة مكتوبة في نهاية رواية القائد.

كتب القائد روايته بحروف صغيرة مثل تلك التي يستخدمها في الوثائق الرسمية. عندما قامت "تشاو نيوي" بقراءتها مرَّةً تلو أخرى، تمكَّنت من استجماع القصة الكاملة.

- لم أفكِّر بالأمر من قبل، أعني سبب رغبتك في مساعدتي، لكنني الآن أعرف، فقد كنت تحاول مساعدة نفسك.

- يمكنكِ قول هذا.

- في الواقع، لا يزال بإمكانك إضافة خاتمة.

تنهَّد وهو يتجنَّب نظرة "تشاو نيوي" المتفحصة.

- تبدو الحياة لي مثل نقطة في نهاية الجملة، أنا مجرد لعبة تـؤدِّي دورهـا، لكـن المشـهد والسيناريو تمت كتابتهما بالفعل.

مع ذلك، كان القائد يبتسـم أكـثر الآن، يغـير ملابسـه ويسرع إلى مدرسـة القريـة ليلعـب الشطرنج مع المدير. لكن إذا لقي "تشاو نيوي" في المدرسة كان يومئ برأسـه وينطـق كلـمات قليلة فقط.

لم تُعجب "تشاو نيوي" بهذه المراوغة، فإن كان يعرف أنه عادل وشريف ما الداعي للادعاء؟ لـذا لم تذهب إلى مبنى الحكومة لعدَّة أيام، وعندما يراها كان يسألها:

- هل توقفتِ عن القراءة؟

كان قلبها ينبض مع انعكاس الضوء على نظارته. لم تكن تتمالك نفسـها مـن التوقـف عـن زيارته لاستعارة الكتب، وإذا شرعا في الحديث لم تتمكَّن من إنهائه كذلك. لم يكن أمامها خيار سوى الاعتراف بأن في عالمها لم يكن لديها من تتحدَّث معه سواه.

لم تكن تتحدَّث خارج الفصول، لكن أمام القائد لم تسـتطع التوقـف عـن الحـديث. الحـديث معه مثل احتساء حساءٍ جيِّد المذاق، متعة تذوق شيء تتوق إليه.

لذا، سامحت القائد، ونشأ بينهما تفـاهم متبـادل. يلزمـان الصـمت والرسـمية في الشـارع والمدرسة، لكن إذا لم يكن لديه مؤتمر ليحضره كانت تذهب إلى منزله للحديث.

لكن بعد ظهور "ليو بينـغ وا" في ذلـك اليـوم أصـبحت مشـتَّتة وقلبهـا مضـطرب وبـدأت بالقلق حيال المستقبل.

عندما دخلت المدرسة في اليـوم الأول، تحمـل مـلاءات وغطـاء لسريرهـا عـلى كتفيها، وفي يديها حوض لتنظيف وجهها وقدميها، رآها معلم وتوجـه إلى المـدير. خرج المدير غير مكترث ووضح لها طبيعة عملها، وأنـه لا تـأمين لهـا لكونهـا غـير

تابعة للحكومة كما أنها ستتقاضى خمسين يوانًا، نصفها من ميزانية المدينة، والنصف الآخر من القرية، وربما تحصل على النصفين متفرقين.

- إن أردتِ تحويل مهنتكِ إلى معلمة رسمية فالفرص قليلة.

كانت عيناه تبدوان مثل بئرين جافَّتين، محاولًا إظهار الشروط بأكثر قدر من القسوة، لتنفيرها، ونقل الوظيفة إلى ابنه فيتزوجها.

سرت البرودة في جسد "تشاو نيوي" وهي تستمع إلى كلماته، لكنها لم تتراجع.

- سأقوم بالأمر.

مرَّت الأيام وبدا كأن شيئًا لن يتغيَّر في حياتها، فسبب ذلك لها القلق. كان "ليو بينغ وا" الذي يشرب شرابه بصوت عالٍ ولا يجرؤ على مخاطبتها، هو أفضل فرصها في الزواج.

كلما يأتي القائد إلى المدرسة يحيي "تشاو نيوي" بعينين باسمتين. وفي أحد الأيام، طالت زيارته إلى المدرسة دون أن يلمح "تشاو نيوي". وحين عجز عن الانتظار لمدة أطول، طلب الإذن بالغياب عن لوح الشطرنج مدَّعيًا حاجته إلى الذهاب إلى دورة المياه. وعندما رأى ضوء غرفتها منارًا، عبر ساحة المدرسة، شعر بالراحة. توجه إلى بابها بخطوات ثابتة. كانت تجلس على المائدة وشعرها الذهبي الدافئ يتلألأ تحت الضوء مثل نجوم السماء. تجمع العرق الدافئ على جبهته. سألها:

- هل تقرئين؟

- لقد جئت؟

- لمدة وجيزة.

تقدَّم وبدأ يتفحَّص كتبها بوجه يظهر عليه الاهتمام، محاولًا فتح نقاش معها، لم يكن بوسعها سوى أن تبتسم بمرارة.

وجدت نفسها تقول باندفاع دون أن تعلم السبب:

- لقد جاء والدي.

- والدكِ؟ هل من مشكلة؟

نظرت إليه مباشرة وهي تقول:

- لقد أحضر الخياط "ليو بينغ وا" معه.

تحرَّكت مُقلتاه وهو يشعل سيجارة، ويسحب منها نفسًا عميقًا.

- "ليو بينغ وا"؟ إنه رجل جيد.

حدَّقت بالقائد، وقالت بصيغة استفزازية:

- أجل هو كذلك، إنه يربح أكثر من عشرة يوانات يوميًّا، وهو ما يماثل نصف راتبي الشهري تقريبًا، أخبرتني "السيِّدة" أنني إن تزوجته فسأعيش حياة سعيدة، رغدة، خالية من القلق.

بينما اندفعت "تشاو نيوي" تتحدَّث بغضب، كانت السيجارة المشتعلة في يد القائد قد احترقت وصارت عمودًا من الرماد، لم يلبث أن انهار.

كان وجهه مُغطًّى بقلة الحيلة. اعتصرت الخيبة قلب "تشاو نيوي"، واندفع الحب والحزن في قلبها مثل الجزر والمد حتى تحوَّلا إلى دموع في عينيها.

وقف القائد مذهولًا، وسأل "تشاو نيوي" بصوت منخفض:

- ما الأمر؟ ماذا بكِ يا "تشاو نيوي"؟

أجابته بصوت خافت:

- إنه أنت.. أنت.

احمرَّ وجهها حُمرة أحرقت الغرفة بأكملها وأذابت قلب القائد.

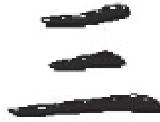
فتمتم:

- إنه خطئي.

واقترب يمسح دموعها، كان وجهها ناعمًا مثل حجر كريم، فلم يقوَ على منع نفسه من مد ذراعيه وضمها.

أحاطتها رائحة العرق والسجائر ممزوجة، فوجدت نفسها تغرق في سحابة دافئة وهي تحتضنه.





نُظِّم زواج ابنة عمِّها الكبرى بشكل جميل. ذهبت هي و"ينـغ نيـوي" لمرافقـة الشـقيقات العشر، في حين استمرَّت مراسم الزِّفاف لمدة شهر. كانت المراسم ضرورية للسيدات المنحدرات من عرق "تو چيا". يتعلَّمنها منذ نعومة أظافرهنَّ. تمكنت ابنة عمهم الكـبرى مـن غنـاء عـدَّة مئات من أبيات الشعر. في المساء، يجلـس أهـل العـروس حـول النـيران ويتبـادلون الأدوار في الغناء.

"أمي، لقد وضعت ابنتكِ

وقمتِ بتربيتها حتى ارتفعت الأشجار قبل أن تقومي بإرسالها

لكن لم يبقَ أحد ليرعاكِ

لا داعي للشكوى أيتها النساء.. إن نصيبكن غير عادل

فلن يكون هناك عالم من دون النساء

النساء

هؤلاء المعبودات في الضرائح لهنَّ كذلك جدَّات

وجدَّات للجدَّات".

تجمَّع الشبَّان أمام البيت الراسخ، يستمعون، حتى علا القمـر في السـماء، وبعـدها اسـتمروا حتى صاح الديك. كانت ابنة العم الكبرى تشعر بالشجن. أضربـت عـن الطعـام والشراب طـوال اليوم السابق للزفاف. صار خصرها نحيفًا لدرجة تمكنك من تطويقه بذراع واحد. حملهـا أخوهـا على ظهره كأنه يحمل حزمة عشب. أخـذها إلى عائلـة عريسـها دون أن تلمـس قـدماها الأرض. نظر الكاهن "تشين لاو أر" إلى شجرتها المزهرة، وقد قيل إنها أشبه بغيوم خفيفة تمـر مـن فـوق الصخور الزرقاء، وزهورها البنفسـجية متفتحـة ولهـا عطـر خفيـف. أعطـت ابنـة العـم الكـبرى لـ"تشاو نيوي" و"ينغ نيوي" صورة لها قبل زفافها، كانت تقف فيهـا أمـام البحـر الأزرق مرتديـة رداءً أبيضَ لم يشاهداها به من قبل، وعلى وجهها ابتسامة غريبة، وشعرها غـير مصـفف. لونـت الصورة بشكل واضح، حتى إذا تفحَّصتها جيدًا، يمكنك رؤية أن البحر تم رسمه على ورق مقـوَّى. التقطت الصورة في المدينة، في الإستوديو الجديد الذي قام ببنائه سُكَّان محافظة "تشـه جيـانغ". في الواقع لم تذهب ابنة عمهم إلى أبعد من المدينة في حياتها.

بعد الزِّفاف بيومين، جمعت "السيِّدة" "تشاو نيوي" و"ينغ نيوي" مرَّةً أخـرى وتفحَّصـتهما بقلق. تنهَّدت قائلة:

- يا فتيات.

ثم ظلَّت صامتة لبُرهة.

كانت الدراسة بمدرسة "تشاو نيوي" متوقفة للإجازة، فعادت إلى القرية لمسـاعدة والـدها بالحرث وقطع العشب. أصاب وجهها سمرة من الشمس. أبقـت نفسـها منشـغلة مثـل طـائر صامت. تفهمت مخاوف "السيدة"، فـ"ينغ نيوي" تقضي يومها بمنـزل "جيـوي تسي" بالمدينـة، وموعد زفاف "تشاو نيوي" لم يتم تحديده. لم يكن بوسعها إخبارها عن القائد. منذ تبادلا تلك القبلة والخوف يسيطر عليهما، يختبئ كـل مـنهما مـن صـاحبه مثـل الغـزلان. تحمـرُّ "تشـاو

نيوي" خجلًا حين تلقاه، وتتمنَّى أن يقول لها شيئًا أو يبتسم. لكنـه كـان دائمًـا منشـغل، مثـل ممثل على المسرح، يمكنها رؤيته، لكـن لا يمكنهـا لمسـه. لم تشـأ أن تبـادر هـي بـالكلام. لكـن الوساوس ظلَّت ترهق ذهنها، وبدأت في فقدان الوزن.

جلست "السيِّدة" في مقعدها، يداها مثل فجلتين جافتين، شـفتاها تتمـتمان بحـديث غـير مسموع، حديث توجهه إلى نفسها. اخترقت عيناها الحائط وكـادت تـرى الضريـح عـلى جبـل "حامل الريشة". تنمو فوقه شجرتان متخمتان بالثمر مثـل الغيمـة، تسـتند كـل واحـدة عـلى الأخرى. إنهما شجرتان متحابتان، ذكر وأنثى، يعيشان معًا، ويثمران الفاكهة.

كان العثور على شجرتين قويتين مثلهما في قرية "قوارب التنـين" أمـرًا شـديد النـدرة، وكـل هذا بسبب بركة الضريح.

أما ضريح زوج "السيِّدة" فكان خاويًا، مجرد مجموعـة مـن أوراق الشـجر معقـودة عـلى رماح الصيد وحذاء من القماش. في هذا العام، تزوجت "السيِّدة" من الأخ "رونج"، وبَنَى كوخًا في الجبل. كان الأخ "رونج" يعمل لـدى السـيد "هوانـغ" مالـك الأرض، أمـا "السـيِّدة" فكانـت يتيمة. في أول زواجهما، لم يكن معهما ما يكفي حتى لشراء خيط لحياكة ثوب جديد. لم يكـن تحت جسديهما على سريرهما سوى معطف المطر المصنوع من جريد النخيل، الذي كـان الأخ "رونج" يرتديه في الحقل. لكنهما كانا سعيدين في ذلك الكوخ البسيط. يمكنهما القيام بما يحلو لهما فوق هذا المعطف طوال الليل، كان سميكًا، ويلتصق بجسديهما أحيانًا فيضفي على الأمر لهفة مضاعفة.

في إحدى الليالي، عاد الأخ "رونج" حاملًا رمح الصيد والحنق بادٍ عـلى وجهـه، وفجـأة، لم يعـد لديه وقت يمضيه مع "السيِّدة" فوق معطف المطر. قال شيئًا مـوجزًا للسـيدة، ثـم سـمعا شخصًـا ينفخ في قرن الثور، فخرج مسرعًا في الليل المظلم.

ثم حدث شيئًا لم تتمكَّن قرية "قوارب التنين" من نسيانه لعقود. اقتحم الأخ "رونج" مع جيش "خه لونغ" الأحمر منزل السيد "هوانغ". قاموا بسرقته ثم سحبوه إلى الميدان، حيث قطعوا رأسه. ترك دم السيد "هوانغ" ثلاث علامات على يد "السيدة"، قامت بغسله في النهر عشر مرَّات، مستخدمة ثمار شجرة الصابون.

بعد فترة مفعمة بالشعور بالانتصار لمقتل السيد، رحل الأخ "رونج" ليلحق بالجيش الأحمر، تاركًا "السيدة"، مع رمحه لحمايتها. في ليلة رحيله، لم يستطعا التوقف عن ملامسة بعضهما بعضًا حتى الصباح، حين اخترقت أشعَّة الشمس ثقوب السقف. دفعت "السيِّدة" الأخ "رونج" بعيدًا.

- حين يُطلق الرمح فإنه لا يعود ثانية، ماذا تنتظر؟ موتك؟

قال الأخ "رونج" وهو جالس على ركبة واحدة، يستمع إلى صوت جنينهما في الرحم:

- فلتلدي ابني وانتظري عودتي.

بعد رحيله بأيام قليلة، كانت "السيِّدة" تصارع لتلد والد "تشاو نيوي". بدأت سيمفونية نشاز من نبيح الكلاب تدوِّي في قرية "قوارب التنين" مع بكاء الصبي. قام أعداء الجيش الأحمر بسحب "السيِّدة" إلى الميدان. كانوا قد ذبحوا صيادًا يبلغ من العمر سبعين عامًا، وجعلوا من رأسه مصباحًا. كما علَّقوا رؤوس عشرات من جنود الجيش الأحمر، الذين كانوا يختبئون في الجبال، على البوابات.

تم تجريد "السيِّدة" من ملابسها مثلما يُسلخ الأرنب الأبيض، وقام سبعة أو ثمانية منهم باغتصابها بعنف، فنزفت بشدَّة دون توقُّف. لم يسع سُكَّان القرية سوى الركوع طلبًا للحماية من الإله النمر الأبيض. كانت السماء مغطاة بطبقات من السحاب السميك، جاءت من جبل "حامل الريشة". واستمر أنين النمور والفهود حتى آخر الليل.

زحفت "السيِّدة" بعيدًا عن مسرح الجريمة، تاركة خيطًا متصلًا من الدِّماء على طريق الجبال. رقدت في الكوخ مئة يوم، وأعضاؤها منتفخة ومتقيحة، بينما تفقد هي الوعي بشكل منتظم.

في اليوم المئة، أتى أحد تجار الملح، من خارج المدينة، حاملًا رسالة بأن الأخ "رونج" تُوفي عند نهر "دادو"، وهو نهر لم تسمع به من قبل.

حاولت القفز من فوق حافة الجبل، إلا أن ابنة عمها منعتها.

تجمعت السحب والغيوم فوق جبل "حامل الريشة" خلال العام. سعت الثعابين فوق الأرض الرطبة المثلجة. وجدت "السيِّدة" كوخًا واقفًا على ثوابت قوية وأصبح مأواها لأعوامٍ، جمعت الأحجار وجعلت بجانب الكوخ ضريحًا للأخ "رونج"، وضعت به متعلقاته الشخصية. تحولت وجنتاها الورديتان إلى اللون الأصفر، ثم إلى الأخضر القاتم، فقد شعرها الأسود الكثيف رونقه وتوقف عن النمو، ثم أصبح مثل العُشب الذي جف دون ماء. أصبحت تسير مثل البطة لوهن ساقيها. ثم ذهبت إلى عائلة السيد "هوانغ" بصفتها أرملة الشهيد، وأعلنت أن هذه البقعة من الأرض أصبحت ملكًا لعائلة "تيان" منذ تلك اللحظة. بدأ غضبها يقل بالتدريج، وعاد شعرها إلى رونقه بشكل مفاجئ، حتى أتت مركبة عسكرية في أحد الأيام.

وقع ذلك في اليوم السابق ليوم "مهرجان الشبح"، وهو ما صادف يوم حصاد الشعير أيضًا، حيث يتركون عيدانه تحت أشعة الشمس لتجف. أعدت "السيِّدة" الشموع ونبيذ الفاكهة بعناية، ودجاجة مسوَّاة على البخار مع خلطة من فواكة شجر شعر الغول، كانت تنوي أخذها إلى ضريح الأخ "رونج" والصلاة هناك. لم يكن هناك غير طريق واحد حينها، يمتد إلى الجبال، وكان سيئ البناء. لم يجرؤ سوى السائقين الشجعان على القيادة فوق هذا الطريق

الضيق الوعر. لهذا السبب انتبه الجيران جميعًا عند سماع بوق السيارة رباعية الدفع الخضراء هناك. وامتلأت أرض عائلة "تيان" بالناس في لحظات قليلة.

فُتح باب السيارة وخرج أوَّلًا سكرتير الفرع المحلي للحزب، منهكًا ومتوترًا، ثم تبعه رجل في معطف صوفي ثقيل أصفر. كانت عيناه قويتين لامعتين. وقف هناك، عريض المنكبين، يحمل المعطف الثقيل على كتفيه، تطلَّع إلى الجبل والأشجار. ثم عاد ينظر إلى الناس، فصاح أحدهم في صدمة:

- الأخ "رونج"!

في تلك اللحظة، كانت "السيِّدة" تضيف الحطب إلى المدفأة غير واعية بما يدور في الخارج. لكن الصياح باسم الأخ "رونج" صعقها مثل الرعد. سقط الحطب المشتعل على قدميها وتصاعد دخان أزرق من أثر الحريق. ألقت بملقاط الفحم بعيدًا، وأسرعت متعثرة إلى البوابة. وصلت في اللحظة ذاتها التي خرج فيها شخص ثالث من السيارة، كانت سيِّدة في العشرينيات من عمرها، لها خصر نحيل، ومنكبان عريضان، كانت ترتدي معطفًا رماديًّا من طراز "لينين"، ببطانة مضاعفة عند الصدر، وحذاء من القماش الأسود. تلألأ قلم في جيب معطفها، وكانت شفتاها مطليتين باللون الأحمر، تتحرَّك عيناها بفضول تحت رموشها الطويلة. مالت على الرجل وأشارت بذراعها دون اكتراث نحو الجبال البعيدة الغامضة. فجأة، لاحظ الرجل "السيِّدة" التي كانت تستند على البوابة، فأزاح ذراع المرأة سريعًا وأسرع نحو "السيِّدة" بصعوبة. بدا المنزل صغيرًا بجانب جسده الضخم. حجب عن السكان رؤية المشاعر في عيني "السيدة"، فقد أخفاها جسده الضخم تمامًا. لكن ما حدث كان صادمًا مثل الهزات الأرضية، ركع الرجل أمامها، أمام قدميها، وأمسك بيديها وبدأ يصفع وجهه بهما. نظرت "السيِّدة" بوجه يخلو من المشاعر. كانت بشعرها الجاف بسبب الحر، تبدو مثل قطعة خشب ذابل تستند على البوابة، ثم أخرج الرجل بعينين داميتين رزمة كبيرة من

المال وأعطاها إلى الأب، الذي كان يقف مذهولًا. كان الأب على وشك الزواج، وكان في حاجة ماسة إلى المال، كانت الأوراق النقدية الجديدة تفوح منها رائحة الحبر. مدَّ الأب ذراعًا مرتعشة نحو المال، لكنه لم يتوقَّع أن تهجم "السيِّدة" عليه مثل الذئب، لتأخذ المال من يده وتلقيه بعيدًا، ثم تصفعه بشدة، نزفت الدِّماء من أنف الأب وتساقطت فوق الأموال الملقاة على الأرض.

رددت سيِّدة من الخارج سلسلة من الصيحات.

قالت "السيِّدة" للرجل بفخر:

- لقد تُوفي الأخ "رونج" بالفعل، ودُفن في جبل "حامل الريشة"، حيث سأقوم بزيارة قبره غدًا.

كانت لا تزال تحمل طبق البورسلين في يدها، بداخله دجاجة.

- لا أريد رؤيتك ثانية أبدًا، ولا تفكر في التواصل مع ابني، إن جرؤت على القدوم إلى أرض عائلة "تيان" مرة أخرى فسوف أحيلك إلى أشلاء.

لم يعد الرجل مرَّة أخرى.

نظرت "السيِّدة" إلى "تشاو نيوي" و"ينغ نيوي" بشدَّة، وقالت ببُطءٍ:

- الرجال.. يا لها من مخلوقات سيئة.

لم تبتسم "السيِّدة" إلى أي رجل على الإطلاق، حتى ابنها.

كانت توبخه كثيرًا بلا سبب، أو تعاقبه لفترات طويلة. كانت له شخصية طيبة كما كان على دراية بمعاناة أمه. لذا كان دائمًا مطيعًا لها. بعد وفاة زوجته، فكر في الزواج من أخرى، لكن "السيِّدة" ثار غضبها:

- أنتم الرجال لا خير بكم، لقد توفيت زوجتك من أجلك، والآن تفكر في إهانة سيِّدة أخرى؟

فلم يجرؤ على طرح الفكرة مرَّة أخرى.

قامت "السيِّدة" بتربية الفتاتين، كانت تطعمهما بعصيدة الأرز المطبوخ، بحرص، ملعقة تلو الأخرى. كانت تحمل إحداهما على ظهرها والأخرى على ذراعيها، وتتركهما تركلان جسدها الواهن. في المساء، كانت تسمح لهما بالرضاعة من نهدها الذابل كي يتوقفا عن البكاء. كان حبها لهما فريدًا من نوعه. لم تتحمل "تشاو نيوي" رؤية القلق على وجه "السيِّدة" فكانت تغمز لـ"ينغ نيوي"، كانت "السيِّدة" تحب مرح "ينغ نيوي"، لذا كانت تتمكَّن من إخراج "السيِّدة" من قلقها.

كانت رائحة مساحيق التجميل العطرة تفوح من وجه "ينغ نيوي"، اقتربت من "السيِّدة" وهمست بصوت خافت:

- هل بإمكانكِ التوقف عن القلق يا سيدتي؟ فلا يُمكننا الشعور بالسعادة إن لم تكوني سعيدة.

احتضنت "السيِّدة" يد "ينغ نيوي" المستندة على كتفها، وقالت:

- تشبه تربية الفتاة بالإمساك بطبق من الزيت، لا يمكنكما إخفاء أمر عني، أنا أعرف أن لديكما ما يقلقكما.

فوجئت "تشاو نيوي". فأضافت "السيِّدة" تسأل:

- بماذا تفكرين مؤخرًا يا"ينغ نيوي"؟ أخبريني.

فأجابت بدلال:

- أريد من "السيِّدة" العثور على زوج لي، هل تصدقينني الآن؟

فقالت "السيدة":

- ماذا عن "ليو بينغ وا"؟

ضحكت "ينغ نيوي" وهي ترفع رأسها وتهز ذراع "السيدة".

- هذا مضحك يا سيدتي، تُريدين إعطاءه لي فقط لأن "تشاو نيوي" زهدته، ألا يوجد رجال آخرون في العالم؟

- يجب على المرأة الرضا بنصيبها.

عبست "ينغ نيوي"، بينما ظلَّت ابتسامة صغيرة تداعب غمَّازتيها.

- لماذا لا يُمكنني الحصول على ما تحصل عليه النساء الأخرى؟ لا أريد العيش مثلكِ في أرض عائلة "تيان"، أريد أن أخرج، وأعمل وأحصل على الكثير من المال، سوف أقوم بالتجارة في القماش المُحلَّى بالورد، في المتجر الخاص بي في المستقبل، سيكون هناك ورد أخضر وأحمر وأصفر على القماش، سوف أبيعه لفتيات المدينة ثم آخذ "السيِّدة" معي إلى هناك لمساعدتي في إدارة المحل، وسوف أصنع للسيدة قماشًا من الحرير مزينًا بالورد، يمكنكِ ارتداؤه وستبدين في غاية الجمال.

بينما كانت "ينغ نيوي" تتحدث، كان صوتها ينخفض أكثر فأكثر، وتكسوه نبرة حزن. أمسكت "السيِّدة" بيديها وظلت صامتة لمدة طويلة.



四

كانت "ينغ نيوي" تبكي في منتصف الليل وتوقظ "تشاو نيوي". فتعجز "تشاو نيوي" عن العودة إلى النوم وتجلس تُفكِّر في مخاوفها. وضعها كمعلمة غير رسمية، شفتا القائد، رائحة الشامبو في شعره، أشعاره.

"القمر مثل المنجل

الذكريات مثل الغيم

الألم مثل الخمر القديم

تتراكم

في القلب".

جاء البكاء من طرف السرير الآخر ليملأ أذني "تشاو نيوي". فهبت جالسة ونادت:

- ماذا بكِ يا"ينغ نيوي"؟

مدت ذراعها حتى أمسكت بيد "ينغ نيوي"، فوجدتها رطبة مثل سمكة أُخرجت لتوِّها من الماء. خافت ونادت أختها، ثم بحثت عن عود ثقاب فأشعلت مصباح الكيروسين. كانت "ينغ نيوي" تستلقي مواجهة للحائط، محتضنة كتفيها، بلا حراك، كأنها في نوم عميق. ترددت "تشاو نيوي" ثم نادتها مرَّةً أخرى.

حاولت "ينغ نيوي" الكلام، ثم أجابت:

- لا يوجد شيء يا "تشاو نيوي"، إنه مجرد حلم.

أزاحت "تشاو نيوي" وسادتها واستلقت بالقرب من أختها ثم احتضنتها، وكأنهما لا يـزالان طفلتين، شكلتا قوسًا بجسديهما. غفت "تشاو نيوي" على أنفاس أختها التي بدأت تنتظم.

عندما فتَّحت عينيها كان ضوء النهار قد سطع بالخارج، ونصف جسدها عارٍ من اللحاف. لكن لم يكن هناك أثر لأختها. كان صوت المطحنـة الحجريـة يـأتي مـن غرفـة الجنـاح. ارتـدت "تشاو نيوي" ملابسها ورأت أختها و"السيدة" تقومان بطحن الشعير. كانـت هنـاك مطحنتـان حجريتان بلون أخضر، مغطتان بالخدوش. وكان من الصعب تخمين عُمر المطحنتين، حيـث لم يبقَ سوى لوحين حجريين رفيعين فقط. كانت مقابض المطاحن الضخمة مصنوعة من الخشب الوردي القوي. كانت "ينغ نيوي" تضع قدمًا أمام الأخـرى، وتميـل بجسـدها عـلى المقـبض، في محاولة منها لدفع وجذب المقبض. وكانت "السيِّدة" تجلس في مستوى أعلى لتصب البـذور في فتحة المطحنة.

كان مشهدًا تقليديًّا، لكن "تشاو نيوي" شعرت أن هناك شيئًا غريبًا.

كانت "ينغ نيوي" تبتسم، وغمَّازاتها واضحتان، بينما تدندن بسعادة، ثم قالت:

- سيكون السوق مفتوحًا اليوم يا "تشاو نيوي"، يُمكننا الذهاب معًا بعد تناول الإفطار.

بعد الانتهاء مـن طحـن ثلاثـة أرطـال مـن الـذرة، وإطعـام الخنـازير، قامـت "تشاو نيوي" و"ينغ نيـوي" بتغيـير ملابسـهما والتوجـه إلى المدينـة سـيرًا. طلبـت مـنهما "السـيِّدة" شراء بعـض الزيـت والملـح. كـان النـاس سـعداء برؤيـة ظـلال

الشجر الأخضر السميك الذي يميز تلك الفترة من الصيف. كان عرق الفتاتين يسيل بشدَّة عندما اقتربتا من أحجار مدخل المدينة.

جلستا تحت ظل الأشجار واستخدمت "ينغ نيوي" كفَّها كمروحة، وأخرجت منديلها الزهري، لتمسح عرقها. ثم وقفت فوق الصخر لتلتقط التوت. جعل التوت شفتيها تحمرَّان بشدَّة، سألت "تشاو نيوي" إن كانت تريد بعضًا من التوت، ولكن "تشاو نيوي" كانت تخشى طعم التوت اللاذع. نظرت "تشاو نيوي" بعيدًا نحو ضريح أمها على منحنى الجبل، كانت شجرتا البرقوق والخوخ اللتان زرعهما والدها ممتلئتين بالثمار. كانت الأغصان تميل من ثقل الثمار، مثل شمسيات وردية ممتدة. تذكرت "تشاو نيوي" ما كانت تقوله "السيِّدة" عن العلاقة بين الفتاة وبين شجرتها المزهرة. بدت على وجهها ابتسامة ضعيفة. حركت رأسها، وقالت:

- كنت أتساءل يا "ينغ نيوي" عن الحلم الذي رأيتِه ليلة أمس؟

عبست "ينغ نيوي"، بينما كانت تنهي ثمرة توت، وأزاحت رأسها بارتياب، بينما لمع السائل الأحمر على شفتيها.

- لا يُمكنني إخباركِ.

- لماذا؟

- يومًا ما ستفهمين.

عندما تتذكَّر "تشاو نيوي" تلك اللحظة لاحقًا، تدرك أن أختها في وقتها ولوهلة بدت كفتاة ناضجة. فرغم كونهما توأمتين، إلا أن الجميع كان يشعر وكأن "تشاو نيوي" تكبر أختها بعدة أعوام. كانت تبدو أكثر وعيًا، وأنها تحمل هموم العالم، كما كان حديثها أكثر رصانة، يميل إلى الصمت. بينما بدت "ينغ نيوي" كفتاة ناضجة من الخارج، كان عقلها لا يزال غير واعٍ بواقع الحياة من

حولها. لكن في تلك اللحظة، رأت "تشاو نيوي" أمرًا شديد الاختلاف. عندما دخلتا المدينة قالت "ينغ نيوي" باسمة:

- أعلم أن لديكِ أمورًا للقيام بها، سوف أذهب إلى منزل "جيوي تسي" وأقوم بشراء المطلوب.

شعرت "تشاو نيوي" بالإحراج كأن أختها قد اطَّلعت على ما كان يدور بخاطرها، لكن هذا كان أمرًا مستحيلًا. ترددت "تشاو نيوي" وهي تشاهد "ينغ نيوي" تبتعد ثم تختفي وسط زحام المدينة. حتى لم يعد لها أثر في ثانية.

وكأن شيئًا لم يحدث، دخلت "ينغ نيوي" منزل "جيوي تسي" الفخم، كانت "جيوي تسي" تجلس أمام شاشة التليفزيون، تقوم بحياكة معطف، بخيط قرمزي، يتلألأ في الضوء.

- أتقومين بالحياكة يا "جيوي تسي"؟

لم ترفع "جيوي تسي" رأسها وهي تتمتم برد غير واضح، فجأةً سقطت بكرة الخيط من فوق الأريكة وتدحرجت حتى وصلت إلى أسفل الثلاجة الزيتونية اللون. التقطتها "ينغ نيوي" وقامت بتنظيفها من التراب ثم أعادتها إلى "جيوي تسي".

كان وجه "جيوي تسي" الأصفر مليئًا بالنمش، لكنها كانت ترتدي ملابس أنيقة دائمًا، أكثر أناقة من ملابس "ينغ نيوي". لم تكن تنظر إلى الناس وهي تحدثهم، وكذلك كانت تصدر صوتًا من أنفها. كان حبيبها ابن رئيس مكتب التجارة والصناعة في المدينة، يعمل محاسبًا في الفرع الخاص بالطعام. قام العم "خه" والد "جيوي تسي" بمجهودات ضخمة لترتيب الزفاف. كان رئيس لجنة الصناعة والتجارة – الذي يرتدي القبعات العريضة - يأتي إلى منزلهم من حين إلى آخر لتناول المشروبات. كان وجهه يتحول إلى اللون الأزرق وهو يشرب النبيذ. كان العم "خه" يصطحبه إلى منزله على الموتوسيكل الخاصة به.

كانت العربة الملحقة بالموتوسيكل مملوءة بالحقائب، فقد كـان العـم "خـه" يعمـل في تجـارة البضائع المنزلية. وكان يضع الرخصة الخاصة به على رفٍ عالٍ. كان يبتسم بسـعادة في صـورته في الرخصة. لكن خطيب "جيوي تسي" كان نادرًا ما يهتم بها. لم يكن يأتي لزيارتها ولـو نصـف عدد زيارات العم "خه"، وعندما كان يأتي في المرَّات النادرة، كان يـحضر معـه زجـاجتي نبيـذ، حيث دائمًا ما يكون ذلك اليوم موسم احتفالات. كان يجلس صامتًا، بوجه خالٍ من التعبيرات، منتظرًا تقديم الوجبات. كانت الوجبات تقدم على شكل مأدبة، أربعة أطباق وثمانيـة أصـناف مختلفة من الطعام، بعد تناول الطعام، يتوجهون للعب البوكر. فيقترح لعـب الــ"مـا جـونج" بدلًا من البوكر، كانت "جيـوي تسي" تـخسر دائمًـا، فيضـحك خطيبهـا بصـوت واضـح وتلتـوي شفتاه مثل منقار البطة.

ارتكبت "جيوي تسي" خطأ في الحياكة، فقد أخذت الخيط وحاولت قطعه، لكنه لم يقُطع. رأت "ينغ نيوي" السأم على وجهها، فقالت:

- لا يمكنكِ قطع هذه الخامة بتلك الطريقة.

ردَّت "جيوي تسي" بغطرسة:

- هل قمتِ بقطع خيط ثمين مثل ذلك من قبل؟

ابتسمت "ينغ نيوي" وجـال بخاطرهـا هـذا السـؤال: "مـا الـذي يجعلـكِ فخـورة هكـذا؟ أفخورة بوالدكِ؟ إنه ما يزال ملكًا لي".

وفي إحدى الأمسيات الرطبة، أجبر العم "خه" "ينغ نيوي" عـلى القيـام بـأمر ضـد رغبتهـا. كان المطر يهطل منذ خمسة أيام، وبدأ العفن الأبيض يتكوَّن في أركان المنزل. تجلس "السيِّدة" كعادتها تتمتم بكلام غير مسموع على الكرسي الأسود الكبير، بيـنما الأب يجلـس أمـام المـدفأة مع السيجارة الخاصة بـه، كـان الوقـت يمـر بـبُطءٍ مثـل امـرأة عجـوز تسـير بصـعوبة وسـط مستنقع.

نامت "ينغ نيوي" يومين، ثم استيقظت بعينين منتفختين، شعرت كأن جسدها بأكمله منتفخ، ظلَّت شاردة، لكنها لم تستطع العودة إلى النوم. فأخذت القبعة المصنوعة من البامبو من خلف الباب.

سألتها "السيدة":

- إلى أين تذهبين؟

تردَّدت "ينغ نيوي" للحظة، كانت لحظة مصادفة، لكنها حيوية.

- تقطعت جواربي، سوف أذهب لشراء زوجين جديدين.

وأضافت في النهاية:

- لا يهمني إن أمطرت.

خرجت "ينغ نيوي" مرتدية "القبعة البامبو"، وظلت تشعر بنظرة "السيِّدة" مصوبة إلى ظهرها لمدة طويلة.

توجَّهت "ينغ نيوي" مباشرة إلى المدينة، عندما وصلت كان حذاؤها قد سار ملطخًا بالوحل الأصفر، كان متجر العم "خه" الصغير يقف وحده يترنح أمام الرياح والمطر. لم تفهم العائلة في البداية سبب بنائه للمتجر في الطريق الجانبي، وليس في طريق "فلاجستون" الرئيسي الآمن. لاحقًا، لاحظ الجميع أن متجره كان أكثر ازدحامًا من الطريق الرئيسي. بعد تفكير دقيق في الأمر، اكتشفت أن السبب هو الصعوبة التي يجني بها أهل المدينة المال، لذا لا يشترون شيئًا في طريق "فلاجستون"، لكن في طريق عودتهم يندمون لعدم شرائهم أي شيءٍ. وحين يجدون متجر العم "خه"، يشترون أي شيءٍ دون المجادلة في السعر. وكأنهم وجدوا شيئًا قد فقدوه، شيئًا مُنح لهم مجاملة من شخص آخر. بالإضافة إلى ذلك، كان العم "خه" يرتدي النظارات الشمسية، ويقود

الموتوسيكل المزعج ليشتري بضائعه من ميناء نهر "ينجتزي" البعيد. فكانت بضائعه أكثر تنوعًا من غيره، مما كان يجذب الناس إليه.

كان العم "خه" يجلس وحده في متجره الصغير، يقوم بعَدِّ أوراق اللعب، أمامه زجاجة مفتوحة من نبيذ يسمى "تشو يه تشينغ" (ورق البامبو الأخضر)، يستمع إلى صوت الوحل تقلبه أقدام المارة أمام المتجر في الطريق الجانبي. نظر إليها وقال سريعًا:

- لقد أتيتِ إلى المدينة يا "ينغ نيوي"؟

نظرت "ينغ نيوي" إلى داخل المتجر وسألت إن كانت "جيوي تسي" قد وصلت. عادة ما تأتي "جيوي تسي" لمتابعة المتجر وتأتي "ينغ نيوي" لمساعدتها من حين إلى آخر.

- ذهبت "جيوي تسي" مع أمها للاحتفال بعيد ميلاد خالها، أنتِ مبللة للغاية، ما فائدة الانتظار بالخارج؟ تفضلي بالدخول، تفضلي.

كانت "قبعة البامبو" مثقوبة، تسللت المياه من خلالها وبللت شعرها الأسود الكثيف، الممتد إلى كتفيها، وجعلت نصف جسدها مُغطًّى تمامًا بالماء.

هزَّت رأسها لتنفض الماء عن القبعة، ثم دخلت. قدَّم لها العم "خه" كوبًا من الشاي مع الترمس الخاص به. ثم تناول من بين البضائع قميصًا داخليًّا أبيضَ، ومعطفًا أسودَ مُطرَّزًا بالورد الأحمر، ألقاهما على السرير ودعاها لتغيير ملابسها.

خلف الأرفف الخشبية يوجد عالم آخر، مظلم ومليء بأصوات المطر. مساحة ضيقة رطبة، أصدر صرصار صوتًا من أحد الأركان. أدركت "ينغ نيوي" أن شفتيها جافتان، ألحت عليها نفسها في العودة إلى المنزل وطلب كوب زنجبيل من الأب، ليدفئها .

لكن القميص الأبيض المُلقى على السرير بدا وكأنه يشعُّ نورًا في العتمـة، وأضـافت الـورود المطرز بها المعطف بهجة وسط الكآبة. كانت على دراية بأسعار الملابس، لم تكـن "السـيِّدة" – أو الأب – لتمنحها أكثر من عشرة يوانات لشراء الملابس. كانت فتيـات قريـة "قـوارب التنـين" تحصل على الملابس من عائلات أزواجهن أو خطابهن، عندما يقترب موسـم الأعيـاد، عـادة مـا يكون لديهن ثلاثة أو أربعة أطقم جديدة من الملابـس. بيـنما تقـتصر مسـؤولية آبـائهن عـلى المهر. ولأنها لم تكن متزوجة أو لها خطيب، لم تستطع الحصول على أي من الملابـس الجميلـة. ذات يوم قال لها العم "خه":

- لقد كنتِ زميلة لـ"جيوي تسي" في المدرسة، لذا يمكنكِ الحصول على تخفـيض يصـل إلى نصف السعر عند شراء الملابس من المتجر الخاص بي.

حينها سخرت منها "جيوي تسي" قائلة:

- لكن حتى إن تمكنتِ من شراء الملابس، لـن يكـون لـديكِ فرصـة لارتـدائها؛ لأنـكِ دائمًـا تقومين بقطع الحطب أو إطعام الخنازير.

غضبت "ينغ نيوي" بشدة، وتوقفت عن زيارة متجر "جيوي تسي" لفـترة طويلـة. قـام العـم لاحقًا بمنحها صندوقًا به أحمر شفاه وحلق من البلاستيك، وقال لها:

- أنتِ تأتين لمساعدتي كثيرًا، لذا تستحقين ذلك، كأجر لكِ مثلًا.

تـذكرت "ينـغ نيـوي" أنهـا قامـت بمسـاعدة "جيـوي تسي" بتنظيـف الأرضيـات والأرفـف فتقبلت الهدية. منذ ذلك الحين والعم "خه" مستمر في تقديم الهدايا الصغيرة لـ"ينـغ نيـوي"، وظلت هي تتقبلها بامتنان وشعور بالاستحقاق.

وبينما كانت "ينغ نيوي" تقف هناك مترددة، اقترب العم "خه"، ورائحة الخمر تفوح منه، ووضع يديه على كتفيها قائلًا:

- ألا تزالين واقفة هنا مبللة؟ لماذا لم تُبدِّلي ملابسكِ؟

لم تكن تملك إلا أن تقول لا، فدفعها قائلًا:

- ماذا تعنين بلا؟

فقدت "ينغ نيوي" اتزانها وسقطت على السرير الرطب، وهي تبكي خوفًا. تقدم العم "خه" واحتضنها، وسمعت صوتًا مكتومًا يقول لها:

- لما لا تقومين بتبديل الملابس؟ سوف أساعدكِ.

فجأةً، تمكَّن منها الخوف والغضب، تنفَّست بثقل، مثل تيار يرتفع. بدت الأرفف كأنها تميل حتى أصبحت على وشك السقوط، رأت مختلف أشكال الوحوش على ذلك السقف الحالك حتى امتلأت عيناها بالدمع.

- اتركني من فضلك يا عم "خه".

- لست العم "خه" بالنسبة لكِ، أنا أحبكِ، وسوف أقوم بإعطائكِ كل شيءٍ.

صرخت بيأس:

- فليساعدني أحد!

اختلطت دموعها بأنفاسه الكريهة.

- لست خائفًا من أي شخص قد يأتي، لن يقوى أحد على منعي.

كانت يداه قويتين مثل الصلب، قطعت أزرار قميصها وكشفت جسدها؛ لإرضاء نفسه. فقدت "ينغ نيوي" صوابها وقامت بتمزيق مفرش السرير بخطه الأحمر الدموي، وألقت بالمعطف ذي الورد الذي كان قد قدَّمه لها العم "خه" بعيدًا. أسرعت في الأمطار الغزيرة وهي تبكي بجنون. لكن "ينغ نيوي" كانت مثل غيرها من فتيات قرية "قوارب التنين"، تحزن بشدة لفقد عذريتها، لكن بمجرد هدم قلاعهن، لا يهم إن كن قد اخترن الاستسلام أم أجبرهن المعتدي

على ذلك. بالفعل قام العم "خه" بشراء قلادة ذهبية ثمينة وقدَّمها إلى "ينغ نيوي" سرًّا. غيَّر هذا نظرة "ينغ نيوي" للحدث كما غيَّر توقعاتها المستقبلية.

استمرت علاقتها بالعم "خه" لمدة عام.

سألتها "جيوي تسي":

- هل وجدت لكِ عائلتكِ زوجًا يا"ينغ نيوي"؟ أنتِ جميلة للغاية، هل تُريدين الزواج برجل من العاصمة؟

ابتسمت "ينغ نيوي" بخجل، وبلغ سمعهما صوت موتوسيكل في أثناء الحديث. عاد العم "خه" بحقائب كبيرة ممتلئة بضفادع حية. قال إنه سيقوم بإعطائها لعائلات معارفه الذين يعيشون في العاصمة. طلب من "جيوي تسي" طهوها سريعًا كي يُنهي وجبته ويتحرك نحو العاصمة في رطوبة بدايات الليل. قالت له "ينغ نيوي" سرًّا:

- لقد وعدتني باصطحابي إلى العاصمة.
- ليس اليوم، المرَّة القادمة.
- أريد الذهاب إلى العاصمة اليوم.

أجاب بشيءٍ من الغضب:

- إنني ذاهب إلى العاصمة لشراء بعض البضائع، كيف يُمكنني اصطحابكِ؟
- أريد مشاهدتك وأنت تتاجر، هذا سبب رغبتي في الذهاب.

نزع نظارته الشمسية، ونظر إليها باندهاش.

- لقد وعدت بإعطائي عشرة آلاف يوان كي أتاجر.

لم يجب العم "خه". كان الموتوسيكل ممتلئًا للغاية بحقائب الضفادع حتى لم يعد هناك مكان. فقال:

- أنصتي لي! هل يتوجَّب عليَّ اصطحابكِ أم اصطحاب الضفادع إلى هناك؟

五

بعد افتراق "تشاو نيوي" عن أختها، اتَّجهت مباشرة إلى مبنى حكومة المدينة بحماس. أصبح الشكل الخارجي المُصْفرُّ للأرض مريحًا ودافئًا. خالفت "تشاو نيوي" تعهُّدها السِّرِّي بعدم البحث عن القائد مرَّةً أخرى، وحل محله حماس متجدد للقائه. بعد قضائها معظم إجازة المدرسة في المنزل، لم تعد تريد الانخراط في أي نشاط، فقط تستعيد ذكريات أحاديثهما، مثل المذاق المُتبقي بعد تناول الزيتون.

كان يجلس بجوار التليفون، يصرخ، يطلب جمع كل من يحتاج إلى إجراء عملية في المدينة. كان يحب في هذا الشهر وضع اللمسات الأخيرة في التخطيط العائلي للمدينة، وإن لم يحضر أي من القادة، يتم خصم جزء من أرباحه. برزت العروق الزرقاء على جبهته من الغضب، بوجه نحيل وعينين محمرَّتين، أصدر صوتًا قويًّا حتى أن التليفون اهتز. بينما كان يجلس هناك غاضبًا، كان الناس يدخلون المكتب بتلقائية، يضعون مجموعات من الورق – إيصالات دفع للخشب والكيروسين والسماد.. تنتظر جميعها توقيعه. لا يترك القلم الحبر مطلقًا، وجسده دائمًا في وضع التأهب للتوقيع. يترك سن القلم بقعة عريضة من الحبر على الجريدة الموضوعة على الطاولة.

دخلت "تشاو نيوي" فأشرق وجه القائد، وهدأ حاله فورًا. نظر حوله سريعًا وعندما تأكد أن الغرفة فارغة في تلك اللحظة، أخذها سريعًا إلى غرفته. طلب منها الجلوس وسألها إن كانت تريد الشاي وبضع أسئلة رقيقة أخرى، كأنه يتعامل مع زبون.

تحدَّثت "تشاو نيوي" فجاء صوتها من بعيد:

- لقد مضى وقت طويل ولم تأتِ لزيارتي مطلقًا.

لم تتغير نظرته الودودة وهو يجيب بصوت منخفض:

- يمكنكِ رؤية مدى انشغالي هنا، لم يمر يوم عليَّ دون التفكير فيكِ، يا "تشاو نيوي"، ولكم تمنيت مجيئكِ.

نظر إلى الباب وهو يتحدث، كان مغلقًا إلى حد كبير. اقترب منها وأمسك بيديها ثم قبَّلها فجأة.

- لقد اشتقت إليكِ حتى الموت يا "تشاو نيوي".

اشتعلت جميع مشاعرها وهي تشاهده يعاود الجلوس على كرسيِّه. أراد منها الاقتراب ومداعبة شعره، الذي بدا كأنه لم يقم بغسله لعدَّة أيام، فقد كان مُغطًّى بطبقة من اللون الأصفر الرمادي. كان أمامها قائد لسبعة أو ثمانية آلاف من البشر، يزيل قناعه الذي يرتديه أمام العامة، لها فقط. شعرت بتعلق ورضا أعمق من قلبها حتى أنها لم تستطع التعبير عنه.

- كنت أنتظركِ لأخبركِ، لقد أُدرج قانون جديد يسمح للمعلمين بشكل خاص أن يصبحوا معلمين بصفة رسمية، وهناك عشرة أماكن خالية متبقية.

شعرت بحماس يجتاحها داخليًّا.

- حقًّا؟ متى؟

- قريبًا سيعيدون النظر في الأمر عندما تنتهي إجازة المدارس، لكن تأكدي أن الأمر سوف يتم دون صعوبات.

تفهم القائد مشاعرها، لكنه لم يتحدث في الأمر أكثر من ذلك، مظهرًا نوعًا من الحزم الذاتي، حزم جعل الأمر يبدو وكأنه أمر بسيط، رغم تفهمه له جيِّدًا. مما أغنى "تشاو نيوي" عن التَّحدُّث أو تحمل حرج التعبير عن مشاعرها. كانت نبيهة فشعرت بالعرفان لتصرفه ذلك. في تلك اللحظة نشبت شعلة بينهما، وشعرا كأن الغرفة تضيق ويزداد دفئها. قام القائد بغلق الباب.

كانت أصوات وقع الأقدام تأتي من الممر، عاد القائد وجلس سريعًا. لم تتوقع "تشاو نيوي" أن تتوقَّف الأصوات أمام الباب، ويدخل فتى في الثانية عشرة من عُمره تقريبًا، باحثًا عن والده. كان شعره مصففًا مثل الطلاب، يرتدي ياقة عالية حول رقبته، يتحرك بهدوء. وخلفه ظهرت سيِّدة قصيرة القامة، ممتلئة. يغطِّي شعرها وشاح أسود، تحمل نصف متر من "تبغ البامبو" الصيني المُبخر وصندوقًا على ظهرها.

فجأة، تحول وجه القائد إلى اللون القرمزي وتمتم بشيءٍ غير مسموع، وهو يدعوها إلى الدخول.

تفهَّمت "تشاو نيوي"، لكنها لم تتوقع حدوث شيءٍ، فجلست هادئة تنتظر، بينما نزعت "السيِّدة" الصندوق، ثم جلست وأراحت يديها على ركبتيها. عيناها مثبتة على ابنها فحسب.

تمنى القائد رحيل "تشاو نيوي"، لكنها جلست هناك هادئة بلا أي إشارة للرحيل.

قالت "السيِّدة" ببعض الضيق:

- أحضرت لك بعض الخضراوات المملحة.

أخرجتها من الحقيبة البلاستيكية داخل الصندوق، دون أن تنظر إليه.

على الفور، فوجئت "تشاو نيوي" بأنها تستنشق رائحة الخضراوات المملحة العائليـة، كـأن جدتها "السيِّدة" معهم في الحجرة.

قالت "السيدة":

- يقول الأب إن بإمكانك المجيء لتفحص الأمر إن كنت تملك بعض الوقت.

أجاب القائد بضيق:

- هل هناك خطب جديد؟

- كلَّا، ليس بالأمر المهم.

أخفضت رأسها وأمسكت بالغليون وبدأت تُدخِّن. كلما أخذت نفسًا، تقـوم بالبصـق عـلى الأرض، حتى أصبحت الأرض المحيطة بكرسيها مبللة.

حاول القائد إخفاء التقزُّز الذي كاد يعلو وجهه.

- من الأفضل أن تذهبي الآن، سأحضر حينما يُتاح لي بعض الوقت.

أجابت المرأة ببُطءٍ:

- حسنًا، لكن الصبي سوف يعود إلى المدرسة قريبًا، والمصاريف وخلافه..

جمع القائد ثلاثين يوانًا وقام بإعطائها لها.

- لا تسمحي لوالدكِ بإنفاقها على الشراب ثانيةً.

ابتسمت "السيِّدة" بحماقة.

راقبتها "تشاو نيوي" وهي تنحني بصعوبة لجمع صندوقها المبعثر، فأدركت أن حالها مُثير للشفقة.

يعود القائد بعد غياب عدَّة أشهر، ولليلة واحدة. وعندما يضطر أحيانًا إلى البقاء لأكثر من ليلتين، يشعر بالقلق، وتبدأ هي في محاولة إرضائه. لكنه دائمًا ما يشعر بالغربة والعداء ناحية جسدها. ذلك وفقًا لما قاله القائد، أو ما كان مكتوبًا في روايته.

لم تستوعب الأمر أبدًا، كانت حياتها شاقة، تقضيها ليلة تلو الأخرى، أمام المدفأة تقوم بالتدخين والبصق على الأرض، حتى أصبحت أسنانها سوداء من تلك العادة.

بعد هذا اليوم، قررت "تشاو نيوي" كتابة خطاب للقائد، كانت هناك فرص متاحة للقاء والتحدث، لكنها شعرت أن الخطاب سيتيح لها فرصة أكبر لتحسن التعبير والشرح. بينما كانت تكتبه، كانت شبكة النافذة تعكس ظلًا من النقوش على الورق، وكانت "السيِّدة" تجلس في الخارج تحت أشعَّة الشمس تسعل، ورائحة التربة والطين عالقة في الجبال والحقول، وتثير في "تشاو نيوي" شعورًا بالوحدة. كانت "ينغ نيوي" قد قالت لها بهدوء، إن هناك من يقولون إن القائد يذهب إلى المدرسة لرؤيتها، وإن "تشاو نيوي" تذهب إلى غرفته الخاصة ويتحدثون حتى وقت متأخر من الليل. لم يكن من السهل إنكار شيء من ذلك. انتقل الحديث من فم إلى فم، وشعرت "تشاو نيوي" أن الأمر أصبح جدِّيًا. لم تكن "تشاو نيوي" قد تعلَّمت بعد عدم الاكتراث بآراء الناس؛ لأن بوسع هذه الآراء أن تهدد مستقبلها.

قام مكتب البريد، الذي يبعد عن مبنى الحكومة بمئة متر، بإرسال الخطاب. ألصقت "تشاو نيوي" طابع البريد بإحكام، وبداخلها شعور شبه ديني . تحرَّك الخطاب بعد ثلاثة أيام.

في مساء أحد الأيام، لم تتمكَّن من تحمل الاحتمالات التي تدور في رأسها، فذهبت إلى مبنى الحكومة. كان المكان هادئًا، لم يكن هناك ضوء غير ذلك

الصادر من غرفة القائد. كان هناك زائر من الحي وكان القائد استضافه وقدم له المشروب. كانت عيناه تلمعان كأنه قام بتنظيفها. كان سعيدًا بمجيئها. كانت "تشاو نيوي" تتوقع أن يكون ذلك بداية لحديث طويل ومميز، لكنه كان سعيدًا برؤيتها، ورحب بها بعد أن أغلق الباب.

شعرت بالدوار حين قبلها، نوع من السعادة القلقة. ظنت أن هذا رد فعله لخطابها. كما تعجبت حين وجدت نفسها تفكر في ابنة عمها الكبرى، التي استعادت زوجها حين كان يفترض بها العودة إلى منزل والدها. مشى الرجل ذو العضلات الحديدية بثقة تحت أنظار سُكّان قرية "قوارب التنين". كان خبيرًا في الزراعة والحصاد، فلا يجد الناس مفرًّا غير التعليق بإعجاب:

- إنه رجل يعرف كيف يعيش حياته.

لكن ابنة عمها أخبرتها بوقوع شجار بينهما، فالعادة تقتضي تقديم زوج الابنة ساق خنزير لحماه. لكن ابنة عمها أرادت من زوجها تقديم ساق خلفية. وأصر هو على تقديم ساق أمامية. لم تجد "تشاو نيوي" عيبًا في حسابات الزوج، فهو مثل "ليو بينغ وا" الذي كان يقوم بتذكير "السيِّدة" بالجوارب الحمراء عندما يأتي من أجل البدل النايلون الحمراء. كان الضعف قد أصاب ذاكرة "السيِّدة" مع تقدمها في السن، فلم تعد تذكر أن "ليو" قد منحهم جوارب. كانت الجوارب مخبَّأة في أسفل الصندوق. أحيانًا تفكر "تشاو نيوي" في أن الحياة ستكون أسهل وأثرى إن تزوجت "ليو بينغ وا"، لكن في نهاية اليوم تجد نفسها مُغرمة بأشعار القائد.

ألقت "تشاو نيوي" نفسها على صدر القائد، بعد قبلتهما، وسألته، بلهفة بعد أن ظلَّت تترقب على مدى عدَّة أيام:

- هل وصل إليك خطابي؟

- وماذا في ذلك؟

احتضنته بقوة، وقالت:

- تحدث إليها، لكن لا تتركها جريحة...

فتمتم بشيءٍ.

كانت "تشاو نيوي" منغمسة في أفكارها.

- لا تبدو سعيدة، سيكون الطلاق في صالحها هي الأخرى.

ابتعد عنها القائد، ونظر إليها بتعجُّب:

- ماذا تقولين؟

- ألم أقل كل شيءٍ بالفعل في الخطاب؟

عجزت "تشاو نيوي" عن الفهم، فرد القائد معتذرًا:

- خطابكِ؟ لم أجد الوقت حقًّا لقراءته.

شعرت برعشة في قلبها.

- حسنًا.. فلتقرؤه الآن.

أخرج القائد الخطاب من الدرج المغلق بالمفتاح.

كان ملصقًا بكمية كبيرة من الصمغ، حتى أصبح صلبًا. نظر إليه طويلًا نظرة روتينية، ثم تنهَّد وهزَّ رأسه.

شعرت "تشاو نيوي" بالإحباط يملأ قلبها، مثل الهواء البارد تحت شمس الشتاء. شعرت بغُصَّة في حلقها.

- قلها..

- كيف لي أن أطلقها؟ لدينا طفلان، بقينا معًا لعقد أو أكثر، والآن بعد أن أصبحت قائـدًا، أتخلَّص منها؟ ماذا سيقول الناس؟ والقادة الآخرون؟ كيف يُمكنني البقاء في هذه المدينـة؟ لـن أحصل على ترقية أخرى لبقية حياتي.

- ألا تحبُّني؟

- بالطبع، بالطبع أحبكِ، كيف يُمكنني أن لا أحبُّكِ؟

واحتضنها قائلًا:

- إن كنت صحراء، لكنتِ أنتِ الربيع، إن كنت مريضًا محتضرًا، لكنتِ أنتِ الطبيب.

بدا كأنه يردِّد شعرًا رديئًا، أو نوع من البلاغة المُكررة.

دفعته بعيدًا والدموع تسيل من عينيها. فمد ذراعه بارتباك ليلمسها.

- ربما يجب أن لا أكون معـكِ، ولكننـي رجـل، رجـل مـن لحـم ودم، لا يُمكننـي مقاومـة رغبتي في تقبيلكِ، لكن لا يُمكنني تطليقها. هناك أمور كثـيرة خارجـة عـن سيطرتي، إن كنـتِ تكرهينني، يمكنكِ صفعي للتخلص من غضبكِ. ومن حسن الحـظ أننـا لم نرتكـب خطـأ كبـيرًا بعد.

تقول "السيِّدة" إن النساء يجب أن يكن راضـيات عـن حيـاتهن. وأن لا تـنسى المـرأة أمـر شجرتها المزهرة، لقد شرحت الإلهة السابعة كل شيءٍ. فأصـبح واضـحًا مثـل الكريسـتال. لكـن ماذا تعني الشجرة المزهرة بحق السماء؟ هل كانـت مزحـة مـن القـدر؟ أم هـي شخصـية في رواية تميل مع طواحين الهواء؟



六

"الجبال عالية، والطرق طويلة، وفي عتمة الليل نهرول مسرعين".

"يظهر الندى، تغرق الأحذية، نهرول إلى الأمام دون توقف، جبل، تل، جسر، علينا مواصلة التقدم، إن شئنا أم أبينا".

بدت أرض عائلة "تبان" من بعيد كحيوان ملتوٍ، إفريز البيت القائم على أعمدة ثابتة يبدو غير متناسق مقارنة بالأبنية الأخرى، في الليل الصامت. كان المنزل قديمًا ملكًا لورثة السيد "هوانغ"، لذا له تاريخ يبلغ من العمر مئات الأعوام. كانت "تشاو نيوي" تقف في الساحة الباردة، تتطلع إلى الضوء الدافئ الصادر عن مدخل المنزل. جاء صوت غير واضح، لكنه قوي، من بين الغيم الأبيض المنتشر في كل مكان، كأن الأرض والسماء تمدان أيادي لا حصر لها، فيداعبان الصمت برفق.

"نزل من السماء دخان معبّق

يدعو الإلهة السابعة للنزول إلى الأرض

وهي الآن سوف تنزل إلى الأرض

لتهتم بقصص حب الفانين".

أخذت ظلال الأشخاص الموجودين داخل المنزل ترتعش. ظل الدخان الأزرق، والأشعَة الحمراء البرتقالية، يتداخلان ويبرزان أشكال الوجوه غير المحددة. بينما مائدة سوداء تحمل شمعتين، وصحن من الأرز وبعض المال. كان جسد "تشين أر" الكبير مُغطًّى بقميص أزرق كبير من القماش. جلس أمام الطاولة على ركبتيه بعينين مغلقتين، وفي يده بخور تحترق ببُطءٍ. كان يقف على أصابع قدميه، يتمايل مثل شجرة صفصاف في مهب الريح.

جلست "السيِّدة" على كرسيها باعتدال، وهي تحيك غطاءً مُطرَّزًا بالورود الزرقاء، وعلى وجهها ملامح تدل على التركيز، وهي تعمل بيديها الجافتين مثل الفجل. كانت هناك مجموعة من سُكَّان قرية "قوارب التنين"، يرغبون في السؤال عن الأشجار المزهرة. وقفوا في ثبات مثل التماثيل. تحرَّكت الإلهة السابعة ببُطءٍ على جبل "آو هوا"، تتفحص بصبر الأشجار المزهرة التى كان السكان و"السيدة" يتساءلون عنها.

" ...هذه الفتاة عادة ما تمارس التطريز في المنزل، تقوم بالطهو وإعداد الشاي، مثل شجرة مزهرة تحسن التصرُّف، أصبح عمرها سبعة عشر، ثم ثمانية عشر، بسرعة كبيرة... "

"شجرة الأزهار هذه ليست واضحة. قالت إنها شجرة... "

فجأةً، قالت "السيدة":

- من فضلكِ أيتها الإلهة السابعة، فلتتفحصي الشجرة المزهرة الخاصة بـ"تشاو نيوي" و"ينغ نيوي".

نظرت "تشاو نيوي" بعيدًا، لا تشعر برغبة في معرفة ما قد تخبرهم به الشجرة المزهرة.

بعد انتهاء إجازة المدرسة، قام المدير، بغموض، بإخبارها بخبر تحويل المعلمين بشكل خاص إلى صفة رسمية، لكنه لم يتحدث في الأمر بالتفصيل. لم

تنم لعدَّة ليالٍ، وأصبح وجهها نحيلًا. لم تبحث عن المدير، ولم تذهب إلى مبنى الحكومة بالمدينة. قامت بتدريس فصولها في منزلها. لم تكتمل التعليقات حول القائد. سمعت باحتمال ترقيته إلى قائد منطقة مساعد، مسؤول عن الثقافة والتعليم. كانت لجنة قسم المنظمة المسؤولة عن المنطقة، قد أرسلت بالفعل أشخاصًا لمتابعته والتأكد من صلاحيته للترقية. لم يزر القائد المدرسة لمدة طويلة، لكنه طلب من المدير إعطاء "تشاو نيوي" رواية، من تأليف "شن تسونغ ون"، قال إنه يعيد إليها كتابها. لكن لم يكن هذا حقيقيًّا. كان الكتاب في الواقع ملكًا للقائد نفسه. كانت "تشاو نيوي" تفضل التقلب في سريرها دون نوم، بدلًا من الذهاب إلى مبنى الحكومة، وفي المساء، حينما لا تجد أمرًا يشغلها، تأخذ طريقها عائدة إلى منزل عائلتها.

كانت "ينغ نيوي" جالسة أمام المطحنة، من جديد، لم يكن هناك من يصب الذرة في فتحة المطحنة. فقامت هي بصب حفنة من الذرة. حاولت بجهد إدارة مقبض المطحنة، فتصببت جبهتها عرقًا. اقتربت "تشاو نيوي" وساعدتها في الطحن، وهي تقف فوق كتفها. لم تتحدث "ينغ نيوي"، كانت جميع قواها مركزة في ذراعيها، التي تحرِّك بها مقبض المطحنة. قالت "تشاو نيوي":

- لن تستمر هذه المطحنة في العمل خلال أعوام قليلة، إنها متهالكة حقًّا، يا "ينغ نيوي".

استدارت "ينغ نيوي" وقالت بابتسامة غريبة:

- إنها أفضل هكذا.

لم تقل "تشاو نيوي" شيئًا. وكذلك ظلَّت "ينغ نيوي" صامتة. واستمرت الفتاتان في الطحن في منتصف الليل.

مع بداية النهـار، بـدأت أصـوات النـاس وهـم يخرجـون مـن بيـوتهم تصـل إلى الأسـماع، وفتحت أرض عائلة "تيان" أبوابها، بينما يتصاعد الـدخان مـن غرفـة "السـيدة". بـدت وهـي جالسة في كرسيها كأنها تستغرق في نوم عميق، التجاعيد على وجهها مثل سـتار ينسـدل عـلى مسرح. كانت التجاعيد كثيرة حتى أنها غطت العلامات تحت عينيها.

مشى الأب على أطراف أصابعه، وسألها باحترام:

- أمي، هل تودِّين الذهاب إلى سريرك؟

فتَّحت عينيها بمشقة، هزَّت رأسها قائلة:

- أريد الحصول على بعض الشمس هنا.

قام الأب بحمل "السيِّدة" – التي لم يعد لها وزن – بكرسيها، وقام بوضـعهما عـلى العتبـة الزرقاء الحجرية.

سألت "السيدة":

- ماذا عن "تشاو نيوي" و"ينغ نيوي"؟

- الفتاتان هنا، تقوم "ينغ نيوي" بقطع الحطب وتقوم "تشاو نيوي" بالطهو.

قالت بعناية:

- أسرع في العثور على زوج لكل منهما، لقد تفتحت الأزهـار وعـاجلًا أم آجـلًا سـيتوجب عليهن تقديم الشكر .

كان صوتها ينم عن قلق.

- حسنًا، من الأفضل الإسراع بالأمر، أليس كذلك؟

- كل جيل مسؤول عن أبنائه، وهما بناتك، فعليك الاهتمام بالأمر.

- أعرف ذلك.

أتى كثير من سُكَّان قرية "قوارب التنـين" إلى منـزل عائلـة "تيـان"، حتـى أنهـم كـادوا يحطمـون البوابـة. قـام الأب بإعـداد بـراد الشـاي العشـبي مـرة تلـو

الأخرى. عندما رأت "تشاو نيوي" إقبال السكان، تحلى وجهها بنظرة جادة تحمل كبرياء غامضة، وكأنها ليست بشقيقة "ينغ نيوي". في هذا المساء، جاء ناسخ القرية وهو يلهث ونادى:

- "تشاو نيوي".. "تشاو نيوي".. القائد يطلب حضوركِ إلى مكتب الحكومة بالمدينة.

- لماذا؟

في الواقع، كانت عاجزة عن الكلام، لكنها لم تستطع منع نفسها من السؤال.

- لست متأكدًا، يبدو أن هناك رئيسة حي ترغب برؤيتكِ.

تعجبت "تشاو نيوي"، لكنها تبعت "السيِّدة" وهي تفكر فيما إذا كان القائد يقوم بمزحة ما.

عند الوصول إلى مكتب الحكومة، كان نظيفًا من الخارج والداخل. خرج القائد، مُبتسمًا بتحفظ، ووجه "تشاو نيوي" مباشرة إلى غرفة الطعام.

كانت هناك سيِّدة ذات شعر قصير، في الثلاثين تقريبًا من عُمرها، تجلس على المائدة.

كانت ترتدي معطفًا واقيًا من الرياح، لونه أحمر قرمزي، وتبدو متحفظة إلى حد ما.

على المائدة، ترقد دجاجة مسواة على البخار مع الشوربة، ومشروم، وبصل. إلى جانب ذلك، كانت توجد بعض شرائح الدجاج المقلية، والفجل، ولحم الغزال المدخن، ولحم الضأن، وبعض اللحم المجفف المقلي مع بعض الثوم، وأطباق جانبية عديدة من الخضراوات المملحة والفول الأسود. على رف النافذة، كان هناك صف من الزجاجات المفتوحة، والنبيذ، والبيرة، والشامبانيا، ونبيذ العنب.

- رئيسة الحي "لين"، أقدم لكِ "تشاو نيوي تيان".

وقفت "السيِّدة" فورًا وابتسمت في وجه "تشاو نيوي".

سحبتها إلى جوارها وتفحصتها عن قرب، من أعلى إلى أسفل، فامتلأ وجهها بالحماس.

- أجل، أجل.

كان رئيس المنطقة موجودًا كذلك، فقال كنوع من الترحيب:

- تفضلي، فلنأكل أوَّلًا ثم نتحدث.

قام القائد بتقديم الطعام إليهم بتواضع.

- رئيسة الحي "لين"، فلتتفضلا بالأكل أوَّلًا، هذه أفضل منتجاتنا.

تخبَّطت ساقا القائد وهو يعيد ترتيب الأطباق، واختبأ رأسه داخل ياقة ملابسه. ارتعشت عصي الأكل في يده، وكانت أصابعه قصيرة. كان رئيس المنطقة مستمتعًا بالشراب، يتحدث بسخاء، كما وضع بعض النبيذ لـ"تشاو نيوي"، وهو يقول:

- استمتاع رئيسة الحي "لين" بالشراب يعتمد عليكِ يا "تشاو نيوي".

شعرت "تشاو نيوي" بالحيرة، وتعجبت عن سبب جلوسها وتناولها الشراب مع هؤلاء الأشخاص. كل ما تمكنت من القيام به هو رسم ابتسامة على وجهها والإيماء. تفحصتها رئيسة الحي فبادلتها "تشاو نيوي" النظر دون تفحص. قالت "السيدة":

- لا داعٍ للضغط عليها، سوف أتناول نصيبها من الكحول.

قالت هذا، وأخذت الكوب من يد "تشاو نيوي" فأنهته في رشفة واحدة. ثم قامت بالتصفيق كأنها في الأوبرا. ثم وجهت حديثها إلى القائد ووجهها يحمل نظرات اهتمام صادق:

- أيها القائد، فلتحضر بعضًا من "البيانشان داقو" الخاص بك.

كان هذا نوعًا من النبيذ يُستخلص من الذرة المحلية، ويُفضل السكان المحليون اسم "جوكولار". كان مذاقها غنيًا وناعمًا، ليس أقوى من مذاق مشروب "سورغوم".

أحضر القائد زجاجة سوداء من المطبخ ووضع للجميع بعض المشروب. كانت رائحة النبيذ حادَّة. بعد أن تشاركوا تناول بضع كؤوس، قال رئيس المنطقة:

- فلنتناول ثلاث كؤوس متتالية يا رئيسة الحي.

طلبت رئيسة الحي من القائد أن يحضر كأسًا، قائلة إنه إذا كان رئيس المنطقة سيتناول المزيد فربما يتناولون جميعًا المزيد، حتى لا يهدر أي منه.

حدق رئيس المنطقة في كوبه، كان ممتلئًا حتى حافته، وكأنها بحيرة صغيرة من المشروب. ناولته رئيسة الحي إيَّاه، "فلتشرب"، بينما رئيس المنطقة يشير بيده بقلة حيلة.

- من فضلك يا رئيسة الحي، اشربي أوَّلًا، اشربي أنتِ أوَّلًا، إن تناولته أنا ولم يبقَ لكِ شيئًا لن يكون هذا جيدًا، أليس كذلك؟

تنفس من فمه وهو يقول ذلك، ثم ابتسم.

ابتسمت رئيسة الحي لـ"تشاو نيوي"، ثم وقفت وأنزلت الكأس، ثم وضعتها مقلوبةً وجلست. ذُهل رئيس المنطقة، ثم لوى عنقه ونظر إلى القائد قائلًا:

- صديقي، فلتساعدني بنصف النبيذ.

تقدم القائد ليأخذ الكوب، لكن رئيسة الحي أوقفته بوجه غير مبتسم قائلة:

- لا تفعل.

صاح السكرتير والسائق المرافقان:

- اشرب يا رئيس المنطقة، أصبحت رئيسة الحي ثملة، فماذا عنك؟

عندما لم يبقَ أمامه خيار، أجبر وجهه على الابتسام، وشرب بعضًا من النبيذ ثم أنزل الكأس. فتجعَّد وجهه مثل القرع المر. أخذ نفسًا ثم ابتلع الشراب مثل من يوشك على الانتحار. أنهى نصف الكأس ولم يقوَ على إنهاء البقية. سال النبيذ في خطين رفيعين على جانبي فمه حتى ترك علامة على ياقة قميصه.

ضحكت رئيسة الحي "لين"، ووجهت خطابها لكل من بالغرفة:

- يمكنكم جميعًا الانصراف.

حاول رئيس المنطقة الوقوف مُستندًا إلى المائدة، لكنه لم يستطع، لذا اضطر القائد إلى مساعدته وأخذه إلى الطابق الأعلى. كان جسده ثقيلًا ممتلئًا، فبدا جسد القائد النحيل كأنه غصن "بامبو" يُثنى تحته.

أخذت رئيسة الحي "تشاو نيوي" إلى غرفتها، وشعرت "تشاو نيوي" بكفوف يديها تتعرق، وشعرت بشيءٍ من القرب الغريب غير المفهوم لوهلة: شعرت كأنها تعرف رئيسة الحي لأعوام، كأنها كانت تتابعها، وكأنهما قريبتان.

ثم قالت شيئًا لم تتوقع "تشاو نيوي" سماعه مطلقًا.

- ألا تعرفين يا "تشاو نيوي" أن بيننا صلة قرابة؟

أشارت رئيسة الحي إلى جبهتها العريضة وأنفها البارز.

- أترين؟ أنا أيضًا جزء من عائلة "تيان"، أبي، أبي هو جدكِ.

七

على مائدة الإفطار، طلبت رئيسة الحي من "تشاو نيوي" بسعادة أن تناديها "العمَّة" أمام الجميع، ذُهل الجميع، وأولهم القائد ورئيس المنطقة. جاءت رئيسة الحي أمس إلى المدينة وسألت بشكل خاص عن سُكَّان أرض عائلة "تيان". وجد القائد ورئيس المنطقة غرابة في الأمر، لكن لم يتوقَّع أحد أن ينتهى الأمر هكذا. تنحدر رئيسة الحي من ثقافة ريفية، وتم تنصيبها في هذا المنصب منذ أقل من نصف عام.

كان رئيس المنطقة أوَّل من أخرج مذكرة صغيرة من جيب بدلته، كان يرغب في تدوين تليفون وعنوان رئيسة الحي، فقال:

- لم أتوقع أبدًا كونكِ من عائلة "تيان" والجيش الأحمر، "تيان" الأكبر هو فخر المنطقة الآن، والسيف الذي كان يستخدمه محفوظ الآن في المتحف، هل تعرفين ذلك؟

كان رئيس المنطقة ثملًا ليلة أمس، فترك سرير القائد في حالة يرثى لها، بعد أن أصدر أصواتًا وشخيرًا عاليًا طوال الليل. وقف القائد جانبًا، وطلب من الحضور إحضار الشاي والماء الدافئ. بينما تغمر وجهه خضرة الزيتون، وعيناه مفتوحتان بشدة. كان ينظر إلى "تشاو نيوي" كثيرًا، ويردد:

- عليكِ الاهتمام بمدينتنا في المستقبل يا رئيسة الحي، وإلا طلبنا من "تشاو نيوي" العثور عليكِ.

أصبحت "تشاو نيوي" فجأةً محل الاهتمام، وسمح لها القائد ورئيس المنطقة بالسير خلف رئيسة الحي مباشرة، ازداد الأمر وضوحًا، فأصبحا يسمحان لها بالتقدم إلى الصفوف الأمامية دائمًا. لم تحصل على مثل تلك المعاملة من قبل قط، خاصة شعورها باهتمام القائد، فوجدت نفسها تحمرّ خجلًا رغمًا عنها.

من حسن الحظ أن رئيسة الحي تناولت الإفطار قبل أن تطلب زيارة منزل "تيان". تكدسوا جميعًا في السيارة الجيب الخضراء، وطلب رئيس المنطقة من مصور يعمل في المركز الثقافي اللحاق بهم.

كان نباح الكلب مسموعًا من بعيد، والأب في الحديقة يقوم بزراعة الفجل، مُستندًا إلى عكازه، رفع رأسه عندما رأى السيارة تقترب، ثم رأى "تشاو نيوي" ورئيسة الحي تغادران منها. كانت "السيِّدة" تجلس في كرسيها دون حراك.

- سيدتي، لقد أتت العمَّة لرؤيتكِ.

- العمَّة؟

- إنها العمَّة من سلالة جدي، أتت إلى الحي لتعمل..

في تلك اللحظة، تقدمت رئيسة الحي، وهي تحمل حقيبتين من الحلوى، واقتربت من "السيدة"، قائلة:

- "مومو".

حدَّقت "السيِّدة" في جبهة رئيسة الحي بريبة، فقالت رئيسة الحي مرَّةً أخرى:

- "مومو"، لقد طلب مني أبي زيارتكِ.

حركت "السيِّدة" شفتيها دون أن يخرج صوت واضح.

- والدكِ؟

بدأ جسدها يرتعش، وضع المصور عدسته على العتبة، منتظرًا أن تميل الرئيسة على "السيدة"، أو أن تحتضنها "السيدة". لكن "السيِّدة" رغبت في الوقوف، فجأة. ألقى الأب بعكازه وأسرع إليها، احتضنها وأسرع بها إلى السرير.

كان هذا السرير خاصًا بالسيد "هوانغ" فيما مضى. كان كبيرًا، مثل منزل من الورد والنباتات. استلقت "السيِّدة" على السرير في صمت، بينما ينتظر عدد كبير من الناس في الغرفة الرئيسية والحقل. تقدم كبار السن المحنكون، وحاولوا فهم الوضع من الأب. ثم حركوا رؤوسهم في قلة حيلة وتنهَّدوا قائلين:

- للأسف، يبدو أن عليك البدء في التحضير للجنازة.

كان الأب ابنًا بارًا، فشحب وجهه عند سماع تلك الكلمات، وأخفض عينيه نحو ركبتيه، لاحظت "تشاو نيوي" على رئيسة الحي بعض علامات الأسى كذلك.

في تلك الليلة، تحدثت "تشاو نيوي" مع رئيسة الحي. كان بإمكانها رؤية ذراعيها البيضاوين بالكامل خارج اللحاف، فتنهَّدت وهي تفكر كيف أن الأب، ذا الجسد المثني المليء بالتجاعيد، يشارك العمَّة في الوالد نفسه.

- تقول "السيِّدة" إن لكل شخص شجرة مثمرة في العالم السفلي، تعبر عن قدره، إن كان هذا صحيحًا فلا بد أن قدركِ جميلًا.

اعتدلت رئيسة الحي وابتسمت:

- هل أبدو كامرأة ذات حياة جيِّدة؟ حقًّا؟ الواقع أنني أتيت إلى هنا في كرب، فلقد انفصلت عن زوجي العام الماضي، ساندت هذا الرجل بمدخراتي وعلاقاتي منذ الجامعة، منذ كان على وشك التخرج، وإلى أن سافر لاستكمال دراساته في

الخارج. لكنه انفصل عنِّي بعد أقل من عامين من سفره. كان مهذبًا وقال إن السبب هو اختلاف الشخصيات، واختلاف في الخلفية الثقافية. حتى أننا تصافحنا. حاولت التأجيل لبضعة أعوام، لكنني وافقت على الطلاق. نصحني الأصدقاء بإحداث تغيير في الجو العام من حولي، بالسفر إلى الخارج أو التوجه جنوبًا للتجارة. لكن أين يُمكنني الذهاب؟ امرأة في منتصف العُمر، فقدت جاذبيتها، ماذا أفعل إن سافرت؟ لا يحتاج إليَّ أحدهم لغسل أطباقه. ولم أرغب في التجارة لأنني لا أحتاج إلى المزيد من المال. هل أطعم رجلًا آخر؟ كنت في منصب نائب مدير السكرتارية، كان عملًا مملًا. ثم اطلعت على ذكريات أبي، وشعرت أن قرية "قوارب التنين" مثيرة للاهتمام، فتقدمت بالطلب، وتم إرسالي إلى هنا.

ثم أضافت:

- لكن المدينة تأخذني بجدية زائدة.

استيقظت "تشاو نيوي" لاحقًا في منتصف الليل. رغم أن الجميع يواجه صعوبات، لكن "تشاو نيوي" ظلَّت تشعر بالإعجاب، وحتى بالرضا تجاه العمَّة. كانت تفكر أنها لو حصلت على منصب رئيسة الحي فسوف تعمل بكد وتقدم شيئًا جيدًا لقرية "قوارب التنين". كانت حياة العمَّة مختلفة تمامًا عن حياة "السيدة".

لم تعد "ينغ نيوي" منذ الليلة الماضية. طلب الأب من "تشاو نيوي" إخراج ملابس الدفن الخاصة بـ"السيدة" من الحقيبة، كان لونها أحمر وأزرق. ثم طلب من أبناء الجيران تبليغ الرسالة. بعد الظهيرة، كانت "السيِّدة" تصدر صوت شخير في السرير، ألصق الأب و"تشاو نيوي" رأسيهما بشبكة الوقاية من الناموس، فتمكنا من رؤية "السيدة"، وهي تحاول الاستيقاظ، تحك صدرها وتحاول فتح عينيها. رفعت "تشاو نيوي" "السيِّدة" وقامت بتدليك

صدرها. بعد دقيقة، سعلت وبصقت بعض البلغم، فقام الأب بمسحه. تنفست "السيِّدة" بصعوبة، وقالت:

- أين الناس؟

سألها الأب:

- ماذا تقصدين؟

أشارت "السيِّدة" إلى الباب بذراع ضعيف، ففهمت "تشاو نيوي" وقالت:

- تقصدين الناس.. الذين أتوا للتَّوِّ؟

أومأت "السيِّدة" ببطء. ذهبت "تشاو نيوي" إلى الجناح، وطلبت من رئيسة الحي المجيء. لم يسمح لها رئيس المنطقة والقائد. لقد خشيا وقوع المزيد من المشكلات، لكن الرئيسة ضحكت، وقالت:

- إنها امرأة عجوز، ماذا يمكنها أن تفعل؟

اقتربت من السرير باحترام. رفعت "تشاو نيوي" شبكة الوقاية من الناموس فظهرت عينا "السيِّدة" العميقتان.

- أين والدكِ؟

تفاجأت رئيسة الحي، ثم أومأت وأجابت:

- إنه بخير.

سألت "السيِّدة" ببُطءٍ:

- هل ما زال حيًّا؟

- نعم، يرغب في المجيء والزيارة.

أُحبطت "السيِّدة" بعض الشيء. ثم اصطنعت ضحكة.

- إن كان حيًّا فلا يُمكنني الموت الآن.. لقد قطعت وعدًا.

ثم أضافت:

- عودي إليه وأخبريه، أنني سوف أموت بعده، لقد مات قبلي من قبل. زرت قبره لخمسين عامًا وأشعلت البخور له طوال خمسين عامًا، وسوف أشعل البخور له مرَّةً أخرى، وسوف أطلب من رجال قرية "قوارب التنين" القفز حسرة على وفاته لمدة سبعة أيام وسبع ليالٍ المرَّة القادمة.

ذُهل الجميع ووقفوا في دهشة.

تحرك صدر "السيِّدة" إلى الأعلى والأسفل، وغاص خدَّاها في وجهها الأحمر ثم خرجا، مرَّةً تلو الأخرى.

عجزت رئيسة الحي عن الحديث، وانحنت لـ"تاي" ثم ابتعدت ببُطءٍ.

لم تمت "السيدة"، تناولت فصَّين من البرتقال، وشربت نصف طبق من ماء الأرز ثم نامت حتى الصباح التالي.

أرسلت "تشاو نيوي" رئيسة الحي إلى المدينة، يتبعها القائد ومعه الحقيبة. بعد أن وصلوا إلى الغرفة الفارغة، ألقى القائد بالحقيبة على الأرض، وأمسك يد "تشاو نيوي" بيديه الملطخة بالتراب. ثم قبلها.

- ما خطبكِ يا"تشاو نيوي"؟ لماذا لا تهتمين بأمري هذه الأيام؟

- فلتكن حذرًا وإلا رآني رئيس المنطقة.

- سيكون هذا أفضل.

بدأت الشمس في الغروب، لكن الهواء كان منعشًا ونظيفًا. بدت المدينة كأنها قصة تُسرد في غروب الشمس بين منحنيات التلال المنحوتة. نظرت "تشاو نيوي" إلى القائد نظرة خالية من المشاعر.

بعد قليل، طلب القائد حضور "تشاو نيوي" إلى غرفته، كانت هناك باقة من الأقحوان البري على الطاولة، وبعض الكتب ذات الأغلفة الذهبية في المكتبة. كان القائد قد غسل شعره للتَّوِّ ولا تزال الخصل النصف مُبلَّلة تحمل علامات التصفيف بالمشط. حتى أنه وضع بعض العطر. احتضن "تشاو نيوي" وقبَّلها، كان منهمكًا جدًّا حتى أنه نسي إغلاق الباب. كان يقبُّلها مثلما تنقر الدجاجة الأرز، يُقبِّل ويتوقَّف ثم يُقبِّلها مرَّةً أخرى، بوجه منتبه، مخافة حدوث أمر مفاجئ. دفعت "تشاو نيوي" رأسه بعيدًا وصرخت:

- أيها القائد.

- فلنتزوج يا "تشاو نيوي".

كان ضوء المصباح قويًّا رغم أزمة نقص الكهرباء في المدينة. كان المعتاد أن تكون المصابيح بلون الحائط الأصفر الهادئ، نادرًا ما تكون قوية الإضاءة، فتجعل كل شيءٍ واضحًا. تأمَّلت "تشاو نيوي" وجه القائد المصطنع، وسألت نفسها هل تحب القائد أم تحب الشخص المدعو "زاو جيوتشاي"، شعرت بالذنب. حدَّقت به بعينين هادئتين ثابتتين.

- إنك تقضي أيامك بشكل جيِّد أيها القائد، سوف تتم ترقيتك عن قريب لا محالة، لكن من الأفضل أن تنسى أمر هذا الزواج. لن تستمر رئيسة الحي هنا طويلًا، لقد تم إرسالها لمدة عام واحد، وسترحل مع بداية الربيع القادم.

قال القائد ورأسه تغوص بين كتفيه من الخجل:

- عمَّ تتحدَّثين؟



لم تعد "ينغ نيوي" تهتم بشيءٍ.

لم تعد تذكر أن لها عائلة، تنسى القيام بأيِّ شيءٍ. ولا يشغل بالها سوى أمر واحد، وهو اللحاق به. يخفيها العم "خه" عندما يتوقَّف المارُّون عنده لتناول مشروب.

ذهبت إلى منزل "جيوي تسي"، وشعرت أمها بالسخط حتى أنها سكبت الماء على ملابسها. رغم ذلك، وقفت "ينغ نيوي" في الطريق، وصرخت:

- هناك من ينتظرك، فلتخرج.

في هذا اليوم خرج العم "خه" أخيرًا.

- حسنًا، حسنًا، فلنذهب إلى المتجر.

كان الوقت متأخرًا، دخلا إلى المتجر المعتم. فدفعها فورًا وصرخ بها:

- فلتتوقفي أيتها الساحرة، ماذا تحاولين فعله تجاهي؟

اعتدى العم "خه" عليها. ثم استلقيا على السرير بإنهاك وصمت. بعد مرور ساعة، أصبحت دموع "ينغ نيوي" باردة، قالت بهدوء:

- أريد منك عشرة آلاف يوان.

اعتدل فورًا، وقال:

- ما هذا الهراء؟!

- لقد وعدت بمنحي هذا المبلغ، أريد أن أتاجر لأربح مزيدًا من المـال، إن قمـت بتنفيـذ وعدك فلن أزعجك

مجددًا، وسأقوم بتربية طفلنا بمفردي.

سألها بريبة:

- طفلنا؟

- أجل، إنني أحمل طفلك منذ شهرين.

أصبحت الغرفة صامتة في الظلام. فجأةً ضحك العم "خه" قائلًا:

- تقولين إنكِ تحملين طفلًا، لكن كيف لي أن أتيقن من الأب؟

غضبت "ينغ نيوي" وقامت بصفعه بقوَّة حتى أنها أحدثت صوتًا مثل الألعاب النارية.

- أتجرؤين على صفعي؟

- لن أفعلها ثانية.

بكت "ينغ نيوي"، وواصل العم "خه" الصراخ بشكل متكرر:

- عشرة آلاف يوان؟ إنها فكرة جيدة، لكنني لست مدير بنك، صحيح أنني من بـادرت بالاقتراب منكِ، لكن لاحقًا أصبحتِ أنتِ من يتخذ هذه الخطوات. قمت بشراء قلادة وملابس لكِ، أشياء شعرتِ أنكِ تستحقين قيمتها، في المناطق المتحضرة، لا تطلب فتيات الليل شيئًا بعـد حدوث الأمر نفسه بيننا.

بعد ذلك، أصبح العم "خه" يتجنبها، وظلت "ينغ نيوي" تتسكع في الشـوارع طـوال اليـوم وعقلها محمَّل بفكرة واحدة: "أن يرد لها الدين".

في مساء أحد الأيام، تناول العم "خه" الضفادع المطبوخـة مـع قليـل مـن النبيـذ، ثـم خـرج عـلى الموتوسـيكل ينـوي البقـاء في بـارٍ مـا لبضـعة أيـام حتـى يتهـرب

من "ينغ نيوي" تمامًا. على طريق الجبال المتعرج، رأى الناس مثل نقاط سوداء تسير بين الحقول الخضراء أسفل الجبل. شعر بالراحة، مقارنة بهؤلاء الناس يحق له الشعور بالفخر، حيث إن الحقول مرتبطة بالمنازل، لم يُجبر هو على العمل في الحقل يومًا في حياته، كان يقوم بتأجير أرضه للعائلات الأكبر عددًا التي تملك أرضًا أصغر، فيربح الكثير من المال والحبوب دون تعب. في الماضي، كان الجميع ينتقده، لكن بإمكانه الآن تصحيح مفهومهم.

المال شيء غريب، أحيانًا يكون من الصعب جنيه، وأحيانًا يصبح في غاية السهولة. مثل نبع مستمر من الماء.

عندما يحصل المرء على المال يقوم بالأشياء المحببة إليه، مثل الشرب، ومشاهدة الفيديوهات، والعلاقات النسائية.

كان العم "خه" قد اقترب من أعلى الجبل، بسرعة شديدة، فخرج شخص من بين الأشجار فجأة.

كانت "ينغ نيوي" تقف في منتصف الطريق، بذراعين مفتوحتين.

صرخ العم "خه" بغضب:

- هل تحاولين الانتحار؟

في البداية، كان يريد تهدئة هذه الفتاة البائسة، لكنها الآن أفسدت مزاجه.

كاد ينفجر وهو يصرخ قائلًا:

- ماذا تفعلين بحق السماء؟

قالت من بين أسنانها:

- أنت وغد كاذب.

ترفع العم "خه" عن النظر إليها، كانت تبدو ضخمة أمام عينيه، لكنها ليست طويلة، ولها وجه مستدير مثل شجرة "كاكا". كان يتوقَّع أنها ستصبح سمينة من الحمل فتبدو غبية.

- وماذا إن كنت كاذبًا؟

لمع اليأس في عينيها، وعندما لمحته يدير محرك الموتوسيكل قامت بإلقاء نفسها عليه.

تجمَّد العم "خه" في مكانه للحظة، ثم صرخ:

- هل أنتِ مجنونة؟

تلقت لكمة قوية في وجهها؛ لأنه لم يستطع التقدم، بينما هي متشبِّثة بالموتوسيكل.

ذهلت، دارت السماء في عينيها وسال الدَّم من فمها وأنفها. حاولت القفز مرَّةً أخرى، أثار الموتوسيكل الرمال فخافت الخرفان القريبة وقامت بالهروب.

في الوقت ذاته، اقتربت سيارة رباعية الدفع، كان القائد في السيارة وشاهد الموقف. خرج من السيارة مسرعًا ونادى:

- "ينغ نيوي"!

ترك العم "خه" يديه وقفز جانبًا. كانت "ينغ نيوي" زرقاء وسوداء من الكدمات. قامت بعضِّ ذراع العم "خه"، بينما الأتربة لا تزال تكسوها. احتقن وجهه، لكنه ظل ثابتًا، وقال:

- أرأيت كيف أنني لم أقاومها؟

رد القائد بحنق:

- ماذا رأيت؟ أفعالك اليومية ليست جيِّدة مطلقًا.

سحبها القائد بعيدًا وقام بتنظيف ملابسها من الطين، ثم سألها:

- لماذا تتصرفين بغرابة؟

رفعت وجهها المُحمر إليه وامتلأت عيناها بالدموع.

- لديَّ شيء لأخبركم به جميعًا.

شعر العم "خه" بالفزع فقال:

- أيها القائد، لديَّ عمل أقوم به في المدينة، ومواعيد لألحق بها.

- حتى إن عادت أمك من القبر للتَّوِّ، لا بُدَّ أن تأتي معنا الآن.

أمر القائد سائق السيارة بالعودة، فنزلوا جميعًا من الجبل. أحاط بهم عدد كبير من الناس. قال القائد:

- يُمكننا الذهاب إلى مبنى المدينة لحل الأمور يا "ينغ نيوي".

وقفت "ينغ نيوي" أمام متجر العم "خه"، وقالت:

- كلَّا. سأقول ما لديَّ هنا أمام الجميع.

احتشد الناس في طريق "فلاجستون"، وتولى أحدهم الذهاب لإخبار "تشاو نيوي" والأب. فأتوا مسرعين في ذعر. حشرت "تشاو نيوي" نفسها وسط الحشد. تجمَّدت عند رؤية وجه "ينغ نيوي" المتورم وشعرها المبعثر. نادت "تشاو نيوي" أختها الصغرى. وعندما رأتها "ينغ نيوي" انفجرت باكية.

- أختي الكبيرة، إنه هو الذي أذاني، إنه هو.

أمسكت "تشاو نيوي" بكتفي أختها وهي تشعر بخنجر يعتصر قلبها. وقف العم "خه" جانبًا، محاولًا الدفاع عن نفسه.

- من الواضح أنها علاقة مُدنَّسة، فكل ملابسها من المتجر الخاص بي.

بدأ الحشد في الغيبة، اقترب القائد من الأب وسأله بهدوء:

- ما العمل الآن؟

لم يقل الأب شيئًا، ظل واقفًا مُحدِّقًا في الفراغ، كان يعلم أن فرصة إنقاذ الموقف قد ذهبت، فابنته مثل طبق من الزيت، إذا سُكب فلا عودة له كما كان.

توافد مزيد من الناس، فنادى فيهم القائد قائلًا:

- من فضلكم عودوا إلى مصالحكم، سوف يأتي الرئيس إلى هنا ومعه الصاعق الكهربائي.

بالفعل، أحضر رئيس القوات المسلحة الصاعق الكهربائي، على استعداد للقيام بأي شيءٍ من أجل تفريق الحشد. طلب القائد من العم "خه" فتح الدكان كي تستريح "تشاو نيوي" و"ينغ نيوي" بالداخل. وتركوا أفراد الأمن العام ورئيسة اتحاد المرأة "زو"، وجلسوا القرفصاء بالخارج لمناقشة كيفية التصرُّف في الأمر، نظر القائد إلى الأب والعم "خه" وسألهما:

- كيف يشعر كل منكما حيال الأمر؟ هل يجب حله بشكل عام أم بشكل خاص؟

قدم العم "خه" للجميع سجائر "أشيمار"، تناولوها وهم عابسون:

- يعتمد الأمر عليكم، فأنا ليس لديَّ شيء لأقوله.

بدت الحيرة على الأب وسأل:

- ما الفرق؟

- إذا تمَّت تسوية الأمر بشكل علني، فهذا يعني أن مركز الشرطة سوف يصبح مسؤولًا عن ذلك، مما يعني تحرير محضر، وهو أمر طبيعي عادة، لكن في هذا الموقف، ينتابني الشك. إذا تم الاتهام بالزنى فربما توقع المحكمة غرامة قيمتها بضع مئات يوان، وترسلها إلى مركز الشرطة. لكن قد لا يكفي هذا لتغطية النفقات الطبية التي ستحتاج إليها "ينغ نيوي". أما إذا تم حل الأمر

بشكل خاص سوف نناقش الأمر فيما بيننا، سوف يقوم الأستاذ "خه" بتعويضك عن الخسائر وسوف تحصل "ينغ نيوي" على المال.

أصاب الأب الحزن والصمت، فسأل القائد:

- أستاذ "خه" ماذا تُفضل؟

شعر العم "خه" بالراحة، لكنه تظاهر بالتفكير:

- لقد أنفقت عليها الكثير من المال، فهناك - مثلًا - سلسلة قيمتها 1200 يوان، وحذاء، لكن يُمكنني التسامح في ذلك، سوف أدفع لها 800 يوان.

سالت الدموع على وجه الأب.

- يبدو ما تقوله سهلًا، لكن تربية ابنة ليس بالأمر الهين، لقد توفيت أمها وهي تلدها وكان عليّ تربيتها وحدي.

- 200 يوان إضافية، وهكذا تصبح ألفًا كاملة.

أعاد القائد السؤال على الأب.

- لقد كُسرت بالفعل، ولن تتمكَّن من الزواج، يمكنها الاعتماد علينا بينما نحن أحياء، لكن بعد وفاتي على من سوف تعتمد؟ لهذا نحتاج إلى راتب.

وافق القائد، لكن العم "خه" اعترض:

- لست موافقًا، لقد تحملت مسؤوليتي، أتقدم معك إنشًا فتطمع في ميل، ماذا عن زوجتي وابنتي؟ لا يُمكنني القيام بما تطلبه.

خرجت "تشاو نيوي" من المتجر، بعينين تنفجران من الألم، وهي تحدق بالعم "خه". كان يجلس صامتًا مذعورًا يخشى أن يتحرك. سأل:

- ماذا تفعلين؟

أجابت "تشاو نيوي" ببرود:

- لا يمكن تسوية الأمر بشكل خاص.

شعر الجميع بالصدمة. مد العم "خه" ذراعيه ولم يقل شيئًا. نظرت "تشاو نيوي" حولها والهواء يعبث بشعرها، مثل علم مرفرف.

- أبي، كيف يُمكننا طلب المال منه؟ يظن أن ماله يحل كل شيء، لكنني لا أعتقد ذلك، يجب علينا مقاضاته، فلنصعد الأمر إلى الإقليم، إلى المحافظة، أو حتى إلى بكين.

فاحت رائحة حريق في الهواء البارد. لاحظتها "تشاو نيوي" أوَّلًا، فجالت بذهنها فكرة مشؤومة، استدارت فجأة، فذهلت عندما رأت قمرًا أحمرَ يرتفع فوق سطح المتجر، ثم رفرف وقفز وتحول إلى سحابة حمراء مضيئة. صرخ الناس معًا:

- حريق!



九

تمتعت "السيِّدة" بشهية طيبة، تناولت الجزر المملح مع صحن مكرونة بالبيض. عانت من ألم وتعرقت، فغسل العرق الأوساخ من بين مسام جلدها. فأصبح جسـدها نظيفًـا لامعًـا مثـل الحرير المغسول. هدأت وشعرت بالراحة فذهب عنها التوتر.

جلست في الكرسي ذي الظهر المستدير، وخرجت تحت الشمس، أخيرًا. منعتها الحرارة من فتح عينيها جيدًا، فبدت كأنها تفكر في أمر صعب. سألت:

- أين "ينغ نيوي"؟

أجابتها "تشاو نيوي"، وهي تلمس أصابع العجوز:

- لقد رحلت.

- إلى أين؟

- ذهبت إلى المدينة، لجني المزيد من المال.

لم تعد هناك ملابس ملونة لـ"ينغ نيوي" على ساري "البامبو" في الحقل، عندما كانت "ينغ نيوي" معهم، كانت تغير ملابسها وتغسلها كل يوم، فتعلق ملابسها الداخلية البيضاء وحمالـة الصدر الحمراء على الساري فيرفرف مع الـريح، لكنـه الآن صـار فارغًـا، ولم تعـد "ينـغ نيـوي" معهم.

في هذا الوقت، كانت "ينغ نيوي" تجلس في المتجر الصغير، فجأةً قفزت من مكانها كأن عقربًا لدغها. لقد ذكرها اللحاف الذي تجلس عليه بأيام وليالٍ مأساوية، عندما كان يستغلها، ابتسمت ابتسامة صغيرة وهي تضع يديها على كتفيها. كان المتجر الصغير مليئًا بالملابس، والمشروبات الكحولية، والحلوى التي كان يحضرها الرجال من المدينة. كان يتاجر في كل شيءٍ ويريد كل شيءٍ. فتحت "ينغ نيوي" زجاجة الكيروسين ووضعت الغطاء على الرف برفق، كأنها تروي الأزهار، ثم صبّته على جسدها.

شعرت كأنها تستحمُّ، شعور مريح وسعيد. كان الجدال لا يزال دائرًا في الخارج، في النهاية، تم الاتفاق على تسوية الأمر بشكل خاص، وسيقوم العم "خه" بدفع مبلغ كبير من المال لوالدها. لكن كان الاتفاق جيدًا بالنسبة له، لم يعد شيئًا يهم. لقد فشلت في القيام بأي من الأمور التي تمنت القيام بها. كل ما يمكنها فعله الآن هو استغلال اللحظة. أشعلت عود الثقاب وهي تفكر بأغنية الزفاف.

"أمي، إنني مثل آنية على النار أغلي

لا يُمكنني التمدُّد أو التراجع

إلا إن تم كسري

أمي إنني مثل الفحم،

لا أستطيع الانثناء

إلا إن تم كسري".

في بحر الحرارة، تلوت "ينغ نيوي" وهي تصرخ، بدا كأن الليل مسرحًا حالك الظلام، فيه الحريق هو مصدر الضوء. تلوت "ينغ نيوي" ورقصت كأنها بطلة العرض الوحيدة، اللافتة.

فُطر قلب "تشاو نيوي" وحاولت الدخول بين النيران مرارًا، لكن القائد كان يمنعها، ظلَّت النيران مشتعلة طوال الليل، ومع حلول الصباح، صار المتجر حطامًا متفحمة. واختلطت "ينغ نيوي" بسحب الدخان.

وقف الناس أمام الحطام في صمت، فجأةً بدأ المطر ينهمر. غطت المدينة والجبال سحب داكنة وبدأ البرق والرعد. بكى الأب بقلة حيلة، وهو يبحث حوله مناديًا:

- عودي يا ابنتي الغالية، عودي يا "ينغ نيوي".

شعر العم "خه" بالصدمة، فقد كان المتجر مليئًا ببضاعة تساوي عشرات الآلاف، والآن تحولت كلها إلى رماد في ليلة. بدأ يردد اللعنات، لكنه توقف عندما شعر بأعين الناس تخترقه مثل الأسهم. بدأ الناس في الجدال والحديث وتم حبسه في الحائط الرفيع مثل الإبرة. اشتد الرعد، فذعر وارتعب وسال اللعاب من فمه. تحرَّكت عيناه في كل اتجاه قبل أن يخرج حفنة من المال من جيوبه ويقوم بتمزيقها أمام الجميع.

حرَّكت "السيِّدة" رأسها ببُطءٍ:

- هل رحلت "ينغ نيوي"؟ لم تخبرني!

شردت وبدأت في الحديث:

- ذات مرَّة ذهبت إلى المدينة، استغرقت يومًا ونصف لأقطع طريق الجبل إلى هناك، كان الناس كثرًا مثل النمل، يمر الوقت ويكتشف المرء أن كل الاماكن واحدة، حتى المدينة.

التفتت "السيدة"، ورأت شجرتي الخوخ والبرقوق إلى جوار ضريح زوجة ابنها. أغلقت عينيها وبدأت في الاسترخاء. كانت هناك سحب ناعمة ملونة جميلة من الأزهار، تتحرك برقة مثل ثوب أميرة أنيقة. طلبت "السيِّدة" من "تشين لاو أر" عدَّة مرَّات تفقد تلك الأزهار، لكنها لم تبدُ واضحة مثلما هي في هذا اليوم، قط.

ابتسمت "السيِّدة" وأشارت وهي تسأل "تشاو نيوي":

- هل ترين ذلك؟

أجابت "تشاو نيوي":

- بالتأكيد.

في الواقع، لم يكن هناك سوى بعض الغصون العارية.

- يومًا ما، حطَّم الرعد شجرة الخوخ وبعثر الأزهار الحمراء على الأرض.

لاحقًا، وقفت "تشاو نيوي" في صمت الجبل الحالك، وهي تحبس دموعها وتشاهد الشجرتين، بينما يتم قطعهما، نظرت إلى الجذع المقطوع، وتذكرت جسد "ينغ نيوي" المتفحم. قررت قطع الشجرتين حتى تتحرر من قبضة القدر. رغم أنها شعرت بالخوف وهي تمسك الفأس، كأنها تسمع الصوت بين الجنة والأرض. ارتعشت الأرض، لكنها لم تتوقَّف حتى قامت بتسوية الشجرتين بالأرض. كانت منهكة، لكنها شعرت بالراحة، وكأن طائر قد خرج يرفرف من قلبها، يحلق بين السحاب ممتنًا لها، ثم ابتعد واختفى في السماء الشاسعة.

في اليوم التالي، قُدمت الاستمارة الخاصة بها إلى المعلم الأقدم، كانت هذه الاستمارة هي فرصتها للتحول من معلمة غير حكومية إلى معلمة بصفة رسمية.

تولى المعلم الأقدم التدريس في مدرسة القرية لثلاثين عامًا، أتاه تلاميذ من حول العالم، من بينهم القائد ومدير المدرسة. كان يرتدي نظارات سميكة، ويغطي تراب الطباشير يديه.

كـان متميـزًا في تعلـيم الشخصـيات الصـينية، مثـل شخصـية "ميـنج"، وبواسـطة هـذه الشخصيات، أعطى الطلبة دروسًا عن الحياة، والعطاء، واتبـاع الأوامـر، والقـدر، وكيـف تمـت كتابة ذلك عـبر الأجيـال إلى الشخصـية الحـاضرة. كـان يتعامـل مـع الشخصـية كأنهـا شـخص حقيقي، من الاسم وحتى العائلة، رابطًا بين قصصها الحيوية.

لكن قدرته الحسابية كانت مختلفة تمامًا، فأكثر المحكمين كرمًا لن يضعه في مستوى أعـلى من طالب في الصف الثالث الابتدائي، عادة ما يقدم تذكرة الوجبات غـير الصـحيحة في مطعـم المدرسة. كانت هناك العديد من الامتحانات الضرورية ليصبح المرء معلمًا بصفة رسمية، لكنه رسب فيهم جميعًا.

لا حاجة للقول إن هذه المرَّة لم تكن امتحانًا، بل فرصة حقيقيـة، تسـلمت "تشـاو نيـوي" الاستمارة من مدير المدرسة وهي متحمسة. لم تتجاهـل النظـرة المفضـوحة عـلى وجهـه، رأت فيها انعكاسها. لم تأكل شيئًا في هذا اليوم.

قامت "تشاو نيوي" بتسليم الاستمارة الفارغة التـي تسـلَّمتها مـن المعلـم الأقـدم، لم تقـل شيئًا، فقط التقطت حقيبتها ورحلت.

رآها مجموعة من الطلبة الذين كانوا يسرعون في الطريق الرملي الأحمر المتعرج، فنظـروا إليها بأعين سوداء فضولية، مسحت "تشاو نيوي" على رؤوسهم، وهي تقول :

- فلتذهبوا للقراءة.

- "تشاو نيوي"!

إنه القائد ينادي. نظر إليها نظرة معبرة كأنه يقول: "لماذا رفضتِ الفرصة؟ نحن لا نحصل على فرص عديدة في هذه الحياة".

- أريد أن نكون صديقين.

- نعم، سوف أتذكركِ.

ابتسمت، لكنها لم تتوقف.

تبعها وهو يقول:

- إن كنتِ قد تخلَّيتِ عن هذه الفرصة بسببي فلن أسامح نفسي أبدًا.

- كلَّا، أريد فقط الاعتماد على نفسي.

استقلت الأتوبيس لتخرج من الجبال. كانت تخطط للتقديم في امتحان الجامعة للبالغين، ومن ثم الالتحاق بالجامعة، حتى وإن كانت لتخريج المراسلين أو مذيعي التليفزيون. نقلت العمة – رئيسة الحي – إلى المحافظة مرَّةً أخرى أثناء مرضها. فكرت "تشاو نيوي" في العمل كمربية أو جرسونة بمساعدة عمَّتها، في حالة فشلها.

كان الأتوبيس ممتلئًا بأشخاص من قرية "قوارب التنين"، متجهين إلى الجبال خارج المدينة، ورائحة الأتوبيس تفوح بالعرق ورائحة الوقود.

لم تنسَ أبدًا عيني والدها.

التفتت فرأت ابنة عمِّها الكبرى تجلس في الصف الأخير، إلى جوار رجل سخيف يدخن السجائر، ويرتدي خاتمين ذهبيين في يده اليسرى. أخفت ابنة العمة عيني "تشاو نيوي" ومالت على جارتها.

سألتها "تشاو نيوي":

- إلى أين تذهبين؟ تُريدين الرحيل مثل سائر نساء الجبل؟ تحاول الدولة محاربة الاتجار في النساء والأطفال، سوف تعودين موصومة بالعار، ولن تتغير حياتكِ مطلقًا.

- وماذا عنكِ؟ ألستِ راحلة مثلي؟

ضحكت "تشاو نيوي" بحسرة.

"حلقت الطائرة الورقية في السماء

خيطًا يربطها بالأرض

ألا ترى الأزهار تتفتح

جذورها في الجبل".

هذه الأغنية وغيرها توارثتها الأجيال بمرور آلاف الأعوام، كانت "تشاو نيوي" تعلم أنها ستعود. لكل مكان طريقته في العناية بسكانه.

أسرعت "تشاو نيوي" بين الجموع، حتى تمكّنت من الإمساك بيد ابنة عمِّها.



عتة شهر مايو





تشرق شمس جديدة خلف المنحدر الحجري، كانت مثل صفار البيض، حتى أنه بإمكان "أر مي" محاولة تناولها في قضمة واحدة. جذبها لون الشمس الأصفر، وتمنَّت التحوُّل إلى شيءٍ يمكنه الطيران، كي تتمكَّن من الاقتراب من هذا الشروق برفرفة الأجنحة مرَّتين.

الطيران بعيدًا.

أثارت هذه الفكرة حماسها، وهي في الثامنة عشرة من عُمرها فقط.

كانت الشمس حارقة في مايو، وكانت "أر مي" تعرف أن ارتداء قميص بأكمام طويلة في الظهيرة أمر غير ممكن. خاصة خلال جمع الشعير في الحقل. ففي هذه الظروف، تكون الشمس مثل إبر تشك الجسد، كأن نمل كثير يسير على جسدك.

عندما استيقظ والدها، ارتدى بذلته الوحيدة، فعرف جميع أفراد العائلة أن لديه بعض الشؤون العامة التي يتوجب القيام بها.

وجدت "أر مي" خيطًا أبيض طويلًا على الطرف الأسفل لجاكيت والدها، فذهبت لتساعده في قطعه.

كان والدها يخوض مصارعة مع ربطة العنق.

- إنها بضاعة فاسدة، كلَّفتني خمسين يوانًا!

- هل يمكن شراء بضاعة جيِّدة بخمسين يوانًا؟ رأيت بذلات ماركة "شينغ سي ون" في منزل ثالث أكبر خالاتي سنًّا، ثمن البذلة الواحدة يصل إلى ألف أو ألفي يوان.

لكن والدها لم يعجبه هذا النوع من الحديث.

- هل رأيت العالم؟ نحن صادقون لأننا نعيش في الريف، لا توجد أدنى مقارنة بيننا وبينهم.

ترأس الأب لجنة قرية "المنحدر الحجري" لعشرين عامًا. كان شخصية بارزة، حتى لو قال مرة إن اثنين تساوي واحدًا، لا يملك أحد الاعتراض. لا أحد يجرؤ على مناقشته، عدا "أر مي".

- سُكَّان المدينة بشر مثلنا، لماذا لا نقارن أنفسنا بهم؟ يربحون ألف يوان سنويًّا، يُمكننا ربح عشرة آلاف يوان سنويًّا، صارت عائلة "هو شي هوي" ثرية بعد افتتاح مناجم الفحم، حتى أنهم امتلكوا بنكًا.

- إن تحدثتِ عن عائلة "هو" مجددًا فسألقي بكِ من فوق الصخور، يمكنكِ التجربة إن كنتِ لا تصدقين.

لا تأخذ "أر مي" كل شيءٍ على محمل الجد عندما يكون والدها مشغولًا بالعمل. تعرف القرية أنهم على شفا إعادة انتخابات. سيصل بعض الضباط من المدينة اليوم، وهذا أمر مهم للأب.

- أبي، لا تزأر، إن سمعت عائلة "هو" بهذا، فسوف يجعلون من الأمر مزحة. إن ملابسك تتحلل، دعني أخيطها لك.

- لا داعي، يجب أن أذهب إلى اللجنة مبكرًا. يجب أن تقومي بإعداد الوجبة مع أمكِ. فربما يأتي الضيوف لتناول الطعام في منزلنا.

عادة، عندما يأتي ضيوف إلى القرية للعمل، يقوم الأب بدعوتهم لتناول وجبة في منزله. تصاب السيدات في المنزل بالإرهاق، لكن يشعرن بالفخر. بينما يتناول الضيوف الطعام في الصالة، يأتي الناس في مجموعات من شخصين أو ثلاثة لتفقد الأحوال. يقف الكبير والصغير أمام النوافذ، لكن عائلة "أر مي" تبقى منشغلة، كأن لا أحد هناك. كانوا مثل المغناطيس يجذبون الأعين الغيورة إلى بابهم.

قالت الأم بحماس:

- سأسلق أكبر أقدام خنازير رأيتموها من قبل.

أومأ الأب موافقًا، وانضم إلى "أر مي" لإزالة منشر الغسيل؛ لأنه يمنع الدخول إلى منطقة إيقاف السيارات. قال إن بعض الكوادر قادمون من المدينة مع السائقين. استمعت "أر مي" وأمها وأومأتا. في الواقع، كانت حالة أمها الصحية سيئة، لكن في مثل تلك المواقف تتألق، كأنها تحتفل بمهرجان أو تلعب دور البطلة في مسرحية. ألحّت على "أر مي" وأخيها الأصغر "ليو قوانغ مينغ" لتناول الإفطار سريعًا، حتى يتمكنوا من إعداد الطعام الشهي. بدأت تتحرّك في المنزل كأن الغرفة ستمتلئ فورًا.

لم تشعر "أر مي" بالحاجة إلى ذلك. مدت ذراعها وداعبت رأس أخيها.

تضايق "ليو"، وقال:

- ماذا تفعلين؟

- ليس من السهل قص شعرك وهذا يضايقني.

كانت قد تعلّمت للتوّ قص الشعر، ولم تكن تنوي قص الجانبين بهذا الشكل. كانت جمجمته ظاهرة، وبدا مظهره مثل شاب ريفي. كانت تعجز عن منع نفسها من الضحك عندما تنظر إلى رأسه لمدة طويلة.

أصاب هذا التصرف "ليو قوانغ مينغ" بمزيد من الضيق، أخذ من الصحن قطعة لحم كبيرة ومضغها، وقال:

- لن أكون حقل تجاربكِ مرَّةً أخرى.

اشمأزَّت "أر مي" من طريقة تناوله للطعام، يجلس في كرسي الشرف مثل والده، يمدد ذراعيه وساقيه ولا يحترم آداب الطعام.

فانتزعت عصي الأكل منه، وقالت:

- يجب أن تكون مهذبًا يا "ليو قوانغ مينغ".

حدق "ليو" فيها مذهولًا.

- لا ترمقني هكذا وإلا ضربتك مجددًا.

قال "ليو قوانغ مينغ" بصرامة:

- لستِ أبي، وقلت لكِ من قبل، يجب أن لا يلمس أحد رأس رجل أو خصر امرأة.

- أنت محق، لكنك بعيد كل البعد عن أن تكون رجلًا بالغًا.

- أعرف بما تفكرين حين تجلسين على النهر. ما معنى تلك الجملة: "أنت نار وأريد أن أُلقي نفسي بين ذراعيك"!

طرقت "أر مي" رأسه بقوَّة دون النطق بكلمة، فبكى "ليو". دخلت الأم الغرفة الرئيسية وتساءلت إن كان أحد الأطباق قد كُسر.

- ما الخطب؟ من كسر الطبق؟

لم ترد "أر مي" الإفصاح، صاحت:

- لقد اختلست النظر في مذكراتي، يجب أن أخلع عينيك من وجهك.

- ليس ذنبي، أنتِ تركتِ مذكراتكِ مفتوحة على المكتب، ذهبت لآخذ قلم من الغرفة فرأيتها.

سألت الأم:

- ماذا رأيت يا "ليو قوانغ مينغ"؟

صرخت "أر مي":

- أمي، ليس هذا من شأنكِ.

والتفتت إلى أخيها:

- إن نطقت كلمة أخرى فسوف أضربك.

وضع "ليو قوانغ مينغ" طبقه وأسرع بعيدًا ومعه حقيبة المدرسة.

ذهبت "أر مي" إلى البئر لملء الدَّلو، سوف تغسل الأم اللحوم المحفوظة اليوم ويحتاج ذلك إلى كثير من الماء.

قابلت "بيتش" عند محطة القطار. كانت "بيتش" ترتدي قميصًا أخضر بثلاث ثنيات عند الصدر، مما جعل صدرها يبدو أكبر من حجمه. كانت تعرف أن "بيتش" مثل أهل الحضر. أهل الحضر يحبون النساء - كما قرأت في المجلات - ذوات الصدور الكبيرة. لم ترغب "أر مي" في التَّحدُّث إلى "بيتش" وهي ترفع الدلو، لكن ما قالته "بيتش" جعلها تتسمَّر.

- "أر مي"، إن حبيبكِ "هو شي هوي" يحب "جيوي تسي".

كاد العمود أن يسقط من كتفها، لكنها هزته ونقلته إلى الكتف الأخرى.

- ماذا تقصدين بـ"هو شي هوي" حبيبي؟ إن قلتِ ذلك مجددًا يا "بيتش" فلن أتحدث إليكِ. ليس من شأني إن كان "هو" يحب إحداهن.

- حسنًا، بما أن هذا لا يهمك فلن أقول المزيد.

- أجل، يُمكننا التَّحدُّث عن أي شيءٍ سواه.

- حسنًا، سأخبرك بأمر واحد، أنا ذاهبة إلى المدينة غدًا، هل تأتين معي أم لا؟ يمكنني الذهاب معك أو الذهاب بمفردي.

صمتت "أر مي" لوهلة ثم قالت:

- هل ستعودين إلى صالون التجميل؟

- أجل، أنا معتادة على العمل هناك، والمدير لا يوافق على تركي للعمل، وإلا لتاجرت مع "تيان كواي هوه".

كان "تيان كواي هوه" هو حبيبها. قالت "بيتش":

- إن أردتِ المجيء يُمكنني مساعدتكِ، ولكن عليكِ البدء من أوَّل السلم.

أجابت "أر مي" بحزم:

- اذهبي بمفردكِ، ويمكنني الذهاب بمفردي.

ابتسمت "بيتش":

- لا تلوميني يا "أر مي"، إن تحدثت بصراحة، أنتِ شديدة العناد، هذا أمر ليس في صالحكِ.

ردت "أر مي" بضيق:

- اذهبي يا "بيتش" في طريقكِ، وسأذهب في طريقي، لا أحتاج إلى نصائحكِ، فلقد ذهبت إلى المدرسة الثانوية.

صححت "بيتش" موقفها:

- أعلم أن والدكِ رئيس القرية، لا بُدَّ أن بإمكانه إيجاد عمل جيِّد لكِ. ربما يمكنكِ العمل في الحكومة.

- "بيتش" ! أحذركِ، توقفي عن قول هذا الهراء.

- إن كنت مكانكِ، ولديَّ أب جيِّد هكذا، لما ذهبت إلى أي مكان.

- أبي لا يتمتع بنفوذ أكثر من غيره.

شعرت "أر مي" بالراحة لقولها ذلك.

نادت الأم من المنحدر الصخري:

- هل انتهيتِ يا "أر مي"؟ لماذا لم تعودي بعد؟

رفعت "أر مي" الدلو، وشعرت أنه أثقل من المعتاد، أرادت التخلُّص من بعض الماء، لكنها لم تفعل، حملته وسارت وهي توبخ "هو شي هوي".

- قلت إنك ستحبني إلى الأبد يا "هو شي هوي"، لكنك تغيَّرت خلال أيام، من حسن الحظ أنني شديدة الحرص والحذر، ولم أقع فريسة لتصرفاتك البهلوانية. أنت رجل ولم تلتزم بكلامك. لم أعدك بشيءٍ ورغم ذلك أخذت يدي، ألا تظن أن أحدًا يعرف معنى الرجولة، ما فعلته يعني أنك لا تعتبر نفسك رجلًا!

أخذت الأم الدلو عند الباب الأمامي، وقالت:

- مع مَن كنتِ تتحدثين؟

- من فضلكِ يا أمي، لقد رفضتِ ذهابي إلى المدرسة أو إلى المدينة؛ لأنكِ تريدينني أن أبقى هنا وأقوم بأعمال المنزل فقط، والآن تُريدين التحكم في أحاديثي؟

- من أين تأتين بكل هذا التذمر؟ أسرعي بغسل اللحوم المحفوظة، وسأقوم أنا بسلقها في الإناء فور انتهائكِ.

في المدينة، عندما يأتي آخر الشهور القمرية، يذبح السكان خنزيرًا، ثم يقومون بتسوية اللحم على البخار. وعندما يأتي الزائرون، يقطعون اللحم لطهوه وتقديمه لهم.

عملت الأم بجهد، وقطعت أرجل الخنزير، ثم وضعتها في الأطباق مع بطاطا صفراء وفول أخضر وفلفل أحمر.

- تعالى يا "أر مـي" وشـاهدي، عليـكِ تعلـم فنـون الطهـو كـأي فتـاة، هـذه طريقـة جيِّـدة لتصبحين امرأة صالحة، الطهو أوَّلًا، ثم الحياكة، ثم أمور الفراش.

أخفضت "أر مي" رأسها لتشعل نار الفرن، قالت الأم:

- دائمًا ما تعارضينني.

- لا أريد أن أعيش حياتكِ ذاتها.

- ماذا قلتِ؟

- لا شيء.

وُضع الطعام على المائدة، أربعة أطباق وثماني سلطانيات، وطبق آخر ساخن. لكـن المسـاء حلَّ، ولم يأتِ الأب أو الضيوف. اضطرت الأم إلى إعادة تسخين الطعام. لاحقًا، سـمعت صـوت خطوات، ثم رأت "ليو قوانغ مينغ".

- هل رأيت والدك؟

- لن يأتوا، سوف يقيم الزائرون في منزل "هو".

- خذي هذا الطبق يا "أر مي"، إنه يحرق يـدي، وأنـت يـا "ليـو قوانـغ مينـغ"، إن كنـت تكذب فسيضربك والدك.

- ألا تصدقينني؟ لقد أخبرني بنفسه.

وضعت الأم البلسم على يديها. ثم سارت "أر مي" على طريق الجرار نحو منزل "هو" ذي الطوابق الثلاثة ، لقد شُيد المبنى حديثًا.

كان أشبه بمركب أبيض بـين مزروعـات القريـة. كانـت هنـاك سـيارة "جيـب" وسيارة سوداء أمـام البوابـة. يتحـرك النـاس في كـل اتجـاه بسرعـة. وتمكنـت مـن

رؤية المارين يقتربون من المنزل مثل النقاط السوداء الصغيرة. من الواضح أن أهمية والدها تأثرت بمرور نصف يوم فقط. لم ترغب في الوقوف عند النوافذ مثل الآخرين، بل سارت بثقة نحو المنزل. شاهدت في مرَّة فيلمًا مع "بيتش" في المدينة. فيلم رعب أمريكي. كان أحدهم يقتل الناس في منتصف الليل، لكن لم يعرف أحد من القاتل. لم ترغب "بيتش" في مشاهدته، وقالت:

- "أر مي" هذا فيلم مخيف، فلنغادر.

لكن "أر مي" لم توافق على ترك الفيلم. شعرت أن عليها مشاهدته حتى النهاية، فإن لم تفعل، فستداهمها الكوابيس في الليل.

باختصار، لا يمكن لأحد تجنُّب عدوه.

رأت "هو شي هوي" ينزل عن جراره، في الحقل حول المنزل. كان يحمل مجموعة من الزجاجات الحمراء والخضراء. ويرتدي بذلة جديدة رغم بنطاله الطويل بشكل زائد. تمنَّت "أر مي" لو كان أطول. نادى "هو شي هوي" اسمها:

- يا "أر مي"؟

- لست شبحًا، لماذا تحملق بي هكذا؟

نظر حوله، وقال:

- ذهبت لشراء المشروبات الكحولية.

- أعرف ذلك. فلديك زوَّار من المدينة والعاصمة، وأعرف أن والدتك و"جيوي تسي" تجهزان الطعام.

- لقد دعونا والدكِ أيضًا، لكنه رفض ورحل وحده.

- لا أعرف هذا، لكن إن دعوتني فسأحضر. وعندما تتزوج "جيوي تسي"، فلا تنسَ إرسال الدعوة. سوف أشترى لكما هدية كبيرة.

- إن الأمر معقد في الواقع، تعرفين يا "أر مي" أنني أحبكِ، لكن..

قاطعته دون تردُّد:

- لكنني لا أحبك. سوف أذهب إلى العاصمة. سوف أرحل غدًا.

ثم استدارت وبدأت تبتعد. وتمكنت من سماع "جيوي تسي" وهي تنادي على "هو" ليحضر المشروبات إلى المنزل.

لم يعد الأب إلى المنزل هذا المساء، برد الطعام على المائدة وكست اللحم طبقة من الدهن الأبيض. بثَّت المائدة المزدحمة بالأطباق الاكتئاب في المنزل. حتى "ليو" فقد شهيته. سألت الأم:

- ماذا حدث؟ لما لم يأتِ الزائرون إلى منزلنا؟

- يقال إن أبي لا يصلح رئيسًا للقرية، يعتبرون والد "هو شي هوي" مرشحًا أفضلَ.

طلبت الأم من "أر مي" البحث عن والدها، لكنها رفضت. قالت إنها لا تعرف طريقة للوصول إليه. يقوم الأب فقط بتحفيز الناس على العمل في الحقول وزراعة كثير من المحاصيل، لكنهم لا يكسبون إلا القليل من المال، أما والد "هو" فلديه تسعة من الأبناء، واحد يعمل في الحقول والثمانية الآخرون يجمعون المال بطرق أخرى.

عاد الأب في منتصف الليل، لم يعرف أحد أين كان يشرب. خلع بذلته وألقى بها على الأرض في أريحية. لم تجرؤ "أر مي" أو والدتها على النظر إليه، أو التعبير عن مشاعرهما. سيحزن الأب إن لاحظ هذا. وراح في نوم قبل أن ينطق أحد بكلمة.

عندما استيقظ في الصباح التالي، كانت "أر مي" قد أعدت حقيبة بها طاقمان من الملابس، وكريم تجميل، ومرآة ومذكرة. كان الأب يصرخ يشكو صداعًا، ويريد منها إعداد كـوب شـاي قوي وساخن. نفذت المطلوب، وبينما هي تقدم الكوب إلى والدها أخبرته أنها راحلة.

لم ينظر الأب إليها، لكنه ضغط يديه على جسده وأصدر صوت تألُّم.

لم يرَ أنها تحمل حقيبة صغيرة، إلا عندما وصلت إلى الباب.

- انتظري، إلى أين تذهبين؟

- إلى العاصمة.

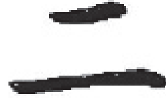
وقف الأب فورًا:

- العاصمة؟ ومن سمح لكِ بذلك؟

قالت "أر مي" بثقة وهدوء:

- أنا يا أبي.





"في الواقع، بدأت قصتك هناك: فتاة تهيم في الطرقات، تحمل حقيبة يد وردية صغيرة، ونصف مرآة خضراء تظهر من طرف حقيبتها. كانت ترتدي زوجين من حذاء مُدبَّب، ليس لها. قالت لي:

- قدمي تتألَّم.

ولكي أصدقها، مشت خطوتين أمامي وجسدها غير متزن. ابتسمت وقالت إنها تتألَّم حقًّا.

تبعتها وسألت عن هويتها. أوضحت لي:

- اسمي "أر مي" عندما سرت نحوي تعرفت عليك فورًا.

لم يسمع صوتها بوضوح، لكنه شعر بوجه الفتاة يلمع.. ويتلألأ.. ويتلألأ..".

كانت تلك افتتاحية قصة من تأليف "شينغ سي ون". كان "شينغ سي ون" مذيعًا تليفزيونيًّا شهيرًا، لكنه لم يكن شديد الولع بوظيفته، رغم أنها وظيفة محببة إلى كثير من الناس. كان يعتقد أن العمل كاتبًا حرًّا يناسبه أكثر؛ لأنه يتيح له كتابة ما يرغب في الكتابة عنه، ويبقى بعيدًا عن أوامر رئيسه ورئيس المجموعة. كان يتنهَّد، ويقول:

- الحياة مُملَّة.

ويسقط شعره فوق جبهته ونصف عينه. كان عبوس الوجه وهو يلعب بكأس نبيذ، وكان قادرًا على تحريك الأمواج في قلوب الفتيات واحدة تلو الأخرى.

لم تجد "أر مي" منزل خالتها الثالثة في المدينة. ليس لأنها لم تتذكر الطريق، بل لأن الممشى الصغير الذي تعرفه قد اختفى. تتذكر وجود بائعي الخضار هناك، لكنها لم تجد إلا العشب. كانت الشمس قوية والشجر الصغير لا يوفر ظلًا كافيًا. مشت في الشوارع والشمس حارقة مثلما تفعل حيث تعيش، هناك في المنحدر الحجري. فقدت ثقتها بالتدريج. سألت كثيرين عن الطريق، سألت بائعي الجرائد، والرجال كبار السن. هزُّوا جميعًا رؤوسهم ببساطة وهم يقولون:

- لا ندري.

جلست على العُشب أمام الدرج الحجري. شاهدت السيارات تمر أمامها مثل الماء. لم تستخدم السيارات الأبواق، لكن صوت مرورها شكَّل شبكة من الصوت العالي، مما جعل نفسها يضيق. هناك حيث تعيش، في المنحدر الحجري، حيث يسكن عدد بسيط من العائلات في مساحة عشرة أميال، كانت تشعر بوجود أي شخص، مثلًا إن غنَّى أحدهم أغنية شعبية، أو وقع نزاع، أو قطع أحدهم الحطب أو خرج من منزله، لكن لماذا لا تشعر بوجود أشخاص في العاصمة المزدحمة؟ هل من وجود للبشر بين تلك الشبكة السميكة؟

حل المساء، وأدركت "أر مي" المأزق فبكت.

لو لم يكن "شينغ سي ون" يخرج للسير عادة مع "شياو يي" لنامت "أر مي" في الشارع، في ليلتها الأولى في العاصمة. لكن لحسن الحظ أخذها "شينغ سي ون" من الميدان إلى منزله.

كانت خالتها الثالثة تشاهد حلقات تليفزيونية، فيها تعود البطلة بشكل مفاجئ من رحلة عمل لتفتح الباب وتجد زوجها يقيم علاقة مع امرأة أخرى على سريرها. في هذا الوقت، لم ترغب الخالة في أي نوع من الإزعاج، قالت:

- لماذا تأتين يا "أر مي" دون إعلامنا؟ كان عليكِ الاتصال.

عندما رأت "أر مي" وجه خالتها الشبيه بوجه أمها، تشجعت وقالت بصوت عالٍ، رغم أنها كانت تشعر بالجوع، في نهاية هذا اليوم الطويل:

- تعرفين أننا لا نملك تليفونًا.

- أين أمكِ وأبيكِ؟

- أحتاج إلى وظيفة يا خالتي، أرجوكِ ساعديني.

التفتت خالتها، وضحكت:

- أعثر لكِ على وظيفة؟ هل تسمع هذا يا "زينج سيزين"؟ خسرت وظيفتي قبل إتمام عامي الخمسين، لكن "أر مي".. هذا شيء لا يُصدق!

ابتسم "شينغ سي ون" في وجه قريبته.

- اجلسي يا "أر مي" وتحدَّثي إلينا.

أخذ حقائبها، كانت يداه عريضة عند المفاصل، ولها لون أبيض، مما جعله يبدو أكثر ذكورية ونبلًا.

- تناولي طعامًا من المطبخ.

فقالت الخالة الثالثة:

- ليس هناك شيء مُتبقٍّ ليُؤكل.

أخذها "شينغ سي ون" إلى المطبخ وفتح الدولاب في سعادة:

- واو! سمك و"توفو"، يُمكنني مساعدتكِ في تسخينهما في الميكروويف، أتـرين هـذا الـزر؟ اضغطي عليه وسوف يعمل، لكن تذكري: لا يمكن وضع الأطباق المعدنية في الميكروويف.

ثم انشغل "شينغ سي ون" قليلًا، ويداه البيضاء العريضة أمامها. تحرَّكت مشاعرها. كانت تعتقـد أن من تتزوج بقريبها "زينج" ستكون أسعد امرأة في العالم.

شاهدها "شينغ سي ون" وهي تأكل الطعام الساخن والنودلز، وقال:

- تناولي المزيد إلى أن تشعري بالشبع.

عندما عادا إلى غرفـة المعيشـة، كانـت الخالـة الثالثـة و"شـياو يـي" حبيبـة "شـينغ سي ون" تشـاهدان التليفزيـون في صـمت، لكـن انتبـاههما لم يكـن موجهًـا إلى التليفزيـون، في البدايـة ابتسمت "شياو يي"، وقال "شينغ سي ون" إنه سينام تلك الليلة في غرفة المعيشة، وتنام "أر مـي" في غرفته. قالت "شياو يي" فجأةً:

- عليَّ المغادرة الآن.

لم تشعر "أر مي" أن حبيبته غاضبة. حدقت ببساطة وتأمَّلت تلك الفتـاة التـي تعـيش في العاصمة، بشعرها الطويل النظيف. شعر بُنِّي طويل متهدِّل على كتفيها. مثـل فاتنـات الأفـلام الأجنبية. أرادت قول شيء لـ"شياو يي"، لكنها لم تنظر إليها، فقـط ألقـت السـلام عـلى الخالـة الثالثة قبل أن تذهب.

قالت الخالة الثالثة:

- يا "شينغ سي ون"، إن "شياو يي" غاضبة.

كان يجلس ويديه تزيح شعره عن جبهته، فقال:

- حقًّا؟

- أي نوع من الفتاة تبحث عنها في النهاية؟

لكن "شينغ سي ون" لم يُعرِ حديثها انتباهه، وقال:

- فلتذهبي للنوم الآن يا "أر مي".

ثم وضع سماعات الأذن وبدأ في الغناء:

- البراري الممتدة هي بيتي...

بالنسبة لوضع "أر مي"، فقد ناقشت العائلة الأمر أكثر من مناقشات دخول الصين في منظمة التجارة العالمية. قررت في النهاية السماح لها بالبقاء. أجرت الخالة الثالثة نقاشًا رسميًّا مع "أر مي". أطفأت التليفزيون وجلست بشكل رسمي، وقالت:

- "أر مي" تعالي إلى هنا.

جاءت "أر مي" إلى منزل الخالة الثالثة سابقًا مع والدها ووالدتها. أخرج الأب عددًا من مشروب الشاي والبطاطا المجففة، وبازلاء البقرة، من جيبه المصنوع من جلد الثعبان. كانت الخالة الثالثة تحب تلك المأكولات من بلد "أر مي". في هذا الوقت، كانت تعامل عائلة "أر مي" كضيوف. لكن الآن أصبحت الأمور مختلفة، فوقفت "أر مي" أمامها وذراعاها متدليتان دون إرادة منها. قالت الخالة الثالثة:

- يجب أن نعقد اتفاقًا، تقومين بأعمال المنزل ونقوم بتوفير الطعام لكِ، كما سندفع لكِ ١٠٠ يوان كراتب، مما يجعل المجموع يصل إلى أربعمائة أو خمسمائة، وهو ما يفوق راتب التقاعد، عندما يكون بالمنزل اثنان من كبار السن المتقاعدين وواحد فقط يخرج للعمل، تكون الأعمال المنزلية قليلة. واستقدام مديرة منزل ليس بحل اقتصادي، لذا عليكِ القيام بالأعمال بشكل جيد. عليكِ التنظيف يوميًّا، ليس فقط الأسطح، لكن الأركان المظلمة كذلك، أما بالنسبة للطعام، فليس عليكِ فقط طهوه، بل جعله شهيًا كذلك.

بعد قولها هذا، أخذت حقيبة "أر مي" من غرفة "شينغ سي ون"، وقامت بوضعها على دولاب الأحذية في الشرفة.

- اذهبي إلى دولاب غرفة التخزين، وأخرجي السرير الصغير. يُمكننا وضع سرير هنا، لكن هذا لن يناسب ري الأزهار، أترين تلك الزهرة؟ سوف تتفتح قريبًا، لذا لا ترويها كثيرًا، فقط في الصباح، مثل المطر الخفيف.

- هل أقوم بري الأزهار الآن أم إخراج السرير، يا خالتي؟

- لا يمكنكِ مُقاطعة حديث الكبار، ألا تفهمين؟ تعلمي من أخلاق أمكِ، امرأة نبيلة. لا تغضب من أحد وتفعل كل شيءٍ دون تذمُّر.

- لا يُمكنني التعلُّم من أمي، قلت إنني لن أعيش مثلها.

- لا يُمكنني تخيل هذا أيتها الشابة، ممن ستتعلَّمين إن لم تتعلَّمي من أمكِ؟

- إن أردت التعلُّم من أمي لما أتيت إلى هنا.

- آه، أتريدين تعلُّم العيش كشخص من العاصمة؟ أتظنين هذا أمرًا يسيرًا؟ إن كنتِ ترغبين في ذلك، فسأجعل "شينغ سي ون" يعيدكِ إلى منزلكِ.

صمتت "أر مي".

خرجت الخالة الثالثة لتلعب إحدى ألعاب الطاولة بعد الإفطار. وتركت قبل الخروج مزيدًا من التعليمات: "لا تفتحي التليفزيون خلال النهار". قامت "أر مي" بمسح الأرض، وتنظيف الطاولات والمقاعد والكبائن والنوافذ. ثم جمعت الخضراوات وقامت بتنظيفها. وبعد انتهائها من كل هذا، أصبح المنزل هادئًا. تسلَّقت "أر مي" إلى الشرفة وفتحت مذكراتها.

في الواقع، لقد كتبت الشعر وهي في المدرسة الثانوية.

"أنت نار

وأنا أريد إلقاء نفسي بين ذراعيك".

تلك الجمل التي رآها "ليو قوانغ مينغ"، لم يكن المقصود بها رجلًا، بل نوعية حياة.

أكملت "أر مي" القصيدة:

"أتطلع إلى العيش ككرة لهب

أحمل الشجاعة والتخيُّل

حتى إن احترقت وأصبحت رمادًا".

أخذت تقرأ وتقرأ، وبينما هي تكتب، عادت الخالة الثالثة، ونادت:

- "أر مي"، أين أنتِ؟

كانت تحمل نوعين من الخضراوات، برعم الفول والسبانخ. عندما مرَّت بـالمطبخ لم تتركهـا هناك؛ لأنها شعرت أن "أر مي" يجب أن تحملها.

لكن "أر مي" لم تسمعها، كانت تكتب بعض الجمل المهمة:

"حتى إن أصبح "هو شي هوي" أكثر ثراءً أو أحب "جيوي تسي"، فلن أعجب بـه. يجـب أن أذكر نفسي بذهن صافٍ، عليَّ أن أسير بمفردي".

ووصلت الخالة الثالثة إلى الشرفة، وصوتها غاضب بشكل واضح:

- يا "أر مي"، يا "أر مي".

تفاجأت "أر مي".

عبست الخالة الثالثة، وقالت:

- انظري إلى نفسكِ، ماذا تفعلين خلال اليوم؟ هل انتهيتِ من المهام التي كلَّفتكِ بها؟

ظنت "أر مي" أنها انتهت، وأنه ما من مشكلة، لكن الخالة الثالثة دخلت الحمَّام، وقالت:

- أنتِ كسولة، لم تنظفي المرحاض، ألا تشمِّين الرائحة السيئة؟

شعرت "أر مي" أن الخالة الثالثة تبالغ في الأمر. كان المرحاض نظيفًا مثل البورسلين الأبيض.

قالت:

- لم أشم أي رائحة.

ازداد غضب الخالة الثالثة.

- منذ أن أتيتِ إلى هنا ونحن نشم رائحة البول، رائحة جسدكِ قوية جدًّا حتى أننا نشم رائحة البول في كل غرفة.

احمرَّ وجه "أر مي" خجلًا، وقالت:

- أنتِ خالتي، ونحن نحمل الدَّم نفسه، فإن كانت الرائحة قوية، فلا بد أنني ورثتها من أجدادنا.

ضحكت الخالة الثالثة، وقالت:

- حسنًا، بما أنكِ تقولين إنها مسؤوليتي، فسأساعدكِ.

جعلتها الخالة الثالثة تأكل كمية أقل من اللحم والبيض، وأعدَّت لها طبقًا واحدًا من الخضراوات مع قليل من الملح. كما أصرت على تناولها طبقًا واحدًا من العصيدة المُحضرة بالماء على العشاء. قالت إنه بعد ثلاثة أو أربعة أعوام سوف تزداد "أر مي" صحة، وتذهب عنها تلك الرائحة السيئة. أضافت أنها سارت على هذا النظام لعدَّة أعوام بعد زواجها من العم.

عاد "شينغ سي ون" إلى المنزل في معطف يصل إلى خصره، وبه عدَّة جيوب. قضى عدَّة أيام منشغلًا خارج المنزل. كان دائمًا يربت على كتف "أر مي"، ويقول:

- لقد غبت لأيام قليلة، لماذا تبدين أنحف؟!

كانت "أر مي" تشعر بالدفء من رأسها إلى قلبها. إن سألها "زينج" مزيدًا من الأسئلة فستفقد السيطرة على نفسها وتبدأ في البكاء، لكنه استلقى على الكنبة، وقال:

- إنني منهك. إن الخضوع لسيطرة الآخرين أمر مُملٌّ.

لم تفهم "أر مي" قصده.

أضاف:

- أعتقد أن أمثالكِ يعيشون بصفاء، إنه أمر مثير للإعجاب.

- لماذا تسخر من سُكَّان الريف أمثالي؟

- ماذا؟ إنني أرغب بشدة في الانضمام إليكم. أتعرفين سعر الأرض في المنحدر الحجري؟ بما أن والدكِ رئيس القرية، فلعل بإمكاني شراء قطعة من الأرض بسعر مخفض، يُمكنني بناء فيلا هناك، أجمع زهرة الذهب تحت السور الشرقي، أرى الجبل الجنوبي، والسحب المتحركة والرافعات البرية.

- لكن ليس هناك مياه جارية.

تفاجأ "شينغ سي ون" وضحك:

- إنكِ قريبة بسيطة جدًّا، إنه أمر مثير للإعجاب.

- أنا أخبرك بالحقيقة، هل يمكنك تخيُّل مرحاض متحضر إن لم يكن هناك مياه جارية؟ ماذا عن الاستحمام؟

وقف "شينغ سي ون" بعينين لامعتين وقال فجأةً:

- هذا أمر مثير للاهتمام، يومًا ما، ستقوم المحطة التليفزيونية التي أعمل بها بإنتاج مسلسل تليفزيوني يا "أر مي"، ما رأيكِ إن رشحتكِ لأحد الأدوار؟

قفز قلب "أر مي"، في الأيام التالية، لم يذكر الأمر مجددًا، لكنه بدا نشيطًا على طاولة العشاء.

- هناك سبعة عصافير على الشجرة "أر مي"، قمت باصطياد واحد، فكم يتبقى على الشجرة؟

- ولا واحد، ستحلِّق كلها بعيدًا في فزع.

- ما نوع المياه المستخدمة في عملية "استخدام المياه المنظم"؟

فكَّرت قليلًا، وقالت:

- المياه الجارية؟

ابتسم "شينغ سي ون"، وقال:

- لا.

نظرت "أر مي" إلى الدَّلو النظيف، وقالت:

- مياه المواسير؟

هزَّ رأسه، وقال:

- خمِّني ثانيةً.

قالت الخالة الثالثة:

- ما الهدف من هذا؟

تجاهل أمه، وقال:

- لا يمكنكِ التخمين مجدَّدًا؛ لأنكِ لا تملكين هذا النوع من المعرفة، هذا ليس خطأكِ.

سألت "أر مي":

- إذًا، ما الإجابة؟

- الأجر، ونسميه الراتب.

- لا عجب أنني لم أتمكَّن من التخمين، فلم أحصل على راتب قط.

تدخَّلت الخالة الثالثة:

- كيف تقولين هذا؟ تلك المئة يوان التي أعطيها لكِ هي راتبكِ.

لم ينطق أحد.

وقفت "أر مي" في صمت ونظفت الأطباق. ظلَّت الخالة الثالثة والعم جالسين هناك ينظفان أسنانهما. أخذ "شينغ سي ون" ريموت التليفزيون وبحث في القنوات من ١ إلى ٣٤، كان يقول إن بإمكانه الوصول إلى ٤٣، لكن من سيهتم بالبحث في كل تلك القنوات؟ غسلت "أر مي" الطبق ثلاث مرَّات في المطبخ، حتى انتهى عرض مسلسل تليفزيوني كامل.

أتى "شينغ سي ون" إليها.

- هل يُمكنني المساعدة؟ ماذا تغسلين الآن؟

اقترب منها فشعرت بحرارة جسده تحيط بها، شعرت بالتوتر.

- اخرج، لست مضطرًا للوجود هنا.

ابتسم "شينغ سي ون"، وقال:

- سآخذكِ لحضور عرض، هل تأتين معي؟

لم تصدق "أر مي".

- لا أحب هذا النوع من المزاح.

- ليست مزحة. الأمر يتوقَّف عليكِ.

خرج "شينغ سي ون" بشكل تقليدي، كأنه لا يهتم بأمر ذهابها.

أسرعت "أر مي" وتركت الطبق، قائلة:

- سوف أذهب.

سمعها الجالسون بغرفة المعيشة، فقالت الخالة الثالثة بغضب:

- أين صديقتك "شياو يي"؟ عليك أخذها هي، لا "أر مي".

ابتسم "شينغ سي ون"، وقال:

- لا تستمعي إلى أمي. لقد أعطتكِ مئة يوان كراتب، لكنني سأعطيكِ مئتين.

لم تنظر الخالة الثالثة إليه، بل حدَّقت في "أر مي"، ولم تحتمل "أر مي" تلك النظرات الحادة. ذهبت إلى الشرفة، وقالت:

- لن أذهب إلى أي مكان، سوف أخلد إلى النوم.

في الصباح التالي، لم تذهب الخالة الثالثة للعب "الماجونج". بحثت عن الأدوية في الدرج وتناولت اثنتين كأنهما حبَّات فشار. ثم هدأت، واستلقت على الكنبة.

- يجب أن أتحدث إليكِ يا "أر مي".

- أنا أنظف المرحاض.

- لا أهتم إن كنتِ تنظفين الذهب، تعالي إلى هنا. "شينغ سي ون" قريبكِ، أتعلمين هذا؟

- بالتأكيد.

- كان له حبيبات عدَّة، هل تعرفين ذلك؟

هزَّت رأسها.

- ولماذا قد أعرف شيئًا عن هذا؟

- هناك أمور أفضل ألا أتحدَّث عنها، لكن إن لم أذكرها ثم وقع شيء فسأعيش نادمة. يملك "سيوين" العديد من الحبيبات، وجميعهن فاتنات. أنتِ تبدين شهية، لكنكِ مجرد غراب، وهن مقارنة بكِ يصبحن عنقاوات. لذا عليكِ إدراك هذا، لديكِ نار في جسدكِ، ابتعدي عن قريبكِ. يمكنكِ القيام بأي شيءٍ في مثل سنكِ.

أرادت "أر مي" إلقاء فرشاة الحمام على الأرض والصراخ بها، أرادت القول: "لا أريد أن أسمع المزيد من هذا الحديث يا خالتي".

لكنها حركت شفتيها ولم يخرج شيء. في قلبها شعرت بالقلق حيال نفسها.

ربتت الخالة الثالثة على شعرها، وقالت:

- كنت مكانكِ، لا يمكن قراءة شيءٍ في عيني، لدى "شينغ سي ون" الكثير من الطرق لجذب الفتيات، إن قال عشرة أمور فواحد منها فقط صحيح، إن عاد ليراكِ فلا تعيريه انتباهًا.

في هذه الليلة، غطت "أر مي" نفسها بالأغطية الثقيلة وبكت. أرادت بشدة الذهاب إلى محطة الباص في اليوم التالي والعودة إلى المنحدر الحجري. لكن كيف ستواجه "هو شي هوي"؟ سوف يسخر منها هو و"جيوي تسي".

وجدت رقم تليفون في الصفحة الأخيرة من مذكراتها. تركته لها "بيتش" قبل أن ترحل. لم تكن تنوي استخدامه، لكن في هذا الصباح في أثناء ممارسة الخالة لألعاب الطاولة بالخارج، قامت بطلب الرقم. أجابت "بيتش" بلهجة صينية شمالية:

- مرحبًا، صالون تجميل "منغ ني نا"، كيف يُمكننا خدمتك؟

قالت "أر مي":

- أنا "أر مي" يا "بيتش".

عادت "بيتش" إلى لهجتها المحلية:

- "أر مي"! أين أنتِ؟ ها أنتِ في العاصمة في النهاية، هل وجدتِ عملًا؟

كانت "أر مي" قد جهزت إجابات كثيرة، لكنها قالت في النهاية:

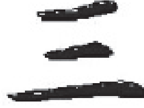
- أنا في زيارة إلى خالتي الثالثة.

قالت "بيتش":

- أوه، لكن "هو شي هوي" أتى باحثًا عنكِ، قال إنكِ تركتِ المنحدر الحجري للبحث عن عمل في العاصمة وأنكِ تقومين بأمور عظيمة.

انقبض قلب "أر مي"، وقالت:

- "هو شي هوي"؟



في الصباح، اتصل "هو شي هوي" بـ"أر مـي"، لم يكـن أحـد بـالمنزل غيرهـا وظنتـه شخصًـا أخطأ الرقم، حتى أعاد "هو" قوله ثلاث مرَّات:

- يا "ليو أر مي"!

حاولت إخفاء حماسها، وقالت:

- من المتصل؟

- أهذا أنتِ يا "أر مي"؟ لماذا تتحدثين بصوت منخفض؟ أنا "هو"، هل يمكنكِ سماعي؟

كانت "أر مي" تعرفه، لكنها قالت:

- أوه! أهذا أنت يا "هو"؟ ما الأمر؟

- لا شيء، أردت التَّحدُّث إليكِ. أنا بالعاصمة الآن أبحـث عـن عمـل. بحثـت عنـكِ حيـث تعمل "بيتش"، وحصلت منها على رقم تليفونكِ.

- لديك المال، ووالدك أصبح رئيس القرية، لما لا تبقى بالمنزل وترافق "جيوي تسي"؟

ظل صامتًا لوهلة، ثم قال:

- أرادت "جيوي تسي" المجيء أيضًا، لكنني رفضت.

شعرت "أر مي" كأن قلبها ينتزع، ثم شعرت بدفءٍ يغمرها، لكنها قالت ببرود:

- لا يهمني إن رفضت أو وافقت، إن لم يكن لديك شيء آخر لتقوله فسأغلق الخط، وداعًا.

وبعد ثلاث دقائق، اتصل مجددًا:

- هل أصبحتِ مثل سُكَّان العاصمة يا "أر مي"؟

شعرت ببعض من الفخر:

- أنا آسفة جدًّا، لكنني حقًّا منشغلة، يُمكننا التَّحدُّث لاحقًا، حسنًا؟ إلى اللقاء.

اتصل بها خمس مرَّات في هذا اليوم، من حسن الحظ أن الخالة الثالثة لم تكن موجودة في المنزل حينها. كانت "أر مي" تسرع للرد على التليفون بين عملها. كان حماسها يزداد، ورنين التليفون يبدو أكثر موسيقية. عندما عادت الخالة الثالثة، وجدت وجه "أر مي" محمرًا. لكنها لم تستطع إنكار جهدها الواضح. قامت "أر مي" بجميع المهام التقليدية، بل أضافت إلى ذلك تنظيف الحوائط الأربعة للحمام، وتركته مليئًا بالرائحة العطرة.

حاولت الخالة الثالثة ذكر "شينغ سي ون"، لكن "أر مي" لم تبدِ رد فعل. منذ حدثتها الخالة الثالثة تلك المرَّة، أصبح العبوس يكسو وجه "أر مي" كلما ذُكر اسمه في المنزل. حتى العم لاحظ ذلك واشتكى إلى الخالة الثالثة تعكر مزاجها دون سبب واضح.

منذ هذا الحين، أصبح "هو" يتصل بـ"أر مي" كل صباح، تمتد المكالمة ما بين عدَّة دقائق وعدَّة ساعات. أخبرها أنه وجد وظيفة في مجال غاز الفحم. ضحكت "أر مي" وقالت إنه اختار أن يكون عاملًا بمجال الفحم في العاصمة بدلًا من كونه رئيسًا لمناجم الفحم في المنحدر الحجري. قال "هو" إنه عمل

مرن، وإنه لا يهتم بكم المال الذي سيجنيه ما دام حظي بفرصة للتعرف على العاصمة أكثر.

قالت "أر مي":

- كأنك تريد أن تصبح عمدة العاصمة، لماذا تريد أن تتعرف جيدًا على العاصمة؟

طلب منها مقابلته مرّات عديدة وجهًا لوجه، لكن "أر مي" كانت تصدُّه قائلة:

- آسفة، ليس لديَّ الوقت.

- أخبريني أين تعملين، وسآتي لرؤيتكِ.

- لا ترهق نفسك، فكلانا منشغل.

قال "هو" بصوتٍ منخفض:

- هناك أمور لا يُمكنني إخباركِ بها تليفونيًّا. أمور يجب قولها وجهًا لوجه. هل نسيتِ أمرنا؟ ما قلتيه أمام منزلي جعلني أعجز عن النوم لعدَّة أيام. فكرت في الأمر كثيرًا وتركت كل ما أعدَّه أبي من أجلي. جئت إلى العاصمة. في الواقع جئت أبحث عنكِ. أعلم أنكِ تسعين وراء أمر كبير، فاسمحي لي أن أرافقكِ في سعيكِ، حسنًا؟

لان قلبها واضطرب رأسها. أرادت إخباره بافتقادها له أيضًا. إن لم تكن تفتقده لما وبخته هذا اليوم ولما كتبت عنه في مذكراتها.

تذكرت أنهما كانا يتشاركان المقعد ذاته في المدرسة الثانوية، وأنه في يوم ممطر قد أعارها شمسيته وغرق هو في المطر مثل الفأر المُبلَّل. تذكرت يوم طلبت منهم المدرسة جمع الصخور، فجعلها "هو" تجلس في الظل لتشرب الشاي، وقام هو بإنهاء مهامها.

كان شباب المنحدر الحجري يعرفون أن "هو" يسعى إلى إرضاء "أر مي". لكنها لم تكن منجذبة إليه بسبب نحافته، وقصر قامته، كان أطول منها بفارق صغير. كما كانت تعرف أن طموحه ليس كبيراً، ونتائجه المدرسية ليست جيِّدة. في النهاية، قام بالسعي وراء "جيوي تسي" أيضًا. فكيف يمكنها أن تحبه بإخلاص؟

لذا، قالت "أر مي" بهدوء:

- "هو"، نحن مجرد زملاء دراسة، لا أريد أن يكون لديك أفكار مختلفة، إن كان لديك أمر مهم لتقوله فلتتصل بي، لكن إن لم يكن الأمر هام أو يستدعي الاتصال فلا تزعجني، هل فهمت؟

في تلك اللحظة، سمعت صوت مفتاح في الباب من غرفة المعيشة، أغلقت الخط دون أن تقول وداعًا، أسرعت الخالة الثالثة إلى الداخل ونظرت إلى يد "أر مي"، التي تركت التليفون للتَّوِّ. سألتها الخالة الثالثة:

- هل كنتِ تتحدثين في التليفون؟

قالت "أر مي":

- أجل، لقد تلقَّيت اتصالًا.

- لا فارق بين اتصالكِ بأحدهم أو تلقي الاتصال، فالأمر يأخذ أكثر من ساعة، ماذا كان الأمر ولماذا كنتِ تتحدثين لوقت طويل؟ اتصلت عشرات المرَّات، وكان الخط مشغولًا دائمًا.

- ماذا كنتِ تُريدين مني فعله؟

- اشتدت الرياح في الخارج، أردت منكِ إدخال الغطاء، لكن بغض النظر عن كل شيءٍ، أخبريني بهوية المتصل؟

كانت "أر مي" تشعر بالضيق من خالتها، أجابتها دون اهتمام:

- صديقة من قريتي.

- صديقة أم صديق؟ ولماذا تحدثتِ لمدة طويلة؟

- صديقة، اسمها "بيتش"، تعمل في صالون التجميل. أخبرتني ببعض الأمور عن بلدتنا.

أخبرتها أن "بيتش" كانت زميلة لها من المدرسة في القرية، لكن لها أخ أصغر منها في المدرسة، يتميز بالذكاء، وهم لا يستطيعون سداد المصروفات، فكان على "بيتش" إيجاد عمل.

قاطعتها الخالة الثالثة قائلة:

- لا أنتقدكِ، لكن عليكِ معرفة القواعد الخاصة بالعمل في المنزل. لا يمكنكِ شغل تليفون أصحاب المنزل لوقتٍ طويل، إن فعلتِ ذلك في منزل آخر، لطردوكِ من المرَّة الأولى.

لم تعرف "أر مي" إن كان عليها أن تكره نفسها أم تكره الخالة الثالثة، لكن بعد أن أعادت التفكير في الأمر، قررت كره "هو شي هوي"، ولما كان من تكره غائبًا، أصبحت تتحدث أقل.

عاد "شينغ سي ون" وربت على كتف "أر مي" برفق، وسألها عن الأطباق التي يمكنهم تناولها. لم تجب. وبعد وضع الأطباق على مائدة الطعام، عادت إلى المطبخ. جلس "سيوين" على المائدة وسأل:

- ما خطب "أر مي"؟ ترفض التَّحدُّث ولا تجيب عن أسئلتي.

قالت الخالة:

- لماذا تحدق بي؟ كفتاة، يجب أن تعرف هي القواعد، سوف أجعلها تغير تلك الطريقة في التعامل.

كانت "أر مـي" تقـف في المطـبخ، تتنـاول طبقًـا مـن الـخضراوات، وتسـتمع إلى المحادثـة الجارية في غرفة المعيشة. تمنت لو يناديها "شينغ سي ون" لتناول الطعـام عـلى المائـدة، لكنـه كان منشغلًا بالرد على التليفون خلال العشاء.

- أحضر حالًا؟ لما لا تسمح لي بالراحة اليوم أيها القائد، وسأراك في الصباح الباكر.

أنهت "أر مي" طبقها، لكن "سيوين" لم ينهِ المحادثات. خرجت بتبـاطؤ لتنظيـف المائـدة، فابتسم العم، وقال:

- كان السمك حارقًا قليلًا، يقول الطبيب إنه يفضل تناول أطعمة قليلة التوابل.

قالت الخالة الثالثة:

- لا مانع من التوابل، لكن لا تستخدمي الكثير من الزيت.

حرك "شينغ سي ون" ساقيه حتى تتمكَّن "أر مي" من تنظيف الأرز المتناثر تحت قدميـه، وقال:

- عليَّ الذهاب، لقد أصر قائدي على حضوري الآن.

قالت الخالة الثالثة:

- في مثل هذه الساعة؟

وضع يده على جيبه، وقال:

- يومًا ما سأترك هذه الوظيفة.

واصلوا الحديث ولم ينظر أحد إليها، أو هكذا شعرت. لم تكن تنتمي إلى هـذه الغُرفة. نظرت إلى "شينغ سي ون" خلسة، كـان يتحـدث عـن الاسـتقالة بسـعادة. على أي حال، لم تفهـم سـبب رغبتـه في تـرك العمـل، كـان مـن هـذا النـوع مـن الأشخاص، الذي يقول شيئًا ثم يفعل عكسه. لا يمكن أن يكـون مـا يقولـه صـدقًا، لقـد وعـدها باصـطحابها لمشـاهدة مسرحيـة، لقـد كتبـت الأمـر في مـذكراتها

وفي قلبها، لكن من الواضح أنه نسي الأمر تمامًا. لا يمكنها إخبار أحد بتلك الأمور، لكن ربما تخبر "هو شي هوي" إن اتصل بها.. وإلا فستختنق.

انتظرت ثلاثة أيام، لكن "هو شي هوي" لم يتصل بها. لم تظن "أر مي" أن الأمر ذو معنى في البداية، لست أحبك ولا أريد أن أحبك حتى إن اتصلت بي. في الصباح التالي، لم تستطع مقاومة النظر إلى التليفون الأبيض. لكن جرسه لم يرن من الصباح وحتى المساء، سوى مرَّة واحدة، كان مالك العقار يلح عليهم لسداد فاتورة الكهرباء، شعرت "أر مي" بالضيق، اتصلت بي سابقًا، لكن عندما أحتاج إلى التَّحدُّث إليك تقرر عدم إزعاجي.

في اليوم الثالث، لم تستطع تحمل الأمر، عندما خرجت الخالة الثالثة لسداد فاتورة الكهرباء، قامت "أر مي" بالاتصال بـ"بيتش"، لكن "بيتش" لم تكن هناك.

أجابت على التليفون سيِّدة قالت إن حبيب "بيتش"، "تيان"، قد أتى وخرجا للبحث عن شقة. سألت عن ميعاد عودتهما. قالت السيِّدة إن "بيتش" قالت إنها ستعود إلى العمل لاحقًا، لكن المدير سمح لها بيومين إجازة، غدًا وبعد غد.

واصلت "أر مي" الاتصال بصالون التجميل خلال غياب الخالة الثالثة، حتى حفظ جميع العاملين هناك صوتها.

عندما عادت "بيتش"، قامت بالاتصال بها، لكن لسوء الحظ، أجابت الخالة الثالثة التليفون. كانت تشاهد التليفزيون، فقالت بضيق:

- اتصال لكِ.

خافت "أر مي" أن تنظر إلى وجهها.

- ما الأمر يا "أر مي"؟ يقولون إنكِ واصلتِ الاتصال مثل المجنونة.

لم تعرف "أر مي" ماذا يجب أن تقول.

- لا شيء، أردت الاطمئنان عليكِ.

أطلقت "بيتش" تنهيدة طمأنينة، وقالت:

- هذا كل ما في الأمر؟ حسنًا إن كان لديكِ وقت، لما لا تأتين لقضاء بعض الوقت معًا؟

سألت "أر مي" عن المكان، فأخبرتها "بيتش" أن تستقل الباص رقم ١ إلى الجسر، وبعد 300 متر ستجد على اليمين مطعم "كنتاكي"، ثم تستمر في السير إلى أن ترى لافتة الصالون. ثم قالت "بيتش" بفخر:

- أسير كثيرًا هذه الفترة مع "تيان كواي هوه"، أصبحت أعرف العاصمة كلها، أراد "تيان" أن يزوركِ، لكنني أخبرته أنكِ رفضتِ حتى رؤية "هو شي هوي"، فما بالكِ به!

رغم أن سعال الخالة الثالثة كاد يصيبها بالصمم، قررت أن تسأل:

- ألا يسكن "هو شي هوي" مع "تيان كواي هوه"؟

- ألم يخبركِ "هو"؟ كان سيعمل في "شن تشن"، لكن والده توصل إلى مكانه في العاصمة وأمره بالعودة.

صاحت الخالة الثالثة:

- "أر مي" هذا تصرُّف شائن.

فاضطرت أن تغلق الخط.

قالت:

- ما الأمر؟ اتصل أحدهم ولم ينهِ حديثه بعد، أعرف أن المحادثة طالت لكنكِ لن تحتاجين إلى سداد قيمتها.

- لقد تعلَّمت الرد! اغربي عن وجهي.

لو لم تتحرَّك "أر مي" سريعًا لنالت صفعة من ذراع الخالة الثالثة المرفوعة.

ذهبت إلى الشرفة وأدخلت الملابس، ثم اتجهت إلى المطبخ وقامت بإعداد الطعام. عاد العم و"شينغ سي ون".

سألاها:

- ما الأمر؟ لماذا لم يُجهَّز الأرز بعد؟

كانت الخالة الثالثة شديدة الغضب فلم تتحرَّك من الكنبة، وقالت:

- تحدثت في التليفون لمدة طويلة. لم يكن لديها وقت لإعداد الطعام. حتى أنها أرادت ترك المنزل عندما انتقدتها قليلًا.

تمتم العم:

- لا بُدَّ أنكِ أسأتِ إليها.

قال "شينغ سي ون" بابتسامة:

- لا ترحلي يا "أر مي". سأعتذر لكِ بالنيابة عن أمي. يمكنكِ الرد على التليفون عندما يتصل أحدهم. نحن شباب ولدينا أصدقاء.

قفزت الخالة الثالثة عند سماع ذلك، وقالت:

- أنتما السبب في كونها مُدلَّلة، يجب عليَّ ضربها وتوبيخها أيضًا. يمكنها الرحيل إن أرادت، قلت إن علينا تقليل الاتصال بسكان المنحدر الحجري، علينا تجنب التورط في المشكلات معهم.

لكن "شينغ سي ون" منع "أر مي" حين عزمت على الرحيل. أخذ أمتعتها من يدها برفق، وعندما أرادت استردادها، أمسك بمعصمها بقوة. كانت يده دافئة، وبيضاء، ونظيفة رقيقة. كانت قد أمسكت بيد "هو شي هوي" وهم أصغر سنًّا. كانت يده جافة وأصابعه قصيرة. في الواقع، لم تحبهم "أر مي".

لكن عندما لمستها يدا "شينغ سي ون"، عرفت في قلبها أنها تتطلع لهـذا النـوع مـن الرجـال. وبينما يدور هذا في ذهنها، شعرت بالعرق يسيل منها.

- دعني.

ابتسم وقال:

- عودي.

فعادت في هدوء إلى الشرفة.



四

علقت بها رائحة خفيفة من السجائر والبيرة، بعد أن أمسك بها "شينغ سي ون". كانت رائحة رجل حضري.

كانت تخشى هذه الرائحة.

ذهب "شينغ سي ون" إلى الشرفة لإحضار حذائه. خلدت "أر مي" إلى النوم بالفعل. ولما كان دولاب الأحذية إلى جانب سريرها، مال عليها "شينغ سي ون"، وتأمَّل الفتاة النائمة. كان قريبًا من وجهها عندما فتحت عينيها.

- آه.. لستُ نائمة!

نظرت إليه وعقلها يغلي مثل الماء، ولمس "شينغ سي ون" وجهها قائلًا:

- آه يا فتاة!

لم تهدأ حتى منتصف الليل، بعد رحيل "شينغ سي ون". وبَّخت نفسها لأنها سمحت له بلمسها دون أن تواجهه بكلام حاد، وكذلك لترقبها لمسه لجسدها، شعرت بالذنب عندما تخيَّلت أنه لو فعل ما يدور بذهنها، لتقبَّلته ببساطة.

كان عليها الرحيل، وإن لم تشأ. قالت الخالة الثالثة إن تكاليف الكهرباء والماء تضاعفت. أما بالنسبة لفاتورة التليفون، فسوف تذهب الخالة الثالثة إلى هيئة الاتصالات لتحصل على قائمة بالأرقام ومن ثمَّ تقيِّم الموقف. شعرت بالقلق

حيال ذلك. لقد اتصلت بـ"بيتش" عشر مرَّات على الأقل. وأصابها الرعب عندما تخيلت رد فعل الخالة حين تعرف هذا.

حزمت "أر مي" أمتعتها في هدوء، وشاهدت التليفزيون وهي تجلس على الكنبة بعد أن أعدت كوبًا من الشاي للعم، قبل أن تخلد إلى النوم. لم تأخذ تلك الملابس القديمة التي أعطتها لها الخالة، رغم ما قالته الخالة عن قيمتها الثمينة؛ معطف ثقيل من الصوف الأزرق الداكن. قالت الخالة إنه كان أجمل فساتينها خلال رحلة شهر العسل. لكن "أر مي" لم تحبه، جعلته البطانة الثمينة عند الكتفين سخيفًا. وهناك وشاح آخر مطرز بالخرز، كادت تتقيأ عندما وضعته الخالة حول عنقها بسبب رائحة الكافور العالقة به.

وصلت إلى باب صالون "منغ ني نا" للتجميل عند الفجر. تمتاز العاصمة باستمرار الأشخاص والسيارات في الحركة بالطريق حتى منتصف الليل. اكتشفت أن العثور على مكان ليس صعبًا كما بدا الأمر من قبل.

كانت "بيتش" نائمة. استيقظت وحدَّقت بتعجُّب:

- في هذه الساعة المبكرة يا "أر مي"؟

كانت هناك فتاة أخرى ملتفة في الغطاء، سحبت "بيتش" قميصها من تحت قدميها.

قالت "أر مي":

- هذه الغرفة مكتظة حقًّا.

- لا بأس.

كانت "أر مي" تشعر بالجوع. لقد مرَّت أربع ساعات منذ أن رحلت.

- هل يُمكنني الحصول على بعض الماء الساخن؟

ارتدت "بيتش" ملابسها، وقالت:

- دعي الماء يغلي قليلًا، سنبدأ التنظيف في السابعة والعمل في التاسعة.

ثم لاحظت حقيبة "أر مي" تحت قدمها وهي تنهض.

- ماذا حدث؟

نظرت "أر مي" إلى الفتاة النائمة، وهمست:

- قلت إنكِ ستعرفينني على العمل هنا.

لم تستجب "بيتش" سريعًا كما توقَّعت "أر مي". لكنها لم تنتظر، إذ قالت بصوت أعلى:

- وجدت لي الخالة وظائف أخرى، لكنني فكرت أن العمل مع شخص أعرفه سيكون أفضل. لكن بالطبع إن لم تكونوا تمنحون الوظائف لـ...

- ما نوع الوظيفة التي وفرتها لكِ خالتكِ؟ هل الراتب كبير؟

- لقد رفضتها، فلا تسألي عن الأمر رجاءً.

تقلَّبت الفتاة النائمة ورفعت رأسها ونظرت نحو "أر مي":

- هل أنتِ زبونة؟

- كلَّا، هذه صديقتي من القرية.

لم تُعرِّفها "بيتش" على الفتاة، لكنها ظلَّت تحدثها عن العمل وتسأل إن كانت الزبونة الأخيرة قد دفعت الحساب، واستمرت في الحديث هكذا. لكن الفتاة ابتسمت، وقالت:

- هل أنتِ "أر مي"؟ لقد تلقيت منكِ العديد من الاتصالات، أنا "آن".

قفزت "آن" من السرير، وقالت:

- هل يمكنكِ فتح الستائر قليلًا؟

ثم قامت "أر مي" سريعًا بسحب الستائر البنية المزينة بالورود السوداء وسمحت للضـوء بالدخول. وقفت أمام النافذة ونظرت إلى المارة وبدأت في العد. قررت أنها سترحل إن وصـلت إلى العدد مئة دون أن تتحدث "بيتش" إليها.

عند الرقم ٨٠، شعرت بيد على كتفها، استدارت فوجدت "بيتش" تحمل لها كوبًا من المـاء الدافئ. أخذت الكوب وتناولته بنهم فسقط القليل منه على قدمها. قالت "بيتش":

- انتبهي!

ابتسمت "أر مي" بخجل.

كانت المديرة فتاة مذهلة من العاصمة، في العشرينات من عُمرها، أثـارت نـبرة صـوتها في "أر مي" شعورًا بالدونية. تفحصتها صاحبة العمل، من أعلى إلى أسفل، ثم ضغطت على يـدها وقالت:

- فلنجرب لأيام قليلة.

قامت بمهام غريبة لعدَّة أيـام، وكانـت تشـاهد "بيـتش" وهـي تضـع الأقنعـة عـلى وجـه الزبائن. وفي أحد الأيام، كان الصالون مزدحمًا فقالت:

- هل يُمكنني المحاولة؟

أومأت "بيتش" بعدم اهتمام.

أُعجبت صاحبة العمل بـ"أر مي"، وقالت:

- تتعلمين أسرع من هاتين في أيامهما الأولى بالعمل.

خصمت مئة يوان من "بيتش" و"آن"، معلنة أن لديهم الآن عاملة تجميل جديدة.

لم تتحدث إليها "بيتش" طوال الليل ولم ترد على التليفون.

لقد اتصلت بها الخالة الثالثة مرَّة واحدة منذ قدومها إلى صالون التجميل، واتصل "شينغ سي ون" مرَّتين. طلبت من "بيتش" إخبارهما بأنها لن تأتي. لقد تركت لهما رسالة توضح فيها سبب الرحيل. أرادت تعلُّم مهارات جديدة وطلبت منهما عدم البحث عنها. أما عن عائلتها، فستتصل بهم وتطمئنهم. لكن الخالة ثارت وصاحت أن "أر مي" خانتهم، فارتفع ضغط دمها واضطرت إلى ملازمة الفراش عدَّة أيام. أما "زينج" فطلب منها إخباره إذا عرفت شيئًا جديدًا عن "أر مي". خافت "أر مي" من الرد على التليفون، فقد تكون الخالة. لكن رغم ارتفاع صوت الرنين فقد جلست "بيتش" تقرأ المجلات كأنها لا تسمع شيئًا.

خرجت "آن" من الحمام مهرولة، وقالت:

- لما لا يرد أحد على التليفون؟

لكنه توقف عن الرنين فور وصولها إليه.

قالت لـ"بيتش":

- هل ستستحمِّين الليلة؟ يُمكنني تجهيز الماء الساخن لكِ.

- كلَّا، يُمكنني تجهيزه بنفسي.

أخرجت "أر مي" الـ٣٠٠ يوان – أعطتها إيَّاها صاحبة العمل سابقًا – ووضعت مائة في جيبها وأعطت واحدة لـ"آن" وواحدة لـ"بيتش".

سألتها "آن" عن السبب، فقالت:

- أنا مدينة لكما.

كانت "بيتش" أكثر سعادة بالأمر، وقالت:

- لم أطلب منكِ إعادة المال، إن عرفت صاحبة العمل بالأمر فستلومني.

قالت "آن" بإعجاب، وغير تصديق:

- هذا تصرف لطيف منكِ. لكن الأمر لا يعتمد فقط عليكِ، يعتمد على مهارات الفرد، من حسن الحظ أن صاحبة العمل قدَّرت مهاراتكِ، ليس عليكِ التصرف كأنكِ مدينة لي.

كان لـ"بيتش" رأي مختلف، قالت:

- يعتمد الأمر أيضًا على كيفية حصولها على هذا الحظ.

كان هناك متجر ملابس إلى جوارهم، اشترت "أر مي" ثلاث سترات دون تردد، واحدة باللون الوردي، وأخرى بيضاء، وثالثة باللون الأخضر الداكن. طلبت من "بيتش" الاختيار أوَّلًا، ثم "آن". قاموا بتجارب ارتداء حتى منتصف الليل، وهن يشعرن بالسعادة الشديدة. ثم أجرت محادثة مع "بيتش" في السرير، أخبرتها "بيتش" أنها كانت تريد استئجار سكن خارجي مع "تيان"، لكن "هو" أقنع "تيان" بالبحث عن عمل في "شن تشن"، ذهبا لمدة تقارب الشهرين وأنفقا جميع أموالهما دون العثور على عمل. كانت تحاول إقناعهما بالعودة كلما اتصلا بها. كانت تخشى إصابة "تيان" بأحد الأمراض، كما أن هناك الكثير من فتيات الليل. قالت "أر مي" باهتمام:

- أجل، عليكِ إقناعهما بالعودة في أقرب وقت.

سألت "بيتش" فجأةً:

- لماذا تتجاهلين "هو"؟ حتى أنكِ تغلقين الخط عند اتصاله بكِ.

- ليس لديَّ ما أقوله له.

- أعتقد أنكِ تمنحين نفسكِ أكثر من قيمتكِ الحقيقية. "هو" شاب غني، ووالده رئيس القرية.

كان حديث "بيتش" مُختلفًا بشكل واضح عمَّا كان في الماضي، عندما كان والد "أر مي" رئيس القرية، كان والدا "بيتش" يحترمانه ويقفان له عندما يمر. كانت "بيتش" زميلة المدرسة، لكن لم تكن لديها الفرصة للتحدث إلى "أر مي". لكنها الآن في وضع أفضل من "أر مي". قالت "بيتش":

- عليكِ إدراك أن الرجال يسعون وراء النساء في القرية، لا العاصمة، إن لم تغتنمي الفرصة فستخسرينه، صاحبة العمل جميلة وغنية، ولكنها لم تتزوج رغم عُمرها الذي قارب الثلاثين عامًا.

- سأفكر فيما تقولين.

شعرت "بيتش" بالرضا، وقامت بشراء زوجين من الجوارب الطويلة في اليوم التالي. واقترحت على "أر مي" ارتداءهما مع تنورة.

كانت "بيتش" تترأس العمل عند تغيب صاحبة العمل، كانت "أر مي" تسرع لتنفذ أوامرها. وتقرأ المجلات في وقت فراغها. فتراها صاحبة العمل إما تعمل أو تقرأ. وفي يوم ما، سمعت صاحبة العمل إحدى الزبونات تسأل "أر مي" عن بُقع الوجه. فشرحت لها أنه إن لم تكن المشكلة تتعلق بالغدد، فكما تقول "بيتش"، هناك علاج صيني تقليدي يمنع تجمع الدم. ليتم الشفاء في خلال أشهر قليلة. أومأت الزبونة وقامت بعقد اشتراك نصف سنوي قبل الرحيل. ابتسمت صاحبة العمل وسألت "أر مي" أين تعلَّمت ذلك.

- تعلَّمت من المجلات، القسم الخاص بالتجميل. كما اشتريت بعض الكتب من السوق.

كانت صاحبة العمل مدرسة موسيقى، أنهت رسالة الماجستير للتَّوِّ، وفتحت هذا الصالون من أجل متعتها الخاصة، وهو أمر ممتع لها مقارنة بالمذاكرة. قالت لـ"بيتش" و"آن":

- هل انتبهتن إلى هذا الأمر؟ خاصة أنتِ يا "بيتش"، فأنتِ هنا منذ عامين، يجب أن تتعلَّمي أكثر، الزبائن عادة أغنياء ومتعلمون، يجب أن تتواصلي معهم بشكل أفضل.

في تلك الليلة، توقفت "بيتش" عن التَّحدُّث إلى "أر مي" مجددًا، لكن "أر مي" لم تكن تملك سوى ١٠٠ يوان لذا عجزت عن شراء السترات مجددًا. يجب أن تكون قوية. ثم توقفت "بيتش" عن الرد على التليفون ومنعت "آن" من ذلك أيضًا. فأصبح على "أر مي" الرد على التليفون.

- من حسن الحظ أن الاتصالات جميعها كانت من زبائن.

لم تعرف "أر مي" ماذا حدث، بينما كانت تتجاهل التليفون. أثار والدها جدالًا مع الخالة الثالثة التي أعطت الخطاب إلى والدها، وقالت:

- ابنتك الوقحة، لقد رحلت مثل اللص! وأخذت شمسيتي الجديدة التي كلَّفتني ضعف السعر التقليدي.

تجاهل الأب حديث الخالة وقرأ الخطاب، ثم صفع الطاولة، وقال:

- لا يمكنكم التحايل عليَّ لأنكم من العاصمة، إن لم تحضروا لي ابنتي فسوف تكونون مدينين لي لبقية العُمر.

لم يتوقَّع مجيء الأب، قال:

- لا بُدَّ أنكم أسأتم معاملتها، لذا رحلت في صمت.

شعرت الخالة بالذنب، وأحضرت قائمة المكالمات للأب:

- لقد أجرت الكثير من الاتصالات، لا بُدَّ أن لها حبيبًا. إن كانت تخطط للرحيل فما كنا لنعرف ذلك.

- هل لديكِ دليل على إجرائها هي لهذه المكالمات؟ أو دليل على وجود حبيب؟ عليكم إعادة ابنتي.

- كنت رجلًا وقحًا قبل زواجك بأختي، والآن، رغم أنك لم تعد رئيس القرية، فلا تزال رجلًا وقحًا.

أخذ منها الخطاب، وقال:

- تقول في الخطاب إنكِ قمتِ بتعيينها خادمةً، أصبحت مرؤوستكِ.

قال الخالة بغضب:

- حسنًا، كل الأمور سواء.

ذهبوا للبحث في العاصمة. اتصلت الخالة بالأرقام التي كانت "أر مي" تتصل بها، لكن لم تحظَ بأي رد. أراد "زينج" وضع إعلان على التليفزيون للبحث عنها، وقرر العم إبلاغ الشرطة. جلس الأب معهم لمدة أسبوع، كان يدخن يوميًّا، حتى كاد يفقد وعيه. ثم تلقى "ليو قوانغ مينغ" الخطاب من "أر مي"، وعرف أنها ذهبت للعمل في مكان آخر. طلبت منهم عدم القلق، وأخبرتهم أنها سترسل الخطابات. اتصل "ليو قوانغ مينغ" بالخالة الثالثة من التليفون المركزي وطلب من والده العودة لزراعة المحاصيل. لم تعد أمه تقوى على الزراعة، بسبب مرضها. كانت مصابة بالروماتيزم. لكن الأب رفض العودة قائلًا إن "أر مي" لم تترك عنوانًا، رغم تركها للخطاب قبل رحيلها. من الواضح أنها كانت خائفة. طلب الأب من الخالة الثالثة تعويض "أر مي" وسائر العائلة عمَّا سبَّبته لهم من متاعب.

أصبح "زينج" يقضي وقته كله في العمل. والخالة والعم في قلق يومي. أغلقا الباب عندما كان الأب يشتري السجائر، وسافر إلى "شانغهاي". كان عليه

العـودة، قـال الـبعض إنهـا اختفـت، والـبعض قـال إنهـا بيعـت كفتـاة ليـل إلى "ماليزيـا" أو "سنغافورة".

لذلك، عندما أتت "جيوي تسي" إلى صالون "منغ ني نـا" للتجميـل، صرخـت مـن المفاجـأة عندما رأت "أر مي".

رغم أن "جيوي تسي" قالت إنها أتت إلى العاصمة باحثة عـن عمـل، اسـتنتجت "أر مـي" من اللحظة الأولى أنها أتت للبحث عن "هـو". أرادت "أر مـي" مـن أعـماق قلبهـا لـو ترحـل "جيوي تسي"، لكن "بيتش" قدَّمتها إلى صاحبة العمل دون مناقشـة الأمـر معهـا مطلقًـا. ولأن العمل كان نشيطًا في تلك الفترة، والزبائن يصطفون أمام الصـالون، وإعجـاب صـاحبة العمـل بجمال "جيوي تسي"، قالت صاحبة العمل:

- لا بُدَّ أن قريتكن جميلة، فجميع فتياتها يتميزن بالجمال. تتمتَّع "أر مي" ببشرة ورديـة، إن ارتدت بعض الملابس الجميلة معها، فستبدو فاتنة أكثر من فتيات الـحضر، ولسـنا بحاجـة للحديث عن "بيتش".

ثم أضافت:

- يمكنكن جميعًا العمل هنا تحت قيادة "أر مي".

قالت "أر مي" فورًا:

- لكن "بيتش" قائدة أفضل مني، إضافة إلى خبرتها الأكبر في العمل هنا.

قالت صاحبة العمل:

- لقد أصدرت قراري، ليس هناك ما نتحدث عنه، ولا تقلقـن بشـأن الرواتـب لأن شخصًـا جديدًا انضم إلينا، فسوف أعوض المائة يوان المخصومة منكن من الشهر الماضي بنهاية العام.

غادرت الزبونة الأخيرة، ثم رحلت صاحبة العمل أيضًا. عبرت "بيتش" عن غضبها، وأشارت إلى "أر مي":

- ما معنى هذا؟ لقد أكرمتكِ وقدمتكِ للعمل هنا، لكنكِ تقللين من قدري أمام صاحبة العمل!

أجابت "أر مي":

- لماذا تقولين ذلك؟ لطالما استمعت إليكِ، كما أريدكِ أن تكوني القائدة فعلًا.

كما قالت "آن":

- أوافقها الرأى، لا بُدَّ أنكِ أسأتِ فهمها.

جذبت "جيوي تسي" "بيتش" جانبًا، وقالت:

- أتينا جميعا من القرية ذاتها، وليس العمل خارجها أمرًا سهلًا.

قالت "بيتش":

- لا تحاولي إقناعي يا "جيوي تسي"، فأنتِ تعرفين تفكيرها. في الماضي كانت تتحدث بتعالٍ لأن والدها رئيس لجنة القرية. والآن تريد التصرُّف هكذا مجددًا.

ردت "جيوي تسي":

- فلننسَ الأمر، ليس بشيءٍ مهم.

- لا يُمكنني تحمل المزيد من الأخطاء، أنا نادمة بشدة على تقديمها للعمل هنا، لقد هربت في منتصف الليل وقام رجل ما بالاتصال بها هنا عدَّة مرَّات.

فجأةً، دفعت "أر مي" الباب، وصرخت بصوت أجشَّ:

- أعيدي لي أشيائي يا "بيتش".

خافوا جميعًا حتى عجزوا حتى عن الوقوف، فهمت "بيتش" قصدها بعد لحظات. أرادت أن تصرخ، لكن وجه "أر مي" كان يحترق، وقفت هناك على الباب مثل العنكبـوت، مسـتعدة لقتل أي شخص. لذا خافت من التَّحدُّث معها.

أعادت لها السترة وردية اللون.

أخذت "أر مي" السترة دون كلمة، ثم قطعتها بـالمقص الصـغير المسـتخدم لتقلـيم أظـافر الزبائن. وهي تردُّد:

- سأدعكِ تردِّدين حديثًا بلا معنى.

كان الصوف الوردي يتساقط على الأرض مثل الدم، ولا يجرؤ أحد على منعها.



五

استقالت "أر مي".

كانت تلك الرئيسة الشابة شديدة الذكاء، فرغم نُدرة وجودها في الصالون، كانت تعرف كل ما يدور. قالت:

- هل شعرت إحداهن بالغيرة منكِ يا "أر مي"؟ أخبريني وسأفصلها عن العمل وتبقين أنتِ.

هزَّت رأسها نفيًا:

- أنتِ مخطئة، لم يضغط عليَّ أحد، قررت أنني لا أريد العمل هنا الآن، تعلَّمت قص الشعر وأريد العمل في صالون متخصص في تجميل الشعر. أو ربما أفتح صالونًا خاصًا بي.

صدقتها صاحبة العمل:

- لديكِ مبادئكِ، وإن أردتِ ربح ثروة جيِّدة فعليكِ فتح صالون خاص بك. لكنني أقترح عليكِ الفصل بين التجميل والحلاقة.

أومأت "أر مي" موافقة.

قالت صاحبة العمل:

- أنتِ فتاة نبيلة ولديكِ عينان نبيهتان. أفتقد شخصًا مثلكِ. لكن حيث إنكِ تصرين على الرحيل، فلا أملك منعكِ. أتمنى لكِ حظًا جيدًا في المستقبل. وعليكِ زيارتي إن أردتِ المساعدة.

جمعت "أر مي" أشياءها وخرجت من صالون "منغ ني نا". كان الطريق مزدحمًا، لكن قلبها كان وحيدًا، كأن لا يوجد أحد غيرها. أسرعت "آن" ومعها "جيوي تسي" خلفها.

- لم تنتظرينا! دعينا نودعكِ.

- هناك زبائن ينتظرن، اذهبن وقمن بالعمل، لا داعي لتوديعي.

قالت "جيوي تسي":

- لقد خفت كثيرًا عندما تجادلتِ مع "بيتش"، فلم أتحدث، لا تلوميني.

- لا ألومكِ على الإطلاق.

- حسنًا، جعلني هذا أشعر بتحسن.

قالت "أر مي":

- لكن هل تلومينني أنتِ؟

- لماذا ألومكِ؟

- لا شيء.

- هل هناك شيء لم تخبريني به؟

- إنه مجرد سؤال.

قالت "آن":

- إن قمتِ بفتح صالون خاص بكِ يا "أر مي" وأردتِ مساعدة فلتخبرينني، يُمكننا أن نصبح شريكتين.

ضحكت "أر مي" وقالت:

- في تلك الحالة، عليكِ السماح لي بأن أكون الرئيس الأول وتكونين أنتِ الرئيس الثاني.

- حسنًا، فالرئيس الأول يحمل همًا أكبر على أي حال.

وقفت الفتيات الثلاث في الطريق المزدحم مثل جزيرة صغيرة بين الزحام. قالت "أر مي":

- عدن إلى العمل، وأنتِ يا "جيوي تسي" أخبري "بيتش" أنني تركت الجوارب التي أعطتني إيَّاها أسفل وسادتها، كي لا تنسى أخذها.

ثم ابتعدت. وعندما نظرت إلى الخلف كانت "جيوي تسي" و"آن" لا تزالان هناك. لوحت لهما ثم اختفت وسط الزحام.

في الواقع، لم تكن ذاهبة إلى مكان بعيد عن صالون "منغ ني نا"، فقط مسافة محطتين. كانت هناك لافتة صفراء تقول "محطة خدمة الشعب". كان هناك الكثير من أنابيب الغاز أمام الباب ووُضع بعضها على الرصيف. كانت تلك محطة البترول التي وصفها لها "هو شي هوي" على التليفون. إلى جانب المحطة، يوجد صالون تجميل، مُعلَّقٌ على نافذته لافتة "مطلوب عاملتين دون خبرة". كانت ترى تلك اللافتة في كل مرَّة كانت صاحبة العمل ترسلها لشراء شيءٍ.

دخلت الصالون فاقتربت منها فتاة شقراء وسألتها:

- شامبو؟

قالت "أر مي":

- من رئيسكِ هنا؟

أشارت الفتاة إلى سيِّدة تجلس بالداخل، تراجع الحسابات وقالت:

- الأخت "لي".

اقتربت "أر مي" منها وسألت:

- هل أنتِ الرئيسة؟

وقفت الأخت "لي" وسألت:

- ماذا تريدين؟

- هل ترغبين في تعيين عاملة دون خبرة؟

- بالتأكيد، هل تُريدين التجربة؟ اتركي حقيبتكِ واغسلي شعر الزبون الجالس هناك.

التفتت "أر مي" فرأت رجلًا بشعر غير مهذب، يجلس في الركن مرتديًا معطف أصفر، ويشاهد التليفزيون.

بحثت عن مكان لترك حقيبتها، وضعتها على الكنبة المجاورة للباب، لكنها خافت من السرقة، فوضعتها على الرف أسفل المرايا، لكن الأخت "لي" صاحت فورًا:

- لا يمكنكِ وضع الحقيبة هناك.

فوضعت "أر مي" الحقيبة أسفل أحد المقاعد، سألت "لي":

- هل بها ذهب؟

ابتسمت "أر مي".

- ليس ذهبًا، لكنني منذ أتيت إلى العاصمة وهذه الحقيبة بمثابة منزلي.

كان شعر الرجل ذي المعطف الأصفر متَّسخًا جدًّا، احتاجت "أر مـي" إلى اسـتخدام ثلاثـة أضعاف كمية الشامبو المعتادة. تساءلت إن كـان "هـو" مثلـه. بـدأت في غسـل شـعره بالمـاء وسألته:

- هل الماء بارد؟

- كلَّا.

- دافئ بما يكفي؟

- أجل، مثل النار.

غسلت شعره لفترة طويلة وسألته:

- هل تعمل في محطة البترول تلك؟

- أجل، هل أنتِ جديدة في العاصمة؟

ثم سألها:

- ما اسمكِ؟

- فلتدعني "أر مي".

بعد فراغها من غسل شعره، جلس الرجل على المقعد وهزَّ رأسه بحماس، ثم قال:

- تجيد "أر مي" غسل الشعر.

فسمحت لها "لي" بالبقاء.

في المساء، نامت في السندرة. كان الصالون صـغيرًا، لكنـه نظيـف وجميـل. وفي السندرة، رأت الحقيقة، كان هناك سرير وملابس، وحقائـب مكومـة، الكثـير مـن النـودلز سريعـة التحضـير والـخضراوات المملحـة. كـما كانـت هنـاك زجاجـات

وأوانٍ. كانت هناك فتاة واحدة تنام في السندرة، الفتاة نفسها التي قابلت "أر مي" فور دخولها الصالون. اسمها "شياو هوا"، عُمرها ستة عشر عامًا فقط. طلبت منها "أر مي" التخلُّص من جميع الزجاجات في السندرة، باعتبارها راشدة، كما قامت بتنظيف جميع الأغطية.

قالت "شياو هوا":

- بالأمس، طردت الأخت "لي" أحد العاملين، واليوم أتيتِ أنتِ.

قالت "أر مي":

- هناك اثنين فقط من أغطية السرير، متى أتيتِ إلى هنا؟

- الأسبوع الماضي. تعمل أختي مربية تابعة لإحدى الوكالات، كانت ترسل المال إلى المنزل شهريًّا، فسمحت لي أمي بالمجيء إلى هنا أيضًا للعمل؛ لأن أبي مريض ويحتاج إلى المال للعلاج.

قالت "أر مي":

- أنا أيضًا من الريف، نحن بالكاد أخوات، لذا علينا الاهتمام ببعضنا البعض، وحسن معاملة الآخرين، حسنًا؟

قالت "شياو هوا":

- أعرف هذا، فأختي أخبرتني أن هناك رجالًا سيِّئين هنا، وعلينا حماية أنفسنا، أنتِ مثل أختي، كنت خائفة من النوم هنا وحدي.

وضعت "أر مي" غطاء سريرها وفتحت مذكراتها تحت الضوء الخافت.

سألتها "شياو هوا":

- ماذا تكتبين؟

- مذكرات.

- أوه، أنا أيضًا لديَّ مُفكِّرة لكتابة المذكرات.

- يجب أن لا أنظر في مذكراتكِ وأن لا تنظري في مذكراتي، حتى لو لم أكن موجودة، يجب أن لا تحاولي قراءتها، لدينا مساحة خاصة من الخصوصية، هل ستذكرين هذا؟

- أجل، فهمت.

في اليوم التالي، أرسلت "أر مي" مئة يوان إلى منزل أهلها، بالبريد، وكتبت ملحوظة:

"ليو قوانغ مينغ، يجب أن تجتهد في دراستك، هذا مال يكفي لدفع مصروفاتك، لكن إن لم تجتهد في دراستك، فلن تصبح أكثر من نفقات كلب في المستقبل".

دونت هذا في مذكراتها، كانت تعتقد أنه أمر شديد الأهمية. كما كانت تعتقد أن توصيلها إلى مكان "هو شي هوي" أمر مهم كذلك.

وقف الرجل الذي غسلت شعره أمام الصالون، يتحدث مع الأخت "لي" ويضحك. سمعت الأخت "لي" تدعوه "ليو" العجوز. واستغلت وقت تجفيف الفوط وسألته:

- أخي، كان هناك شاب يعمل معكم في المحطة اسمه "هو" صحيح؟

- لقد رحل سريعًا.

- هل قال إن كان سيعود؟

- لا أعتقد هذا. لم يأخذ الامور بجدية هنا، كان يقضي معظم وقته على التليفون، هل أنتِ من القرية ذاتها؟

أومأت وقالت:

- قالوا إنه أتى إلى هنا للعمل.

- يقوم بهذا العمل الشباب المهاجر عديم النفع، لذا لا أعتقد أنه سيعود.

في تلك اللحظة صاحت الأخت "لي":

- هل تُريدين تدمير سُمعتي؟

دخلت "أر مي" الصالون فوجدت "شياو هوا" تبكي، ورجل في السبعين جالسًا هناك في غضب. وقفت الأخت "لي" وهي تحمل زجاجتي صبغة شعر وتخاطب الزبائن:

- هل ترون هذه الفتاة؟ صبغت شعر هذا الرجل النبيل، لكنها أخطأت واستعملت اللون الأصفر بدلًا من الأسود، فحولته إلى رجل متشرد.

ضحك الجالسون جميعًا، وقالت سيدة:

- أليس من الجيد مواكبة الموضة؟

وقف الرجل العجوز، وقال:

- سأقدم شكوى في حماية المستهلك ضدكم.

أشارت الأخت "لي" إلى "شياو هوا" ووبختها، حتى اقتربت "أر مي" وقالت:

- أختي "لي"، لا أعتقد أن لهذا التوبيخ نفع، يُمكننا غسل شعره وإعادة تلوينه، لا أعتقد أن الأمر بهذا السوء حقًّا.

ناولتها "لي" أنبوبتي الصبغة، وعملت "أر مي" في صمت. تعلَّمت كيف تصبغ الشعر في العاصمة. بعد أن وضعت الصبغة على شعره قامت بتدليك كتفيه، ولم يقل الرجل شيئًا. عندما رفعت غطاء الشعر، كان شعره أسود، فصفق جميع الحاضرين. كان "ليو" العجوز لا يزال واقفًا أمام الصالون، فقال:

- يبدو جيِّدًا.

بعد غلق الصالون، سألتها "لي":

- هل مارستِ هذا العمل من قبل يا "أر مي"؟ ما الذي جعلكِ تسعين للعمل في صالون صغير مثل هذا؟

وقالت لها إن الراتب قليل هنا.

- أحب العمل مع رئيسة سيدة، وطالما أنكِ لا ترغمينني على فعل ما لا أرغب فيه فليس لديَّ مشكلة مع الراتب، يعود إليكِ تقديره.

- فهمت.

شعرت "أر مي" براحة أكبر في البقاء هناك بعد أن قالت هذا، وبعد رحيل "لي"، قامت "شياو هوا" بملء وعاء من الماء الدافئ، أرادت من "أر مي" غسل قدميها فيه. قالت "أر مي":

- ماذا تفعلين؟

- إن لم أحظَ بمساعدتكِ الليلة لوبَّختني الرئيسة حتى الموت.

- لا تشكريني، يمكنكِ القيام بشيءٍ من أجلي.

فتحت "شياو هوا" عينيها على وسعهما:

- هل تقصدين غسل ملابسكِ؟ لقد غسلت جميع الملابس بالبيت.

- لا أريد منكِ غسل الملابس، أريد منكِ سؤال "ليو" العجوز عن محطة البترول، فلديَّ ما أود معرفته.

قالت "شياو هوا" إنه أمر سهل. كان "ليو" يلعب البوكر الصيني مع بعض زملاء العمل. صاح عند الباب وبيده حفنة من ورق اللعب.

- الوقت متأخر. ما الأمر؟

كانت أضواء الصالون مضاءة، و"أر مي" تقف تحت الضوء مرتدية معطفًا أبيض، وفي يدها مقص. تبدو مثل طبيب. فاجأ ذلك "ليو" العجوز وقال:

- ماذا تفعلين؟

- يا أخي "ليو".

- يمكنكِ مناداتي "ليو" العجوز.

- نسيت إخبارك أنني أحمل اسم "ليو" أيضًا، اجلس يا أخي "ليو".

عصر "ليو" الأوراق، وقال:

- هل تُريدين استعارة المال؟ أخبركِ الحقيقة، إنني مفلس، ولقد أرسلت المال إلى المنزل بالأمس، لديَّ طفلان.

- كيف تفكر في هذا؟ بل أريد أن أقص شعرك.

- ليس هذا الوقت المناسب.

سألت "أر مي" عن السبب، فقال إنه يغسل شعره مرَّتين في الشهر ويقصه في أول الشهر ثم في منتصفه، على التوالي.

- لا أريد منك المال، أنا جديدة هنا وأحتاج إلى عونك في التعلُّم واكتساب الخبرة.

- حقًّا؟

ترك أوراق اللعب وجلس.

بدأت "أر مي" في قص شعره، حتى أصبح قصيرًا، وعندما أوشك على الاعتراض قالت:

- يا أخي "ليو"، عليك الثقة في خبرتي، دعني أصمم لك قصة شعر، وعندما أنتهى فلتخبرني برأيك.

جلس "ليو" صامتًا، وبعد نصف ساعة، بدأت "شياو هوا" في كنس الشعر. ثـم نظـر "ليـو" إلى نفسه في المرآة. بدا رجلًا نبيلًا. كاد أن لا يتعرف على نفسه. ابتسم بصعوبة.

سألته "أر مي":

- ما رأيك؟

شعر "ليو" العجوز بالخجل والإحراج.

- قولي أنتِ يا "شياو هوا".

- تبدو أصغر بعشر سنوات على الأقل.

قال "ليو":

- يا أختي، إن واجهتِ أي صعوبات أخبريني، وإن احتجتِ إلى المال حتى إن لم يكن لـديَّ فيمكنني الاقتراض من الآخرين من أجلكِ.

قالت "أر مي":

- أخي "ليو"، لديَّ طلب وحيد. من فضلك، ساعدني في العثور على "هو شي هوي".

- سيكون الأمر صعبًا، لسنا من المكان نفسه، ولم يكن بيننا اتصال منذ رحيله، مـن يـدري أين هو الآن؟

- يا أخي، يمكنك إيجاده، هو من المنحدر الحجري، وعنـدما أتى إلى هنـا، عمـل معكـم في المحطة لعدَّة أشهر، ثم أراد الذهاب إلى "شن تشن"، لا بُدَّ أنه تبع نصيحة صديقه، ربما قدمه إلى أحدهم، لكن أرجوك ساعدني، واسأل المزيد من الأشخاص عنه.

- يا أختي، أنتِ تسيرين في الطريق الصحيح لكنكِ تبدين قلقـة، أهـو حبيبـكِ، ولم يخـبركِ أين ذهب؟

- كلَّا كلَّا، في الواقع أنا مدينة له بالمال، كان يتصل بي ليطلب المال، قال إنه يحتاج إليه للقيام بالتجارة، لكن الآن بعد أن أصبح لديَّ المال لا يُمكنني الوصول إليه.

- حسنًا، أنتِ فتاة يُعتمد عليها.

- على المرء تسديد ديونه، وكما أنني أقوم بإنفاق الكثير من الأموال حاليًا، ما إن أنفق ما لديَّ فلن يكون لديَّ المال لسداده، سأشعر بالراحة عندما أقوم بسداد المال في أقرب وقت.

- حسنًا، سأحاول مساعدتكِ.



六

وصل خطاب من "ليو قوانغ مينغ"، تسلَّمته "أر مي" من شقيقة "شياو هوا". كان الظرف شبه ممزق لأنه مرَّ بأيدٍ كثيرة حتى وصل لها. قال إنهم تسلموا المال وإن والديها شعرا بالرضا.

في حين أصابهم القلق وهم يفكرون أنه ليس بإمكانها العمل بصالون تجميل. فرغم سكنهم بعيدًا عن العاصمة، فإنهم يعرفون أن تلك الأماكن بها الكثير من المُشكلات. يقول الأب إنه من الأفضل أن تصبح مربية بدلًا من الاستمرار في العمل هناك. وإن لم تسر الأمور بشكل جيد، فيمكنها العودة إلى منزلها في المنحدر الحجري في أي وقت.

اقتربت "شياو هوا" فأعطتها الظرف وهي تقول:

- يكتب أخي بشكل جميل، هذا تقليد لطريقة كتابة السلالة الحاكمة، وأقر بأنه يكتب أفضل من أي زميل لي في الفصل.

سألتها "شياو هوا":

- لماذا تدعونه "ليو قوانغ مينغ"؟

قالت "أر مي":

- يجب أن ينادَى الرجل باسمه كاملًا، وعندما يكبر، سوف يصبح رجلًا حقيقيًا.

سألتها "شياو هوا":

- وما هو الرجل الحقيقي؟

عجزت "أر مي" عن الإجابة.

في الماضي، لم تكن تعتبر "هو شي هوي" رجلًا عندما تقابله، لكن الآن، بعد مجيئها إلى العاصمة وتعاملها مع رجال مختلفين، مثل "شينغ سي ون"، أصبحت تشعر أن "هو" أفضل منهم. فمثلًا يأتي زبائن إلى الصالون، على قدر كبير من الوسامة، يحملون التليفونات المحمولة، لكنهم رجال لنساء أخريات، كما أن الفتيات الجميلات تلاحقهن. عندما تراهم، كانت تقارنهم بـ"هو". كانت تفكر أن بإمكانها تحويل "هو" إلى رجل وسيم، حتى لنصف يوم، مثلما فعلت لـ"ليو" العجوز، يوم حولت وجهه المتسخ وشعره غير المهذب إلى شكل مهندم.

كانت "أر مي" تنشر الفوط أمام الصالون يومًا ما، فأتى "ليو" العجوز إليها وقال ببُطءٍ:

- لقد سألت كما وعدتكِ في اليوم الماضي، هناك شخص تولى توصيل "هو" إلى "شن تشن".

تركت الفوط.

- أين هو؟

- لا تهرولي إلى المحطة الآن، لقد ترك عمله وذهب إلى "شن تشن".

- أوه.

فكرت أنها تزداد بعدًا عنه بمرور الوقت، عن "هو". كانت "جيوي تسي" هي الأخرى تنتظره في العاصمة، وكذلك ينتظره والداه بالمنزل. لذا إن لم تتمكَّن من رؤيته سريعًا، فربما لن تفوز به أبدًا.

همست "شياو هوا" في أذنها:

- اليوم عيد ميلاد أختي، وطلبت مني دعوتكِ لتناول الطعام في مطعم.

لكن "أر مي" كانت مضطربة، ولم تسمعها بوضوح. ظلَّت تهزُّ رأسها. كانت تفكر في سبب مجيئها إلى هنا، كحشرة تُهرول باتِّجاه اللـهب. كانت تعرف بوضوح أنها لا تملك شيئًا. نـادت الأخت "لي":

- شامبو يا "أر مي".

كان الوقت متأخرًا وأوشكوا على إغلاق الصالون. وضعت الفوطة البيضاء على عنق الرجل الطويل وسألته:

- أي نوع من الشامبو تريد؟

قال الرجل:

- "هيد آند شولدرز".

فاجأها الصوت، نظرت إلى المرآة ورأت وجهه الأبيض يبتسم. وقفت مذهولة عـاجزة عـن الكلام لدقيقة. وظل هو مُبتسمًا، وقال:

- قلت "هيد آند شولدرز".

عملت على شعره بشكل ميكانيكي. وبعد رحيل "لي" و"شياو هوا" سـألته إن كـان يرغـب في غسل شعره. كانت الرغوة على رأسه، وقال:

- لكن بماء أكثر دفئًا.

غسلت شعره الأسود بيـديها بـبُطءٍ. وابتسـمت مـن رائحـة البـيرة والسـجائر المختلطـة برائحـة الشامبو. لم تعرف كم قضت من الوقت في غسل شعره، حتى قال:

- الماء بارد.

تحدثا عبر المرآة.

- كيف توصلت إلى هذا المكان؟

- يمكنني، ما دمت أردت ذلك.

في الواقع، كان رب الأسرة التي تعمل معها أخت "شياو هوا" يعمل في المحطة التليفزيونية. كانت "شياو هوا" تتحدث إلى "أر مي"، تفاخرت بأن الصحفيين ملوك دون تيجان. إن واجهت "أر مي" المتاعب، يمكنها اللجوء إليها وإبلاغ الأمر. حينها أجابتها "أر مي" بتلقائية أن لا حاجة لذلك، لأن قريبها يعمل في المحطة التليفزيونية كذلك. قالت إنه قريب لها وإنها لا تحتاج للبحث عن شخص آخر إن واجهت المتاعب. وبعد إلحاح "شياو هوا"، أخبرتها "أر مي" باسم "شينغ سي ون".

قال "شينغ سي ون":

- إنه أحد أصدقائي، كنا نشرب البيرة معًا بالأمس ونتحدث، ثم ذُكر اسمكِ، قال إن المكان قد ازدهر بشكل ملفت منذ بدأت فتاة جذابة في العمل فيه، أعاد ذكر الأمر عدَّة مرَّات.

توقَّفت "أر مي"، وقالت:

- يكفي هذا.

- لكنكِ لم تُدلِّكي رأسي، ولن أدفع أقل من الأجرة المعتادة.

جلست "أر مي"، وقالت:

- أشعر بالتعب وأرغب في شرب البيرة.

التف "شينغ سي ون" بكرسيه، وبدت عليه المفاجأة، نزع الفوطة البيضاء، وقال:

- هل تُريدين الشرب حقًّا؟

كانت "أر مي" تشعر بالدُّوار، كأنها شربت البيرة بالفعل. كانت ترى وجهه تحت الضوء، نصفه منير ونصفه مظلم. ضحكت، وقالت:

- ليس إلى هذه الدرجة، لكن أهي ساخنة؟

بدا كأنها قصدت بـ"حقًّا" "على البخار". فتح "شينغ سي ون" الباب إلى الكافيتريا المجاورة لهم لشراء البيرة، سمعت "أر مي" صوت الصياح المصاحب للعب الورق. عاد "شينغ سي ون" سريعًا ومعه البيرة، والتفت ليغلق الباب بسرعة.

- هناك الكثير من الحشرات.

في الليل تتجمع الحشرات حول اللمبة. وفي الصباح يجدونها ميتة على الأرض.

رآها "شينغ سي ون" تصعد إلى السندرة، ثم تعود ومعها وعاء مخلل. قالت:

- ستناسب البيرة.

- في الواقع، يجب أن لاتبقي هنا، إن أردتِ الشرب حقًّا فيمكنني اصطحابكِ إلى الخارج.

رفعت كأسها، وشربت كمية ليست بقليلة، تشنج وجهها، وأجبرت نفسها على البلع.

- لست ذاهبة إلى أى مكان ولا داعي للاعتقاد بأنني عديمة الخبرة.

ابتسم "شينغ سي ون":

- لقد تعلَّمت إلقاء المزحات يا "أر مي".

- أما زالت الخالة الثالثة تذكرني بالسوء؟ لقد أجريت عشر محادثات تليفونية سرًّا، أخبرها أنني آسفة بشأن هذا.

قال "شينغ سي ون" بثقة:

- عليكِ استغلال جسدكِ يا "أر مي"، ألا تعلمين أنكِ امرأة جميلة؟ الجمال أكبر ثروة لدى المرأة، ولكنه لا يبقى إلى الأبد، عليكِ انتهاز الفرصة.

أرادت "أر مي" الضحك. كانت الكلمات جميلة، لكنها كانت تغرق في الماء، تغرق وتغـرق. تحرّكت وأرادت القيام بشيءٍ ما، لكن الشيء الوحيد الذي تمكنت مـن فعلـه هـو مـلء كـأس أخرى. أمسك بيدها:

- يُمكنني رؤية أنه لا يمكنكِ الشرب.

سحبت يدها بقوَّة فوقعت البيرة على جسد "شينغ سي ون"، وقفت وهي تقول:

- آسفة جدًّا. أنتم أهل الحضر تحبون الاعتذار، دعني أساعدك في مسحه، هناك الكثير من الفوط هنا، يُمكنني مسح بنطالك والحذاء.

حاولت أن تجلس القرفصاء، لكنها سقطت أرضًا.

أمسكت يدان دافئتان بخصرها. في تلك العاصمة الغريبة، كان الإمساك بيدي رجل كفيلـة بأن تجعلها تبكي.

كان عقلها ينشط أحيانًا ويغيب أحيانًا، ورائحة السجائر والبيرة قريبة منها.

في تلـك اللحظـة، سـمعا صـوتًا قويًـا. ابتعـدت "أر مـي" وعـاد وجـه "شـينغ سي ون" إلى طبيعته. أدركت حينها أن أحدهم يطرق الباب.

فتحت الباب فلفح الهواء جبينها. وجدت "ليو" يقف أمامها في حزن.

- أخي "ليو"؟

نظر إلى الداخل، ثم قال:

- الوقت متأخر، توقَّعت أن تكوني نائمة.

نظرت خلفها، كان "شينغ سي ون" ينظف بنطاله، وكانت هناك بقعة واضحة من البلل.

- عليك الذهاب يا "شينغ سي ون".

اقترب منها وعلى وجهه الازدراء، وهمس لها:

- فكري فيما قلته لكِ، هذا الصالون غير مناسب لكِ، يُمكنني مساعدتكِ على إيجاد عمل آخر، في ظروف أفضل.

- أي نوع من العمل؟

توقف "شينغ سي ون"، ثم قال:

- يتوقَّف الأمر على الفرص المتاحة، يُمكنني استئجار منزل لك، لتعيشي فيه حتى نجد شيئًا.

قال "ليو":

- لقد نسيت الولاعة الخاصة بي في الصالون.

قالت "أر مي":

- عليك الذهاب يا "شينغ سي ون".

احتفظ بنظرته المتغطرسة وهو يرحل. وأوقف تاكسي ثم ركبه باعتزاز ورحل.

كان الهواء باردًا، وأصبحت "أر مي" أكثر انتباهًا مما تكون عليه في الصباح. قالت:

- "شينغ سي ون" قريبي.

- لديَّ أخت، أرادت العمل في العاصمة قبل ثلاثة أعوام، رفضت لكنها أصرت، رحلت بعد أن تجادلنا ولم تعد، كانت ترسل الكثير من المال إلى المنزل كل عام، لكنها لم ترسل الكلمات أبدًا، أعرف أنها ذهبت إلى "هاي نان"، وأنها تقوم بذلك النوع من العمل. لا يزال المال الذي أرسلته محفوظًا، لم أمسه، حتى بعد وفاة أمي، أشعر أن هذا المال هو دم أختي.

- هذا غريب!

بدا كأنه لم يسمعها.

- لكل شيءٍ بداية. والشخص هو نفسه. لكنها لم تحصل على بداية جيدة، مثل أخيها الأكبر لم أبقَ بجانبها وأترك تأثيرًا عليها. أندم كثيرًا على ضربها يوم رحلت. لقد أخـذت زجاجـة نبيـذ ورميتها بها. شقت شفتها وسال الكثير من الدم. إن كان الجرح يلتئم إلا أن أثره سوف يبقـى، إن كانت استمعت لي ما كنت لأضربها. هي أختي الصغيرة العزيزة.

فتحت الباب، وألقت زجاجة البيرة بعيدًا، ولكن الرائحة ظلَّت عالقة. ثم سـقطت في نـوم عميق.

أيقظتها "شياو هوا" في الصباح الباكر قائلة:

- لقد تناولت الكيكة مع أختي والتقطنا صورة، سأحضرها لكِ لتريها لاحقًا.

- حسنًا، لقد أرهقت بالأمس، أريد أن أرتاح اليوم، أفكر في طلب يـوم راحـة مـن الأخـت "لي".

- هل أنتِ مريضة؟

- كلَّا.

ارتدت "أر مي" السترة البيضاء على البنطال الأسـود والحـذاء ذي النعـل السـميك. تركـت شعرها ينسدل على كتفيها. كان شعرها طويلًا ناعمًا، مثل فتيات العاصـمة. كانـت في البدايـة تجمع شعرها، لكنها منذ تعلَّمت الحرفة، أصبحت تعتني به وجعلت شعرها يبدو مثـل شـعر حبيبة "شينغ سي ون" ومثل مالكة صالون "منغ ني نا".

سارت في الطريق ونظر إليها هؤلاء الذين يعرفونها بإعجاب وانبهار، مثلما كانت تنظر لحبيبة "شينغ سي ون". بدا "ليو" العجوز كأنه يريد قول شيء لكنها تظاهرت بعدم رؤيته واستمرت في السير. كانت واثقة من أمرين في هذا الصباح، وعزمت على القيام بهما سريعًا.

كانت الشمس قوية، دخلت صالون "منغ ني نا" ولم يتعرفوا عليها.

كانت "جيوي تسي" تقف في الصالة تسند ذقنها إلى يدها. لم تفق من أفكارها إلا بعد اقتراب "أر مي" منها.

- مرحبًا، كيف أساعدكِ؟

- هذه أنا يا "جيوي تسي".

- يا إلهي! "أر مي"! تبدين جميلة حتى أنني لم أتعرف عليكِ.

- أين "بيتش" و"آن"؟

- تعملان بالداخل، هل تُريدين الدخول؟

- في الواقع، أتيت للتحدث معكِ أنتِ.

تعجَّبت "جيوي تسي"، لكنها ابتسمت.

طرحت "أر مي" السؤال مباشرة:

- هل أرسل "هو شي هوي" أي خطابات إليكِ؟

تفاجأت "جيوي تسي":

- ما الأمر يا "أر مي"؟ لماذا تسألين عن ذلك فجأةً؟

- لقد كبرنا معًا كأختين يا "جيوي تسي"، أريد الحقيقة، هل قررتما الزواج؟ أريد أن أعـرف إن كان يفتقدكِ كل يوم، إن كان يتصل بكِ.. إن كانت الإجابة بنعم فسـوف أرحـل إلى مدينـة أخرى.

- وإن كانت الإجابة لا؟

- سوف أنتظره هنا، في هذه العاصمة، لن أتحرك، إن تركت العاصمة فلن يجدني.

حدَّقت "أر مي" في "جيوي تسي" لفترة طويلة دون تردُّد.

- أنتِ مغرورة يا "أر مي"، والد "هو" لا يحبك وكذلك أمه، وعائلة "هو" لا تحب والدكِ.

- لكن "هو شي هوي" معجب بي.

عجزت "جيوي تسي" عن الحـديث وسـال خطًّـا دمـع عـلى وجنتيهـا. رقـت "أر مـي" لهـا وقالت:

- لست هنا لجرح مشاعركِ.

- تعرفين أنني أنتظره، وهو كذلك يعرف، لكنه لم يرسل إليَّ خطابًا، ظللت أنتظر اليوم يلو الآخر، والآن أصبحت متوترة جدًّا. لا شيء هنا يناسـبني، أحلـم بالمنحـدر الحجـري كـل ليلـة، حيث كنت أحمل كميات من الماء وأحصد البشنة، وأجمع الحشيش. والسرير الكبير العـريض الذي كنت أنام عليه. أشتاق إلى منزلي، أريد العودة.. لكنه لم يراسلني ولم يذكرني في خطاباتـه إلى والديه.

حاولت "أر مي" الإمساك بيد "جيـوي تسي" لكنهـا دفعتهـا بعيـدًا، ثـم مسـحت دموعهـا بمنديل. وقالت:

- لا تتوقعي الحصول على شيء منِّي يا "أر مي"، لديَّ رقم تليفون "هو شي هوي"، لكننـي لن أعطيه لكِ.

- ما أخبرتِني به كافٍ.

كانت "بيتش" و"آن" تلبسان غطاء وجه؛ لأنهما تضعان الأقنعة على أوجه الزبـائن. سـارت "أر مي" إليهن بهدوء، وربتت على كتف "آن" ثم همست في أذنها.

- انزعي الغطاء عن وجهكِ.

ابتسمت "آن" بدهشة، وحرَّكت رأسها بمعنى أنها لا تفهم. فكت "أر مي" الرباط الأبـيض عن أذنيها بنفسها.

ابتمست "آن" ابتسامة متجبرة، وقالت:

- ماذا تفعلين يا "أر مي"؟

رأت "أر مي" العلامة الصغيرة إلى جانب فم "آن" فورًا. قالت لـ"آن":

- ألم تقولي إنكِ سوف تعملين معي إن بدأت عملي الخاص؟ لقد حان الوقت.

أخذت "آن" وخرجت من الصالون، لم تـأتِ "بيـتش" أو "جيـوي تسي" لتـوديعهما. عـادت هي إلى "جيوي تسي"، وقالت لها:

- لا تلوميني، هذا ما أنا عليه، أخبرتكِ من قبل أن لا تلوميني.

بعد أن قالت هذا، نظرت "أر مي" إلى "بيتش" عدَّة مرَّات لتظهر لها الاحترام. لم تجب أي من الفتيات. لكن عندما خرجت من الصالون تلك المرَّة، سارتا معها لوهلة، وفي عرف المنحـدر الحجري، يعني ذلك توديع الضيف.

ضحكت "آن" وهي تسير في الطريق، وقالت:

- ليس اليوم بيوم كذبة أبريل يا "أر مي"، صحيح؟

- وما هذا؟

- عندما كنت أعمل في جزيرة "هـاي نـان"، كنـت أرى النـاس يقومـون بالخـدع ويلقـون النكات، في يوم كذبة أبريل، يمكنكِ القيام بأي خدعة، فيمكنكِ مثلًا المزاح بادعاء بـدء عملـكِ الخاص الآن، فقط لتخدعيني، صحيح؟

- أنتِ مُحقَّة تمامًا.

صدمت "آن":

- جعلتِني أفقد عملي، هذه ليست مزحة يا "أر مي".

والتفتت للعودة، ولكن "أر مي" أوقفتها.

- كنت أمزح. وضحت لـ"جيوي تسي" و"بيتش" أنني سوف أذهب للتنزه معكِ فقط.

بعد دقائق قليلة من الصمت، ضحكت "آن".

- إنه يوم جميل.

جعلت نظرة "آن" البريئة "أر مي" تتألم، أمسكت بها طـوال الطريـق ولم تتحـدث ولا تـرد على ثرثرة "آن".

عندما ظهر الصالون من بعيد قالت "أر مي":

- ها نحن قد وصلنا.

- وما المرح هنا؟ فلنذهب إلى السينما.

أدخلتها "أر مي" الصالون وأجلستها. ثم قالت:

- انتظري هنا للحظة.

كانت الأخت "لي" و"شياو هوا" تغسلان شعر الزبائن، لم تنتبهـا إلى دخـولهما. ذهبـت "أر مي" إلى بوابة محطة البترول، ونادت:

- يا أخي "ليو".

خرج "ليو" العجوز في سترة صفراء قال إنه كان يبحث عنها. أخرج من محفظته قطعة مقصوصة من الجرائد بعرض إصبعين. فتحها بحرص، كانت هناك أرقام مكتوبة على هامش الصفحة. قال:

- إن كان بينكِ وبين "هو شي هوي" دين فسأعطيكِ هذا الرقم، هذا رقم الشخص الذي عرفني عليه من "شن تشن".

نظرت "أر مي" إليها مرَّة تلو الأخرى، فقال هو:

- ما طلبتِه مني تم الآن.

- انتظر يا أخي، أريد أن أسألك، هل أثر الجرح على شفاه أختك من ناحية اليسار؟

أجاب "ليو" بمزيج من المفاجأة والفضول:

- أجل.

- هل اسمها "آن"؟

- كلَّا، اسمها "ياو مي".

شردت "أر مي" لوهلة، ثم قالت:

- هناك من ينتظر، اتبعني من فضلك وألقِ نظرة.

فهم "ليو" مقصدها من تعبيرات وجهها. دخل الصالون وهو في حالة ذعر. رأى "آن" تقف فور دخوله الصالون. وصاح هو كأن السماء وقعت والأرض انشقَّت:

- "ياو مي"!

التفتت "أر مي" ورحلت فورًا. كان عليها إجراء مكالمة في التليفون العام. لم تكن تثق أن أحدًا سيجيب. وإن أجاب أحدهم فربما لا تعثر على "هو شي هوي"

في النهاية. وإن وجدته فمـن يعـرف أي تغيـير أصـاب هـذا القـرد. كانـت هنـاك الكثـير مـن الاحتمالات.

لكن هذه من لوازم الحياة. تعيش الآن "أر مي" التي أتت من المنحدر الحجري في المدينة وتنتظر بارقة أمل.



نهر يملؤه الحزن





"الرقص، الرقص

آه، آه،

ارقص حتى يزول الألم،

ارقص حتى تتركه وراءك".

استهلك "تشين لاو دا" كل قوته، ضحك حتى السماء، ثم توقَّف. وسقطت روحه القوية، مثل صخرة، في البحيرة المظلمة، شديدة العمق.

فتح "تشين لاو أر" الناموسية سريعًا، وأنقذ "تشين لاو دا" من السقوط في عالم "ميش ساي"، الذي يفصل بين الحياة والموت. وعند أركان الحائط، تم حرق الكثير من الأوراق المالية المزيفة للجنائز، مكونة سحابة من الدخان، تتلاعب بها رياح نهر "قوارب التنين". كان الرجل العجوز العاري يستكشف البحيرة العميقة، غافلًا عن كل شيءٍ، والمياه اللزجة التي تحيط به تخنق عينيه ونفسه.

من حسن الحظ أن كان "باشا" حينها قد أعد للحداد بشكل هادئ. وضع جسد "تشين لاو دا" على السرير. انقلبت الغرفة الأمامية صالة حداد، بأربع شمعات حمراء، ومصباحي الهيكل تضيء السماء والأرض.

فتح "تشين لاو دا" - الذي يكافح - وسط الظلام عينيه فجأةً، فوجد رأسه وقدميه محاطة بأضواء وامضة.

قفز خارج البحيرة العميقة.

كانت الرياح قوية، تعصف بكامل جسده. كانت هناك أشباح غير مرئية تصدر صفيراً بين النباتات. كانت الأشباح المستترة تضحك بصوتٍ خافت.

لم يملك "تشين لاو دا" إلا أن ينظر إلى الخلف، وهو يسمع صوتًا يشبه الزئير قادمًا من السحب.

"الرقص، الرقص

آه، آه،

ارقص حتى يزول الألم،

ارقص حتى تتركه وراءك".

اختفت الأشباح فجأة، وأصبحت الريح أكثر رِقَّة بين الأشواك. وخرج صوت طبلة مصحوبًا بأصوات عميقة قوية، ليزيح الظلام المحيط بـ"تشين لاو دا".

رأى "تشين لاو دا" "تشين لاو أر"، ممسكًا بطبلة أمام قبره. أما زوجته "باتشا" فكانت تمسك المصباح، وعشرات من ذكور شعب "تو چيا" يرقصون رقصة الحداد، ورؤوسهم مُلفَّحة بالأوشحة.

كان الحقل مضاءً كأنه الصباح، وكان سُكَّان القرية يجلسون في الغرفة الرئيسية، مع اللحم والنبيذ، في الحقل، تحت أشجار شعر الغول، يبتسمون جميعًا وهم يودعون "تشين لاو دا".

بكى الناس وهم يرددون: "اطرد الحـزن! انـسَ الحـزن!". فـذرف "تشـين لاو دا" الـدمع في العالم غير المرئي.

في خريف العام الثلاثين لجمهورية الصين، أتى يوم لن ينساه "تشين لاو دا" أبدًا.

كان مبحرًا من قرية "قوارب التنين" إلى نهر "يـانجتسي"، مـع "تشـين لاو أر". كـانوا هنـاك يطلقون على قواربهم الخشبية "قارب البازلاء". وصلا إلى الميناء يحملان ثلاثة أجولة من الملح. كان الزعيم "تشانغ" يملك متجرًا يبيع جبن "التوفو". وكانت ابنته الجميلة "ليـان يـوي" تقـف إلى جواره. أوقف الزعيم "تشين لاو دا".

كان "تشانغ" رجل أعمال شريف، ورث متجره عن أسلافه. كان يملك بغلـة سـوداء، وابنـة جميلة حُرمت من أمها، ومن الحيـاة العاديـة. كـان يعـد يوميًّا عشرة قوالـب مـن "التوفـو"، وعشرة قوالب من الجـبن بالصـوص. وبعـد الظهـيرة، يغلـق المتجـر ويعـود إلى المنـزل لتنـاول الشراب. ثم يعلم "ليان يوي" أشعارًا من حقبة الـ"تانغ"، ويرسم لوحات لأزهار اللوتس أحيانًا. لم يكن يتوقَّف حتى يشعر بالرضا التام عن عمله. وأخيرًا، يستأنف الشراب. يـا لهـا مـن حيـاة رائعة!

لكن لسوء الحظ، غَيَّر قدوم المحتلين اليابانيين كـل شيءٍ. لقـد فـروا إلى منطقـة "الممـرات الثلاثة"، وقُصف تمثال "كو تشون" ومنزل رياح الخريف البالغ عمره مئات الأعـوام. كـان "كـو تشون" شخصية موقرة قبل ألف عام. أصاب الذعر جميع السكان، وفروا إلى الجبال.

وجد "تشانغ" هو الآخر أن له قريب عند نهر "قـوارب التنـين" البعيـد، فقـام بالتعاقد مع الأخوين "تشين" مـن خـلال بعـض معارفـه. أراد الـذهاب إلى هنـاك على قـارب الأخـوين "تشـين"، لكنـه فقـد بغلتـه السـوداء في الهـرج، وهـي أثمـن

ممتلكاته، إنها الحيوان الذي كان يحمل الأرز ويدفع المطحنة كل يوم. كان سيقلق لو أن ابنته ظلَّت في المدينة معه، لكن إن لم يحدث ذلك، فستذهب إلى مكان بعيد، وحدها، ولم يكن هذا ليطمئنه أكثر من سابقه. شعر بالتردد والخوف، عالق بين خيارين مُتساويين في الشؤم.

وقف "تشين لاو دا"، بحار قرية "قوارب التنين"، بعضلات صدره اللامعة، بكبرياء على مقدمة "قارب البازلاء"، كانت يداه المفتولتان تجدفان بأعواد "البامبو" التي اختفت خلفها. كان ينتظر قرار الرئيس بصبر. ضحك من القلق الذي سيطر على سُكَّان المدينة، وقال: "سينال كل منا ما يستحقه".

جلس "تشين لاو أر" على أجولة الملح، ونظر إلى السماء، حيث السحب مُحمرة أمام الشمس. ضيق عينيه، وشرد في أفكاره.

- ماذا أفعل الآن؟ هل أبقى أم أرحل؟

- الأمر يعود إليك.

- كم نحتاج من الوقت؟

- إن كان الطقس جيدًا، وأبحرنا في اتجاه الرياح، فسنحتاج إلى يومين. إن لم يكن، فثلاثة أيام أو أكثر.

كان "تشانغ" يشعر بالخوف، كان يريد سحب ابنته من القارب. لكن ابنته "ليان يوي" شعرت بالاسترخاء في القارب، وسط النهر الواسع، والنسيم الرقيق، والقارب الصغير، والرجلين القويين. فلقد تعلَّمت في هذه الأيام ما هو أكثر من الحفر داخل الكهوف مع والدها، وإخفاء القنابل، لقد تعلَّمت الخوف والألم.

لم تكن ترغب في العودة عندما حاول والدها سحبها.

شاهد الأخوان الجدال الدائر بين الأب والابنة بفضول. ودَلَّت السعادة التي بدت في النهاية على وجه الابنة على أن الأب قد قدم تنازلًا.

في هذا اليوم الخريفي المشمس، جذبت قدما "ليان يوي" انتباه الأخوين. فهؤلاء الرجال، أفراد عرقية "تو چيا"، قد مرُّوا بالكثير: تسلَّقوا الجبال، وطاردوا الفهود، ومشوا على المياه الضحلة. لكنهم لم يتسنَ لهم قط رؤية أقدام امرأة من الـ"هاكا". تأمل "تشين لاو دا" وجهها الأبيض المتورد، والرياح تزداد قوة، والتلال والمدينة بادية من خلفها. واستمع إلى أصوات الأمواج.

سألهما "تشانغ":

- كم سيكلفني ذلك؟

أجابه "تشين لاو دا":

- لقد عاشت عائلتنا ذات الأجيال الثلاثة على هذا النهر. نحن ننقل البضائع وليس الركاب. سنقوم بهذا لأنك سألتنا معروفًا، وليس من أجل المال.

أعاد رجل المدينة اليوانين إلى محفظته بارتباك. شعر "تشين لاو دا" بوضوح أن المرأة تنظر إليه نظرة غواية، كان ظهره يشتعل من السخونة.

فجأةً، امتلأ قلبه بالبطولة. فسحب المجداف البامبو الضخم وغرسه في الماء، كأنه يقطع قطعة "توفو". وبينما يقف ثابتًا، دفع القارب بعيدًا باستخدام المجداف. لم يكن الرجل يملك إلا مشاهدة القارب وهو يبتعد، بلا حول ولا قوة.

عندما غادروا نهر "اليانجتسي"، تحول لون الماء تحت القارب من الأخضر إلى الأصفر. ومع دخولهم مياه نهر "قوارب التنين"، الخضراء، المتقلبة، أصبح "تشين لاو دا" أكثر حذرًا، وأبقى عينيه ثابتة على سطح الماء.

كان عرض النهر ستين كيلومتراً. ينبع من كهف غير معروف، قرب قرية "قوارب التنين"، تتجمَّع مياهه المغلية في بركة عميقة خارج الكهوف المغطاة بالطحالب. ثم تسقط من فوق ثلاثة تلال عالية، وتجري في طريق متعرج طويل. وبعد عبورها مضايق "البامبو المر"، ومضيق "الزوج"، ومضيق "الزوجة"، ومضيق "إيجر"، بالترتيب المذكور، تصبُّ في النهاية في نهر "اليانجتسي".

كان الأخ الأكبر ممسكًا بالدفة، والأصغر يسحب المجداف. ترك مرور القارب علامات في النهر وكأنه طريق مشقوق. وعند اقترابهم من مياه الشاطيء الضحلة، هتف الأخوان:

- اسحب، اسحب، اسحب!

- اسحب، اسحب، اسحب!

تردد صدى صوتهما في الوادي الضيق، فطارت الطيور المذعورة إلى الخارج. أغلقت "ليان يوي" عينيها، وتكورت في قاع القارب. ثم فتحت عينيها فرأت جانبي الجبل، والقردة تلهو في الغابة. نظرت إلى "تشين لاو دا" وهو يتولى قيادة القارب، نظرت إلى جسده العاري، البرونزي، وعموده الفقري السميك، وساقيه القويتين. شعرت بالخجل لكنها لم تستطع تحويل بصرها عنه. عندما التفتت أخيراً، وجدت أن "تشين لاو أر" لا يرتدي شيئًا هو الآخر، كانت مؤخرته البنية الرفيعة تواجهها، وهو يحاول السيطرة على الدفة.

كان من يسبح في النهر الدافئ يشبه شعوره حينها بالاستلقاء على ذراعي شخص عجوز. حكى للأخوين "تشين" جدهما أن أجدادهما كانوا يلقون بسهم أمام حفرة حمراء وحفرة سوداء، حتى يقرروا إن كان عليهم البقاء أم العيش بالقرب من النهر. بعد ذلك، قرروا البحث عن مكان جديد للاستقرار. سافروا في الوحل نحو الغرب خطوة تلو الأخرى، وهناك أقاموا بولاية "با تسي" الشهيرة.

على ضفاف هذا النهر هاجر أجدادهما، وفي مياهه سبحت أرواحهم. كان "تشين لاو دا" يحب هذا النهر و"قارب البازلاء" قدر حبه للحياة.

حمل "تشين لاو دا" الحبل على كتفه، ونادى في الجبال الممتلئة بالقردة:

- اسحب! اسحب! اسحب!

شعر بالاطمئنان والقوة، وسال العرق على جسده مثل قطرات المطر. ومع عبورهم للمياه الضحلة، ألقى "تشين لاو دا" الحبل وقفز في النهر.

رغم شعورها بالخجل، تعجبت "ليان يوي" عندما أدركت أن الأخوين لا يعيراها انتباهًا. كانت بالنسبة لهما أحد أجولة الملح. في هذا السكون الغامض، لم يعد للفتاة ولا للمدينة أهمية. لكنها لم تستطع مقاومة استراق النظر إلى جسديهما العاريين.

بدأت السحب تتكثف فوق نهر "قوارب التنين"، ومع اقتراب الليل، بدأ المطر ينهمر. ابتلعت "ليان يوي" القطرات الأولى التي سقطت على شفتيها؛ لترطب حلقها الجاف. لكن فجأةً تحولت القطرات إلى سيل، وسمع الأخوين صراخها.

صاح "تشين لاو دا":

- اهدئي، لا تتحركي!

سحبا القارب نحو شجيرة. غطَّى "تشين لاو دا" الملح بمعطف مطر مصنوع من النسيج، ثم ساعدها على الوقوف، لكنها دفعته بعيدًا. رأى في ضوء البرق وجهها الذي يكسوه الخجل. فجأة، أدرك أنه عارٍ، لا يرتدي حتى بنطالًا، لكن رغم خجله، قال لها:

- ليس هناك وقت، علينا الإسراع.

كانت الأمطار غزيرة، حتى أنها حجبت الوادي والنهر بعض الشيء. أسرعت "ليان يوي" بمساعدة الأخوين، قميصها المبلل ملتصق بجسدها، وأنفاسهما الثقيلة في أذنيها. كانت في حالة نشوة، لكنها شعرت بالندم على هذه الخاطرة. لم تستطع دفع الشعور بالذنب لارتكاب فعل خاطئ عن نفسها، خلال دخولهم الكهف.

بدأ الأخوان في الانشغال بالحطب، وبعض البطاطا الحلوة، التي تركاها هناك سابقًا. عندما فاحت رائحة البطاطا المشوية، قدم لها "تشين لاو دا" قطعة كبيرة.

- كلي هذا ولا تبكي، سوف نُعيدكِ غدًا.

- تُعيدانني؟

- أجل، إلى والدكِ، نعرف أنكِ لستِ معتادة على حياة الريف.

كانت تشعر بقليل من الخجل، لكنها بدأت في تناول البطاطا، قضمات صغيرة، فيما انشغل "تشين لاو دا" بإعادة ترتيب الحطب، حتى صنع نارًا على طريقة معابد "باجودا" البوذية، ثم حوَّلت يداه القش المترامي في الكهف بحرفية إلى سرير. وجعل من معطفه وسادة.

قال لها:

- تحتاجين إلى النوم الليلة.

لم تعترض، رغم أنها كانت تُفضل البقاء مُستيقظة، وواصلت التحديق بالنيران المشتعلة في صمت. تناول الأخوان البطاطا الحلوة بشراهة، ثم جمعوا بعض الحطب لإبقاء النار مشتعلة خلال الليل، حتى ناما ظهرًا إلى ظهر. ثارت عاصفة ضخمة خارج الكهف، فبدا الكهف مثل وحش فاغرٍ فاه ملطَّخٍ بالدِّماء. كومت "ليان يوي" نفسها شاعرة بالخوف والبرد. شعرت برغبة في أن يستلقي رجل ضخم إلى جانبها ويضمها ليطمئن مخاوفها.

فجأة صار صوت الرعد قويًّا صادمًا، مثل صوت "تشن شيانغ"، بطل من الأساطير الصينية القديمة، الذي تسلق جبل "هوا" لينقذ أمه.

قفز الأخوان فورًا. أسرع "تشين لاو دا" إلى الخارج، وأخاه خلفه. احتضنت "ليان يوي" نفسها وأخذت ترتعش.

صرخ "تشين لاو أر" من بين البرق:

- يا أخي، لقد ذهب قاربنا مع المياه.

بعد دقائق، رأت "ليان يوي" "تشين لاو أر" عائدًا، أخبرها أن أخيه قلق حيالها. شعرت بالامتنان مع انتظار الأخوين طوال ساعتين، بدأت خلالهما الأمطار تهدأ. حيت "ليان يوي" و"تشين لاو أر" الأخ "تشين لاو دا" عند عودته أخيرًا، مبللًا بالكامل.

- وجدت القارب، لكنه مثقوب، أما الملح فقد فقدناه.

أجاب أخوه:

- اللعنة!

فكرت "ليان يوي" لو أنها لم تركب القارب لما اضطروا إلى البقاء هنا لمدة نصف يوم. فربما كانوا غادروا هذا المضيق للراحة في القرية.

قالت:

- سيمنحكما أبي المزيد من المال.

أجاب "تشين لاو دا":

- المال يأتي ويذهب، لا يمكن أخذه معنا. لماذا قد نحتاج إلى مزيد من المال؟

اشتدت النيران اشتعالًا. كان "تشين لاو دا" يجفف ملابسه المبللة. لاحظت "ليان يوي" الجرح في ساقه، والدِّماء تسيل منه فلم تستطع منع نفسها من

الصراخ، لكنه لم يُعرِ الأمر اهتمامًا، فقط جمع بعض الرماد وغطَّى به الجرح. بدا الألم على وجهه، لكنه لم يصدر صوتًا.

بعد برهة، قال:

- سيبزغ الفجر قريبًا، فلتستعر سطحًا مستويًا من النجار، وسنقوم بإصلاحه باستخدام لوح خشبي.

وافق الأخ وانطلق.

بقي اثنان فقط في الكهف، فبدا أضيق. أخفض "تشين لاو دا" نظره؛ كي يتسنى لـ"ليان يوي" تفحصه بدقة. كانت ملامحه منتظمة، مع حاجبين كثيفين، وأنف تنم عن الأمانة. تذكرت "ليان يوي" كيف أن أباها كان دائمًا يرغب في زوج لابنته، يقيم معهما، ويكون صادقًا، شجاع القلب. لكنه لم يجد مثل هذه الصفات في أحد من قبل. تحمست لتلك الأفكار، فحاولت جمع بعض الأغصان لتغطي دقات قلبها القوية، لكن شوكة ما غرست في إصبعها.

- آه!

- ماذا حدث؟

- يدي! لقد أصابتني شوكة.

سال الدَّم الأحمر وانتشر على بطنها الأبيض. بدأ رجل "تو چيا" يشعر بالإثارة داخله. تحرَّكت إلى الأمام والخلف كثيرًا، لكنها لم تستطع تحديد مكان الشوكة. تأوهت فجعل صوتها الرقيق "تشين لاو دا" يفقد السيطرة على نفسه. اقترب منها، وسألها:

- هل تؤلمكِ؟ دعيني أساعدكِ...

نظرت إليه بعينين دامعتين. لم تكن تعرف أسعيدة هي أم غاضبة. نظرت إلى الأسفل كي لا تضطر إلى الرد. كان شعرها الأسود مجدولًا في ضفيرة، يبدو مثل ثعبان. شعر بحلقه جافًا. كانت هذه المرأة مختلفة عن نساء "تو چيا". كان خجلها مختلفًا. أثار هذا "تشين لاو دا"، وجعلته رؤية إصبعها الصغير أمامه يرغب في احتضانها.

أمسك بيدها الناعمة ووضعها على خده المشتعل. ثم مص الدَّم من إصبعها.

- إنه يؤلم.

سحبت "ليان يوي" يدها، لكن مع هذه السحبة سقط جسدها كله بين ذراعي "تشين لاو دا"، الذي احتضنها بشدة وقبَّلها.

شعرت بأنها تسمع صوت رعد قوي. ورغم رغبتها في الصراخ به، كي يجلس للتحدُّث عمَّا يجب فعله، مثل عجزه عن وراثة متجر "التوفو" إن لم تكتمل الإجراءات بالشكل الصحيح، لكنها فشلت. كانت تعرف أنه قوي، لكنها لم تتخيل أن بإمكانه التصرف بهذا العنف. إلا أنها قاومت بضعف، وبداخلها شعور بأنه قد يكون الشخص المناسب.

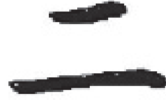
- يجب أن تتزوجيني.. تزوجيني يا عزيزتي.

التهم "تشين لاو دا" جسدها الناعم، وهو يواصل الترديد:

- يا ابنة الـ"هاكا" العزيزة، أنا أقبلكِ.. ستتزوجينني.. تزوجيني.. يا ابنة الـ"هاكا"، أنا أقبلكِ..

عاد أخوه مع ضوء النهار، كان اللهب ضعيفًا. كان "تشين لاو دا" يجلس في هدوء بجانب النيران. كأنه يقرأ الطالع. وكانت هذه المرأة القادمة من المدينة تضفر شعرها، بعينين مغضوضتين.

شهق "تشين لاو أر" بقوة، وركل حجرًا إلى خارج الكهف، بغضب.



قاموا برقصات الحداد على مدى آلاف الأعوام.

لا يشعر شعب "تو چيا" بالحزن لوفاة شخص ميتة طبيعية. فهم يدركون أن مـن يموتـون في حادث عنيف هم فقط من يهيمون في طي النسيان، عالقين بـين ضـفتي نهـر، لا يصـلون إلى أي منهما. وحده الرقص العنيف يساعدهم عـلى إنهـاء رحلـتهم. مـن المهـم مـداواة جـروح الحيـاة الدنيا، والتخلص من أوجاعها، قبل أن ترتفع الأرواح. يجب أن تحظى الروح ببداية سـعيدة بعـد رحيلها عن الأرض.

يحضر عدد كبير من الأصدقاء والأقارب، لا يضطرون إلى الغناء، بل يمكنهم قرع الطبول أو الرقص.

هناك أغنية ورثوها عن أسلافهم:

"التلال شديدة الانحدار،

الأحصنة تُسرع،

حرة وطليقة مثل السهل.

المياه سريعة،

والأمواج مضطربة،

هذا هو الطريق إلى السماء".

بعد ثلاثة أيام من العاصفة، عاد قارب البازلاء إلى مياه نهر "قوارب التنين".

رغم أن سبع فقط من العائلات الثماني يعيشون هناك، إلا أن القرية أطلقت على نفسها هذا الاسم تيمنًا بالنهر. تحت شجرة "جنكة" كبيرة شُيد منزلان، منزلا عائلة "تشين".

مع اقتراب القارب من الشاطئ، استعمل "تشين لاو أر" كلمة "شقيقة زوجتي" عدَّة مرَّات لإيقاظ "ليان يوي". لم تكن منغمسة في أحلام عذبة، لكن نقاشهم التلقائي عن المهام المنزلية أيقظها من نومها. لم يلحظ البحاران غير المكترثين شحوب وجهها، وهما منشغلان بصف القارب في الميناء. لكنهما شعرا بالقارب يهتز بعنف، وومض شيئًا أخضر، فستانها الأخضر الأنيق تفتح مثل زهرة لوتس في الماء.

أدرك "تشين لاو دا" أن أخته العزيزة من الـ"هاكا" قد قفزت في النهر.

عادة، لم يكن ليجد أي صعوبة في إنقاذ سيِّدة تغرق، لكن تصرفها المفاجئ سبب صدمة له. استلزم الأمر جهدًا كبيرًا لسحب كتفيها من تحت الماء ورفعها إلى القارب.

أغلقت "ليان يوي" عينيها، وهي تشعر بدموعها تجري. لم تقل شيئًا، رغم تساؤلات "تشين لاو دا". شعر بقلة الحيلة وهو يتأمل جمالها، وبدأ ينتابه بعض الندم على ما ارتكبه من خطأ عظيم.

تحدث "تشين لاو أر":

- اللعنة!

انزعج "تشين لاو دا"، وقال:

- من الأفضل أن تعود أنت.

ترك أخوه له القيادة، وتوجه جهة الضفة، واختفى في فجوة "البامبو".

استلقت "ليان يوي" على أرض القارب فمال "تشين لاو دا" فوقها وداعب شعرها الرقيق. ثم لعق دموعها اللذيذة المالحة.

- عزيزتي سليلة الـ"هاكا"، لقد تبعثر شعركِ، وفقدتِ حذاءكِ، ذلك يؤلم قلبي.

استلقت "ليان يوي" بين ذراعيه وهي تبكي.

- دعني أمت، أرجوك دعني أمت.

- كيف لي فعل ذلك؟ أنا أريد لكِ السعادة.

- لكن لديك زوجة، لماذا تحبني؟ لقد اغتصبتني.

- لكنني أحبكِ، أحبكِ بشدة.

احتضنها بقوة. تساءلت إن كان يفهم ما تقوله. فبالنسبة لرجال "تو چيا"، كان اغتصاب زوجة أحدهم أمرًا محرمًا، لكن الوضع أقل صرامة في حالة النساء غير المتزوجات. فهن لا يجلسن على نفس مقعد زوجة صاحب المنزل، أما مغازلة شقيقته فلا إشكال فيها.

- يجب أن تتزوجني، لقد أخبرتك بذلك بالأمس.

قبَّلها "تشين لاو دا"، ثم قال:

- لديَّ زوجة بالمنزل، لكنكِ طفلتي الجميلة الغالية، أختي العزيزة، سوف نكون عاشقين إلى الأبد..

وقبل أن يكمل الجملة، ضربت "ليان يوي" ذراعه بقوَّة وصرخت:

- استمع إليَّ يا "تشين لاو دا"، أنا من عائلة محترمة، لست فتاة ليل تسللت إلى نهر "قوارب التنين"، لقد خدعتني وسلبت براءتي، والآن تريد الاستمرار في لعب الحيل في الظلام؟ هاه؟

شعر بغضبه يتأجَّج.

- لكن كل ما أقوم به يجري بلا سقف فوقه، ظننت أننا حبيبان، أحب بعضنا بعضًا لذا مارسنا الجنس تلك الليلة، ما الذي تحاولين القيام به الآن؟ تحاولين إقحام القانون في الأمر؟

تراجعت "ليان يوي" وأخفضت كتفيها. وأشارت إلى "تشين لاو دا":

- ليس لديك قلب.

انفجرت دموعها، وحاولت القفز في النهر مرَّة أخرى، لكنه منعها، فصفعته.

- اضربيني رجاءً، لقد أوقعتِ قلبي في هذه الحيرة، ماذا أفعل الآن؟

- فلنتزوج، إن لم تفعل فسأحيا في عار بقيَّة عُمري.

- نتزوج؟ وماذا عنها؟

- اتركها، إن كنت تحبني فلتتركها.

- أتركها؟

- تزوجني، سوف ترث متجر "التوفو" الخاص بأبي، وسنتمكن من العيش في حال أفضل من حالك هنا بين الجبال.

بينما كان "تشين لاو دا" وأخته من سلالة الـ"هاكا" مُنهمكين في هذا الموقف، كانت زوجته "باتشا" تقوم بسلخ أرنب بسكين حاد. قُتل الأرنب لتَّوِّه في التلال خلف المنزل، باستخدام حجر صغير. قام الجد بتربية "باتشا" كأنها صبي. كان يصطحبها في رحلات الصيد مع الكلاب المفترسة. كان دائم الاعتذار إلى إله الجبال، فالنساء لا يذهبن للصيد. كان يقول "إله "جبل آماي"، رجاء لا تغضب، فهي مجرد طفلة". وبفضل هذه التجارب، تعلَّمت "باتشا" صيد الحيوانات بالأحجار الصغيرة.

تم إعداد الأرنب بغير عناء، ووُضع في إناء له ثلاث أقدام، مع كثير من الزنجبيل والفلفل الأحمر. قدرت "باتشا" أن زوجها سيعود قريبًا، وأن عليها إعداد بعض اللحم. مع غروب الشمس، كانت "باتشا" قد قطعت الخشب ووضعته في النار، وبدأت الرائحة تملأ الإناء.

استنشق "تشين لاو أر" تلك الرائحة من أسفل الشجرة. ذهب إلى الباب دون أن يحدث صوتًا ووجد زوجة أخيه تُبقي النيران مشتعلة وهي ترتدي المريلة الخاصة بها. كانت تمسك بأنبوب نفخ فلمع وجهها وفمها البراق باللون الأحمر. نادى "تشين لاو أر" من مكانه خارج المشهد:

- أختي!

فاستدارت سريعًا، وألقت كل ما في يدها في سعادة عندما أدركت هوية محدثها.

- مرحبًا بعودتك، مرحبًا بعودتك! انظر إلى جسدك المُبلل! أين شقيقك؟

لمست يداها الدافئتان كتفيه النحيلتين مما جعله يرتعش.

- سيعود قريبًا.

سأل نفسه إن كان الحزن في صوته واضحًا.

- حسنًا، فلتتناول طبق حساء لتدفئتك.

وأحضرت طبقًا من لحم الأرنب الساخن مع عصي الأكل.

- سأحضر لك بعض الملابس الجافة.

كان يتمتع بدفءٍ وعذوبة منزل زوجة أخيه طوال عامين مضيا. لقد تحول من صبي سيئ التغذية إلى رجل مفتول العضلات. شعر بالضيق حين تذكر تلك الفتاة التي تسكن بالمدينة، وهو يستمتع بالحساء. لا يمكن مقارنتها بـ"باتشا"، لماذا مال قلب أخيه إليها؟

ابتسمت "باتشا" قائلة:

- كيف كانت الرحلة؟

- لا تُصدق.

قالها وبصق كمية كبيرة من العظام.

- ماذا؟

- لقد ثُقب قاربنا وفقدنا الملح.

- لكن من الجيد رؤيتك في خير حال.

لم يرد.

أضيئت المصابيح، لكن "تشين لاو دا" لم يعد. نظفت "باتشا" الصحون ونظرت إلى النهر. غطَّى الطرق ضباب كثيف. وبدأ عنقها يؤلمها، فجأةً لمحت ظل شيءٍ يقترب متعثرًا. ميزته فخرجت مسرعة من تحت شجرة الـ"جنكة".

قفز "تشين لاو دا" مذعورًا:

- ما هذا! ما هذا! ما الذي تحاولين القيام به؟ هل تحاولين قتلي رعبًا؟

دخل من الباب وجلس في صمت. تناول طبقًا كبيرًا من نبيذ الذرة مع لحم الأرنب. ثم سقط نائمًا على الفور. هزَّ صوت شخيره القوي قش السطح. واستيقظ في منتصف الليل من العطش، فحاول تناول المغرفة ليشرب من البرميل، لكن ذلك لم يكن يسيرًا، فناولته "باتشا" الشاي.

- اشرب هذا، إنه شاي قوي.

لكنه عجز عن النوم بعد تناوله، فاستلقى مُستيقظًا في محيط دفء جسد زوجته.

- بسبب الملح؟ ما دام هناك تلال خضراء فلا داعي إلى القلق بشأن الحطب. يُمكننا سد الدين على مهل. هناك الكثير من الديون، ولا داعي إلى القلق بشأن هذا بالتحديد.

تنهَّد بعمق، ونظر إلى السقف.

اقتربت "باتشا" منه. ضغط نهداها على خدِّه، ولمست يداها عظام وجهه، ودلَّكته برفق.

شعر بالحزن. إن "باتشا" امرأة من معدن جيد.

كانت جنازة جد "باتشا" حدثًا جليلًا. كان العجوز يحظى باحترام الجميع. في ذلك الوقت، جلست على ركبتيها أمام كفنه تشاهد الرجال يقومون برقصة الحداد. كانت خصور البحارة قوية مثل النخيل القصبي المرن، عضلاتهم تتلوَّى وتشتد كأن السناجب تجري تحت جلودهم. كان نداء البرية يخرج منها. دون هدايا الخطبة وخبراء الزواج، قامت بإعطاء "تشين لاو دا" زوجًا من الأحذية المصنوعة من القماش، قامت هي بصنعها في مهرجان الفتيات. صارت رمزًا للحب. لم يهتم "تشين لاو دا" كثيرًا بالحصول على زوجة؛ لأن عائلته تعيش وتعمل على القارب، بمجرد امتلاء بطونهم، ينفد كل ما لديهم من مال. كان فقيرًا وله أخ أصغر يتولَّى تربيته. لكن "باتشا" لم تهتم بهذه الأمور الدنيوية. تركت أكواخها الثلاثة وذهبت إلى القارب تحمل متاعها الضروري فقط. ومنذ زواجهما الذي مرَّ عليه عامان، أصبحت مسؤولة عن جميع أعمال الحقل، ولم تشعر بالندم مطلقًا.

عندما تذكر "تشين لاو دا" ذلك، سالت من عينيه دمعة فلاحظت "باتشا".

- ما الأمر؟

- أريد إخباركِ بشيءٍ.

- حسنًا، قل ما تريد.

- سافرت معنا في القارب فتاة من متجر "التوفو" في المدينة. أرادت الهرب من الحرب.

سألت "باتشا" باهتمام:

- أوه، فتاة من المدينة؟ هل هي جميلة؟

- وجهها ناعم مثل البورسلين وأصابعها رشيقة، يقولون إن بإمكانها الكتابة والرسم، لكنها فتاة وتواجه صعوبة في العيش.

- يبدو أنك تفحصتها جيدًا!

قال معترفًا:

- لقد أقمت علاقة معها.

ساد صمت. انتظر "تشين لاو دا" تسلُّم صفعة، لكن الجسد الذي كان بين يديه انسحب. في النهاية، انفجرت "باتشا" في الضحك بمرارة.

- أنا عالية الذوق بالفعل، فالرجل الذي أحبه، أحبته كذلك فتاة من المدينة.

وضحكت مجددًا.

- لا تخشَ العار، لن ألومك، الرجل الجيد دائمًا ما يجذب قلوب الفتيات. لكنني - أنا "باتشا" - امرأة جميلة كذلك، يمكنك لمسي ومقارنتي بها.

سحبت يديه نحوها، فشعر كأنه يلمس ظهر سمكة ملساء، تشق طريقها بين صخور النهر الحادة، بين مدٍّ وجزر دائمين. لمس عنقها والارتباك يتملَّكه، وبدأت يداه في الاستكشاف. شعر فجأةً كأن يد الرعد صفعته من بين أعماق اللا وعي. كيف تتصرف؟ ما الذي عليك فعله؟ فتاة جميلة من سلالة الـ"هاكا"،

مُحبة ومعطاءة. إنها تنتظر منك المزيد بعد ما فعلته، ظننت ذلك وعدًا بالزواج. والآن تمارس الحب مع امرأة أخرى. تلهو بمشاعر امرأة أخرى.

تدحرج بعيدًا، قائلًا:

- رجاءً، لا تلوميني، لا أستطيع فقدها.

- الأمر يعود إليك. لا ألومك.

- كلَّا. لن توافق هي على ذلك. أنتِ لا تفهمين.

- ماذا ستفعل؟

- دعيني أذهب، وسيصبح كل ما في هذه الغرفة ملككِ.

بعد دقيقة، جلست وأشعلت مصباح الزيت، سقط الضوء على صدرها العاري وبدا التشكُّك في عينيها.

فتحت فمها، وعضَّت كتفه بشراسة، بأسنانها القوية، لينتشر الألم في جسده. قال:

- لن أرحل، لا تخافي، رجاءً لا تسبِّبي لها الأذى، لقد تسبَّبت لها ما يكفي من الأذى.

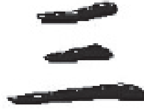
أطلقت سراح كتفه وبكت بقوة. كان الصوت أشبه بتمزيق القماش المُبلَّل.

أيقظ صوت البكاء "تشين لاو أر". ذهب إلى نافذة أخيه. وعبر ورق النافذة الرفيع تمكن من رؤية الغرفة مضاءة بمصباح الزيت، وجسد "باتشا" العاري يلامس صدر أخيه. أصابه الموقف بالغضب العارم حتى عجز عن التنفس. جاءه كلب أسود وتمسح في قدمه، ثم لعقه بلسانه المُبلَّل. ركل "تشين لاو أر" رأس الكلب بقوة، فصرخ الكلب المذعور.

صرخ "تشين لاو دا":

- من هناك؟

أسرع "تشين لاو أر" إلى الحائط وتبول بأريحية، كأنه لم يكن هناك مطلقًا.



طفا ضباب بنفسجي اللون فوق قاعة حداد "تشين لاو دا". اجتمع الأصدقاء تحت شجرة الجنكة يتحدثون ويضحكون. والقيشاني الأبيض والأزرق في كل مكان على الدرج. بعضهم يرقص للجنازة والبعض يلعب الورق أو يتلو القصص. ورثوا إحدى هذه القصص عن أسلافهم، تحكي عن مملكة قديمة، تدعى ولاية "با تسي". كانت قديمًا منغمسة في الحرب. سافر أحد القادة المهمين، وهو "با مان تسي"، إلى ولاية "تشو" لإقناع الملك "تشو" بإرسال المدد إلى ولايته لردع المُحتلين. ووعد الملك "تشو" بثلاث مدن في المقابل. كيف يمكن لـ"با مان تسي" أن يقدم حتى مدينة واحدة؟ لكن الصدق عنده كان أهم القيم، ولم يكن ليخون الملك "تشو" أو يخلف وعده.

انتصر "با مان تسي". وبعد طرد المُحتلين، قام بفصل رأسه من عنقه، بعد أن عهد إلى أحد تابعيه بأخذها إلى الملك "تشو" دليلًا على تقديره لكرمه. قام الملك بطلي جُمجمته بالذهب، ودفنها في تربة ولاية "تشو" كتذكرة بإخلاصه غير المسبوق. ثم لم يُذكر أمر المدن الثلاث أبدًا.

"تخلَّص من أحزانك،

تخلَّص من أحزانك،

إن كنت قطعت عهدًا،

سينتهي عندما تفي به،

إن كُتب عليك دين بالحبر الأحمر، فامحه بالحبر الأحمر

إن كتب عليك دين بالحبر الأسود، فامحه بالحبر الأسود

إن كان عليك دين من أمنية تمنيَّتها،

فسوف يُمحى حين تتحقَّق".

جلست "باتشا" أسفل شجرة الجنكة، التي واجهت على مرَّ الأعوام أقوى موجات نهر "قوارب التنين". كانت الشمس تُشرق. خرج صوتها الأجش بأقوى كلمات قاموس "تو چيا".

"اقفزي في النهر واتركي نفسكِ لشياطينه، دعي الشياطين تسحبكِ إلى الجبال. دعي أشباح هؤلاء الذين قتلوا أنفسهم تطاردكِ في المنزل، أنتِ يا من نظرتِ في عيني زوجي الأعمى وقبلتِ لسانه الفاسد..".

حضر سُكَّان القرية وشكلوا دائرة تُعيد تشكيل نفسها، حيث يرحل الأفراد بالداخل فيأتي سُكَّان من الخارج لتكوين الدائرة من جديد. قامت "باتشا" بالتقطيع. تكون شرخ كبير على القَطَّاعة. وظهرت الدمامل على يدها. فلطخ الدَّم اللزج القَطَّاعة. حبس "تشين لاو دا" نفسه في المنزل يشرب نبيذ الذرة الخالي من الرائحة. ومن وضعه متكومًا أسفل الإفريز، من الشروق وحتى الغروب، حدَّق "تشين لاو أر" في قطعتين من "البامبو" تتلألآن باللون الأصفر، على شكل نصف قمر صغير، من أجل قراءة الطالع، وفي النهاية، وقف وسار نحو شجرة الـ"جنكة" صارخًا:

- توقفي يا أختي.

قالت والدمع يسيل على وجهها المُحمر:

- يا أخي، سوف تتفكك عائلة "تشين" في النهاية.

اسودَّ وجه "تشين لاو أر":

- كلا، لا يمكن لشيء تفكيك عائلة "تشين"، أنتِ لا تعرفين إلا القليل عن طبعنا يا أختي. لا يمكن لأخي ترك نهر "قوارب التنين" أبدًا.

تجمَّدت "باتشا" في مكانها وأسقطت لوح التقطيع.

اقترب "تشين لاو أر" وألقى باللوح في النهر. طفا على النهر وتحرك، مثل رجل كبير السن يسير على طريق غير منتظم، حتى اختفى عن الأنظار.

لم يفعل "تشين لاو دا" شيئًا طوال يومين سوى شرب النبيذ، يصب الكوب تلو الآخر. اتبع الطريق العشبي حتى الضفة، ونظر إلى المنزل المؤسس على أعمدة ثابتة، حيث تعيش امرأة الـ"هاكا" الصغيرة. في ذلك الوقت، وعندما حان وقت الوداع، أسرعت السيِّدة الجميلة والدموع في عينيها نحو مدخل منزل عائلتها.

- أسرع إلى هنا يا "تشين لاو دا".

أومأ برأسه.

حدَّقت فيه بعينين دامعتين، وقالت:

- إن لم تتزوجني يا "تشين" فسأخسر حياتي بأكملها، أنا فتاة من سلالة الـ"هاكا".

شعر بقلبه ينفطر.

- أجل، سوف أتزوجكِ، سوف أفعل.

حُفرت هذه اللحظة في قلبه، كيف يمكنه نسيانها! ألحَّت عليه "ليان يوي" كي يعيد التفكير في زيارتها، ليفكر في الأمر، وإن كان ما زال يريد الزواج منها

فعليه اتخاذ الخطوات اللازمة والذهاب إلى الخاطبة. لكن في هذه اللحظة فكر بها، تخيَّلها تقف خلف أحد تلك الأبواب أو النوافذ، تنتظر. شعر بضعف في ساقيه. لم يستطع التحرك خطوة. وفاحت رائحة الكحول من فمه.

فجأة ضحك، ثم تحوَّل الضحك إلى دمع.

خلع "تشين لاو دا" ملابسه ومشى إلى النهر، حتى وصلت المياه شديدة البرودة إلى أعلى ساقيه. فأفاقته. فتح ذراعيه وارتمى على الماء وكأنه يحتضن امرأة. سبح نحو الدوامة ثم غطس تحت الماء عندما اقترب منها. غاص إلى أسفل حتى وصل إلى منتصف مجموعة من الشعب المرجانية. عاد بعدها إلى السطح واستلقى على الأمواج بعينين مغلقتين. عاد إليه وعيه وتمكن من رؤية الأشرع البيضاء ترتفع على حافة القرية. عاد إلى منزله هادئًا، لم يُحدث صوتًا وسرعان ما غيبه النوم.

تتبعت "باتشا" "تشين لاو دا" عدَّة مرَّات، واقتنعت بأنه خسر روحه في نهر "قوارب التنين". اشترت بعض البخور من المدينة، وأحرقت أربعة منها بعد الغروب، في المعبد. قطعت بعض الأغصان ووضعتها أسفل المعبد ثم أشعلت فيها النيران. بعدها، مشت على الشاطئ تنادي اسمه، في محاولة للعثور على روحه:

"قنغ ني! فلتحل الخنازير المُلطَّخة بالوحل محل روحه، والنمل محل حياته. فلتأخذ روحه وحياته بعيدًا، ما بين السماء والأرض! عودي إليَّ يا روحي! عودي إليَّ! يا روحي!".

أفزع صوت "باتشا" الذين يسكنون بالقرب من الشاطئ. شعر الجميع أن "تشين لاو دا" ارتكب خطأً ما. في منطقة الجبال، من المعتاد دخول الرجال والنساء في علاقات حميمية. لكن يجب دائمًا على الرجل أن لا يفقد عقله ويهجر زوجته. تحدث أحد سُكَّان القرية الكبار مع "باتشا"، كان صوتها مثيرًا للشفقة.

- يا فتاة، إن الطريق الوحيد للإمساك بقلب رجل بين يديكِ، هو منحه طفلًا.

شعرت "باتشا" كأن البرق ضربها فجأة. أسرعت عائدة إلى المنزل. وحين وصلت، كان جسدها بأكمله يرتعش. وجدت نبيذ الذرة على المائدة فشربته. أحرق الكحول حلقها. أسقطت الزجاجة وأسرعت إلى رَجُلها.

- "تشين لاو دا"! "تشين لاو دا"!

التفت وقال شيئًا غير مسموع، قبل أن يعاود النوم.

أخذت فوطة ومسحت العرق من على وجهه.

قالت بصوت سعيد:

- سأمنحك طفلًا يا عزيزي. لقد ذُبح جدك، واختفى أبوك بعد أن أمسك به قطاع الطرق، لم يكن من السهل لعائلة "تشين" الاستمرار لثلاثة أجيال. لا يمكنك العيش دون ابن. هل تسمعني؟

احترق جسدها مثل النيران بعد تناول النبيذ. مزَّقت معطفها الشتوي وتخلَّصت من رداء النوم الفضفاض، دفعت زوجها وهي تقول:

- لا يمكنك العيش بلا أبناء يا "تشين لاو دا"، لا أحد يجرؤ على الإبحار بقوارب البازلاء غير عائلة "تشين"، سوف أنجب لك صبيًّا قويًّا.

فتَّح عينيه بصعوبة ونظر إليها.

حينئذٍ فرحت "باتشا" بشدة حتى أنها ألقت بنفسها فوقه، لكن "تشين لاو دا" استدار وأغلق عينيه دون اهتمام.

صفعته فجلس على الفور.

- يا لكِ من حقيرة مجنونة!

تمنت أن يجذبها أو يصفعها أو يضربها، أن يسبب لها أي تأثير أو شعور، حتى وإن كان ألمًا. لكنه لم يفعل. قال ذلك واستلقى للنوم في مواجهة الحائط. شعرت "باتشا" بالبرودة والحزن. أسرعت إلى الخارج عارية، نحو النهر.

قفز خيال من الحائط وأمسك بها بقوة. أصابعه الرفيعة متلاصقة مثل الحزمة.

- لا تكوني حمقاء، يا أختي...

- أخي...

سقطت، عاجزة عن الكلام. استجمع "تشين لاو أر" قوته وسحبها إلى المنزل. سحب زوجة أخيه إلى باب غرفة "تشين لاو دا"، وهو متردد، لكنه سمع في تلك اللحظة شخيرًا قويًّا فغير رأيه على الفور.

لم يكن في كامل وعيه وهو يضع زوجة أخيه على سريره النحيل. كان القمر ذهبيًا ساعتها، كأن هالة من الضوء الأصفر تحيط به. والنهر يصدر فحيحًا مثل ثعبان رمادي. خرج من غرفته في منتصف الليل متعثرًا، وخبط رأسه في شجرة الـ"جنكة" في يأس.

بدأت "باتشا" تسترد بعضًا من وعيها مع مرور الوقت. شاهدت زوجها يتناول الشراب ويكسر الصحون، وكانت تقدِّم له الشاي. كانت الخواطر تشغل ذهن "تشين لاو دا"، حتى أنه لم يلحظ صمت أخيه، حتى البُقع كانت لتظهر على وجهه. تذكر "تشين لاو دا" وعده لسليلة الـ"هاكا"، كان الأمر يثير حماسه أحيانًا، ويسبب له الضيق أحيانًا أخرى فينفس عن غضبه على حائط السد الحجري.

في يوم ما، أذيع أن صاحب متجر "التوفو" قد أتى، لقد وجد زوجًا مناسبًا لابنته، كان الخطيب يملك متجرًا للحرير في المدينة، إضافة إلى بعض أملاك عائلته. فكر "تشين" في الأمر مليًّا، وانتظر يومين على ضفة النهر، رأى محفة تُحمل من أحد المنازل المُشيدة، كانت العارضتان اللتان تُحمل عليهما باللون

الأحمر. لم يتوقَّع مثل هذه النتيجة البسيطة والمعقدة في آنٍ واحد من قبل. كان هو الشخصية الرئيسية، لكنه الآن نكرة. أسرع إلى المنزل، وأخبر زوجته وأخاه:

- سأرحل.

قالت "باتشا" بهدوء:

- ترحل؟

تنهَّد "تشين":

- لقد قطعت وعدًا، إن لم أفِ به الآن فلن أحظى بفرصة ثانية، أنت امرأة صالحة وستتفهَّمين الأمر. سوف أترك هذا المنزل لأخي ولكِ. ويمكنكِ العودة إلى منزل أمكِ إن أردتِ ذلك. سوف أرد لكِ المعروف في الحياة التالية.

جلست إلى جوار الموقد بثبات. تقلبت الفقاعات في الإناء النحاسي الذي كان يغلي على الموقد. أخذت بعض أوراق الشاي من صندوق من "البامبو" وأضافتها إلى الإناء. تغير لون الماء سريعًا. وتقلبت أوراق الشاي مرَّةً تلو الأخرى مثل قوارب البازلاء. ثم مسحت فنجاني الشاي وصبَّت فيهما الشاي الساخن.

- فلتشربا.

تفاجأ "تشين لاو دا" بهدوئها. أخذ رشفة وهو يجزُّ على أسنانه.

- فلتشرب أنت أيضًا يا أخي.

انسحب "تشين لاو أر" إلى الخلف في خوف، حتى التصق بالحائط، وهزَّ رأسه نفيًا.

انفجرت هي ضاحكة، وهي تزن الحزمة البيضاء التي أعدها "تشين لاو دا" للرحيل، في يدها.

- ها ها! هذه هي النتيجة، تخجل من النظر إلى عينـيَّ، لـن أمنعـك. لمـاذا تخفـي سـكين المطبخ؟ هل تخاف أن أقتلك؟ لا تجعلني أضحك.

تجمَّد "تشين لاو دا" وهو يشعر بالخجل.

- في عائلتك رجال صالحون لهـم سـمعة جيِّـدة في هـذه المنطقـة، لا يمكنـك تـدمير هـذه السمعة. حيث إنك قد حصلت عليها، فيجب أن تعود إليها. متجر "التوفو" الخاص بها يحتاج إليك. يمكنك الرحيل إن أردت. لن أمنعك.

تحرَّك "تشين لاو أر" من الزاوية. كانت شفتاه مُتشقِّقتين وعيناه دامعتين. اقترب من أخيه وأمسك بكُمِّه. وقال:

- لا يمكنك الذهاب إلى هناك. لا تكن الحصان الخاص بشخص آخر، أو الماشية التابعة لـه، إن تركت نهر "قوارب التنين"، فلن تصبح أنت ثانيةً.

صاح "تشين لاو دا":

- لا تمنعني يا أخي.

قالت "باتشا":

- دعه يذهب، فلحسن الحظ أحمل الآن طفلًا. إنه ابن "تشين لاو دا"، أخبرتك أنني سـألد لك ولدًا، الآن سوف يرث ابنك قاربك.

قال مصدومًا:

- هل أنتِ حامل؟

تذكَّر فجأةً أنه أقام علاقة مع امرأة، لكن ذلك كان جسد سليلة الـ"هاكا" النحيـف، كيـف خلـط بين السيدتين؟ تضاربت مشاعره وصارت أفكاره غير واضحة.

سارت مباشرة نحو زوجها في بنطالها الواسع.

- يمكنك الرحيل إن أردت يا "تشين لاو دا"، سوف نحمي هذا المنزل. يمكنك العـودة متـى شئت.

أخرجت جنيهي فضة من جيبها ومنحته إيَّاهما.

- هذا مهري، خذه.

هزَّ رأسه ودمعت عيناه فسقط الجنيهان على الأرض الباردة. قال "تشين لاو أر" فجأةً:

- سأرحل أنا.

- أنت؟ إلى أين؟

اشتعلت النيران وأضاءت الغرفة بأكلمها، ليسقط ظل "تشين لاو أر" عـبر الغُرفـة. ارتعـش وهو يشرب الشاي، ولما هدأ بعد بُرهة قال:

- أريد أن أصبح "تي ما".

صدم المستمعان. فالـ"تي ما" هو رجل يمكنه النفـاذ إلى عـالم الأرواح الشريـرة والجيـدة في ثقافة "تو چيا". نصف إنسان ونصف شبح. يحترمهم سُـكَّان القريـة، لكـنهم يخشـونهم أيضًـا. يحتاج الناس إلى الـ"تي ما" في الأفراح وفي حالات الوفاة، لكن يتجنَّبونهم في الحيـاة اليوميـة. لا يمكن للـ"تي ما" العيش كإنسان طبيعي. أصاب هذا القرار "تشين لاو دا" بالقلق.

- أخي، لقد ارتكبت الأخطـاء. لسـت مضـطرًا إلى قـول شيءٍ، سـنأخذ القـارب ونعـيش في سلام...

ابتسم "تشين لاو أر" بحزن:

- لا علاقة لك بالأمر. أنت شخص جيد، لكن لا يُمكنني قول الشيء ذاتـه عـن نـفسي. لقـد أخذت قراري ولا يمكنك إقناعي بغير ذلك.

بكت "باتشا" وهي تقول:

- أليس لي أهمية عندك يا أخي؟

صرخ قاطعًا حديثها:

- لا تقولي هذا!

أسكتت نبرة الألم والغضب في صوته زوجة أخيه و"تشين لاو دا". تناول الحزمة البيضاء التي جمعها "تشين لاو دا"، وقال:

- هذه الملابس تخصُّني الآن.

ثم التقط الجنيهين ولوَّح لهما ورحل.

شاهداه يبتعد في ذهول. اختفى الرجل النحيل مثل الحلم.

لم يدرك "تشين لاو دا" و"باتشا" ما يحدث حتى شاهداه يتَّجه إلى مخرج النهر، بعيدًا عن شجرة الـ"جنكة" الكبيرة. حاولا الإسراع للحاق به، لكنهما فشلا.



四

تسلَّل أسى عميق إلى قلب "تشين لاو دا".

حلَّقت روحه إلى كهوف نهر "قوارب التنين". لم يعد القمر مرئيًّا في السماء، لم يعد هناك سوى بضع نجوم.

ربطت "باتشا" شعرها بمنديل حريري أسود.

بدا وجهها مثل أيام شبابها بتلك النظرة الجامدة التي ارتسمت عليه. صبت بحرص طبقًا من نبيذ الشعير على قبر "تشين لاو دا". فتشربت التربة السائل كأن حلق "تشين لاو دا" هو من يتناوله.

طلبت "باتشا" من حفيدها الجلوس على ركبتيه.

كان الحفيد يمسك بكتاب سميك الغلاف بين يديه، ونظر إلى "باتشا" بعينين لامعتين. ولما رأى اللوح التذكاري في قاعة الحداد، ظهرت ابتسامة على وجهه. كان قد درس في المدرسة العليا بالمدينة، وها قد عاد ليودِّع جدَّه.

- اركع لجدِّك!

انحنى على مهل حتى ركع. كان شعر مقدمة رأسه أشعث يعلوه الطين. لكنه لم يهتم وخلطه ببقية شعره. أمسكت "باتشا" الحفيد بين يديها وقالت لـ"تشين لاو دا":

- أرأيت كيف يركع لك حفيدك؟ فلترقد في سلام.

حملق "تشين لاو دا" بالحفيد الذي كان يشبهه في فترة شبابه بشدة. ارتفع الظلام فاستدار ونظر إلى الطرق المتعرجة. كانت الطرق خضراء، مغطاة بالضباب، توحي بالرخاء، لم تغيرها الأعوام. لا تزال الطرق الخشبية التي حفرها الأجداد مطبوعة على منحنيات الجبل. كل حفرة مربعة تحكي عن صبر التاريخ اللا نهائي.

لقد اعتاد السير في هذا الطريق منذ عقود، تائهًا ومكتئبًا. كان يصرخ ويصفع جدران القرية الصخرية الصلبة بذراعيه القويتين، مرارًا وتكرارًا.

يجري نهر "قوارب التنين" عبر الأمم، بلا توقف، وبلا وعي.

كان الشتاء يقترب. غطت طبقة ثلج رقيقة نهر "قوارب التنين". كان قارب البازلاء مقلوبًا على وجهه تحت شجرة الـ"جنكة". لم يعمل سُكَّان القرية في الشتاء. فُرشت الذرة الذهبية بالأعلى، ووُضعت البطاطا الحلوة في الفرن. وخُزن الخشب لإشعال النار خلف المصرف المفتوح. عندما تهب الرياح على نهر "قوارب التنين"، تُحلِّق أوراق الشجر في السماء، ويجلس الصغير والكبير معًا، أمام المدفأة بأريحية للتمتُّع بالدفء.

تملأ "باتشا" أوقاتها بالعمل، بينما بطنها يكبر. قامت بحياكة ملابس للطفل، وأعدَّت الخضراوات المملحة، وشرائح البطاطا المجففة تحت الشمس. كذلك علَّقت الأسماك التي اصطادها "تشين لاو دا" فوق الفرن.

مع اقتراب السنة الجديدة، أعدت العائلات الثرية المأدُبات للأصدقاء والأقارب. كان هناك الكثير من النبيذ واللحم والألعاب النارية في كل مكان. أمَّا عن الفقراء، فيعني العام الجديد لهم طبقًا من الأرز و"التوفو". لم تكن هناك

صعوبة في الاحتفال بالعام الجديد لمن يسكن في بيت من الحجر، حيث يتعبَّـدون لإلـه الأرض والسماء، إله المطبخ وإله الأرض، ويعدُّون بعـدها الوجبـات لمهرجـان الأضـواء، يعـدُّون طبقًـا ساخنًا يطلق عليه "تو چيا" "هونغ قوه"، يضـعون الطبـق عـلى موقـد مـن الفحـم، ويسـوون اللحم المقدد، ويعدُّون الثوم والشطة، ثم يضيفون مسحوق الفول المجفـف وشرائـح البطاطـا المجففة إلى حساء من الزيت، ويتركونه حتى يصبح ثقيلًا.

نام "تشين" جيدًا في الشتاء، حفرت رأسه حفرة جوفاء في الوسادة المصنوعة من التبن. ترك لعابه دائرة بيضاء، لكنه استيقظ فجأةً من حلم ما في ليلة حالكة الظلام، وشعر كأن ثقل ذراع امرأة يضغط على صدره، كان جسده بأكمله جافًا وساخنًا. مسح فمه وجلـس، فسـمع صـوت الثلج يذوب على بعد، وصوت الأشجار تتمدد.

قال "تشين":

- الربيع آتٍ، الربيع آتٍ.

قفز من سريره وأسرع نحو الشجرة، لمس قارب البازلاء مرَّة تلو الأخرى، كأنه حصان قديم متجعد. فجأةً تذكر ذلـك المشـهد الـذي وقـع في الخريـف، تلـك المـرأة الخلَّابـة جالسـة عـلى القارب، فشعر بقلبه ينفطر.

ثم وجد لوحًا، فأصلح القارب على ضوء الفجر. لم يعرف أن زوجته تقف خلفه، تشـاهده، لمدة طويلة، حتى أدرك وجودها.

- هل ستُبحر؟

- أجل.

- إلى المدينة؟

وقف فجأةً، وعندما التقت أعينهما، نظر بعيدًا.

بعد فترة، ملأ القارب بخيرات الجبل، وأزاح الثلج المتبقي تحت ضوء شروق الربيع المبكـر، ثم انطلـق في نهـر "قـوارب التنـين". عنـد مصـب نهـر "يـانجتسي"، رأى بوضـوح نـوع الحيـاة المزدحمة بالأعباء التي يعيشها سُكَّان المدينة على الضفة الأخرى. بدت الشوارع الطويلة مثـل حزام رجل سمين وفخور بذلك. نظر إلى عالم لا ينتمي إليه، فملأه شعور بالحزن والندم.

وعندما صعد السُلَّم المؤدي إلى متجر "التوفو" الخاص بالرئيس "تشانغ"، فوجئ بـأن بـاب المتجر قد أزيل، لتنكشف للقادم صالة واسعة، بهـا سـبعة أو ثمانيـة مكاتـب. كانـت الحـرارة مرتفعة، وكان هناك طبق يحوي أحشاء الحيوانات يغلي على النار. اقـترب مـترددًا مـن امـرأة تكسو وجهها بثور الجدري، كانت تستخدم مروحـة مـن أوراق الخـوخ لتزيـد النـار اشـتعالًا. سألها عن مكان الرئيس "تشانغ" وابنته.

توقَّفت المرأة ونظرت إليه بنفور، وهو يقف بعصبة رأسه وبنطاله الواسع.

- لماذا تسأل؟

أجابها:

- نحن أقارب.

- أقارب؟ يبدو أن الاتصالات انقطعت بينكما. أليس كذلك؟ لقد حدث تغيير كبير، أتـرى؟ قدم الرئيس "تشانغ" متجره مهرًا لابنته وتوقع من زوجها أن يهتم به في كبره وينظم جنازتـه، لكن ابنته لم تكن عذراء. فألقوها إلى الخارج. قد يتحمَّل الرئيس "تشانغ" خسارة المال، لكن لا يتحمَّل خسارة سمعته. وعندما وبَّخه أقاربه على إتمام الزواج، شنق نفسه.

لم يتمكَّن "تشين" من تصديق الأمر.

- ماذا عن الفتاة؟

- فتاة؟ كانت تحمل جنينًا، لكن لا أحد يعرف هوية الوالد.

- أين هي الآن؟

- ربما في منزل عمِّها...

كاد "تشين لاو دا" يسقط أرضًا في الطريق. ساعتها تلوَّى الطريق، مثل دوامات نهر "قوارب التنين". لكنه استطاع الابتعاد عن السيِّدة ذات البثور، التي كانت تصرخ من الصدمة. أختي سليلة الـ"هاكا"، لقد خنتكِ، كان الأمر برُمَّته خطئي أنا.. كيف لي أن أعوضكِ عمَّا جرى، مهما فعلت!

بدأ المطر يسقط ضعيفًا. تمطر السماء كثيرًا في المضايق الثلاثة. يسقط المطر من السحاب المتجمع فوق منحنيات الجبال. لم يكن في الطرقات سوى قليل من المارة يحملون الصناديق المصنوعة من "البامبو" الأخضر على ظهورهم، الذين صاحوا:

- انتبه!

عند النهر، كان صوت القوارب الغريبة يعلو من وقت إلى آخر، يأتي عن قرب أحيانًا، وعن بُعد أحيانًا أخرى. يجلب معه موجات من الضوضاء عند الميناء.

- لا تبتعد عن جانب الطريق! هيا تحرّك، تحرّك!

تقف المباني الخشبية الحمراء معًا على جانب الطريق، لكنَّ هناك كوخًا يقف وحيدًا، أسفل شجرة الـ"كودزو". كان هذا المنزل أقصر من سائر المنازل، له باب عريض تملؤه الشروخ. يعيش عم "ليان يوي" في هذا المنزل، يبيع الماء. كان وحيدًا وأنانيًّا، يحدِّق في الناس بعينيه المحمرَّتين بلون الدم. تولَّى حبس "ليان يوي" في كوخه، حيث يصعب على أي شخص الوصول إليها.

الآن، كان العم يحمل إناءين كبيرين، في طريقه إلى النهر. حملت "ليان يوي" خزَّان البول إلى الخلف. شُيِّدت المدينة على تضاريس وعرة، مما جعل الأرض باهظة الثمن. وصار البناء في المساحات المفتوحة صعبًا ونادرًا. لذا كانت العائلات الصغيرة تستخدم خزَّانًا يصل ارتفاعه إلى الركبة، كحمَّام يقومون بتفريغه في النهر في الصباح التالي. ينظفونه بفرشاة من "البامبو". كانت "ليان يوي" تخشى السير بالخارج في الطريق، لذا اعتادت إفراغ الوعاء في ساحة المنزل الخلفية، مما يزيد خصوبة التربة.

التفتت فرأت فلَّاحًا شاحب الوجه، يحمل حقيبة ظهر ممتلئة ببيض أحمر وأبيض.

- كم ثمن البيض؟

التفت الرجل، ورأى عظام وجنتيها والنمش، وشعرها الجاف ومعدتها المستديرة.

صاح بمرارة:

- أختي!

سقط الوعاء من يدها أرضًا وتكسَّر إلى أجزاء. حينها فقط رأت الرجل بوضوح. إنه البحَّار! ربط شعره بقوَّة بوشاح أسود يبدو أنه من الحرير، يُغطِّي نصف حاجبيه وعينيه. رأت على صدره صفًّا من الأزرار التي تُكوِّن ما يشبه الشبكة. يرتدي بنطالًا أسودَ اللون، قصيرًا وخشنًا. شعرت "ليان يوي" كأنها تختنق، وتحوَّل لون وجهها من الأحمر إلى الأبيض.

- ما الذي جاء بك إلى هنا الآن؟

كان يتألَّم لحالتها، حتى أمسك بيديها وهو يقترب قائلًا:

- إنه خطئي، اصفعيني، اقتليني!

دفعت يديه بعيدًا كأن ثعبانًا أو عقربًا لدغها. مرَّ بعض الرجال بالطريق الضيق، في قمصان طويلة، نظرت "ليان يوي" حولها في قلق، وأمسكت دموعها:

- اصمت. هيَّا ارحل من هنا.

- سأكون خادمًا لكِ.. سأفعل أي شيءٍ.

ظل يتمتم:

- لا يُمكنني ترككِ.. لن أتركَكِ تُعانين وحدكِ.

صرخت باشمئزاز:

- اذهب! اذهب!

شعر بالحيرة، وأصابه الدُّوار. كان يفكِّر في الغضب الذي تكنُّه له منذ زمن طويل. لم يكن ليمانع لو أنها أحرقته أو قامت بتقطيعه. تمنَّى لو تفتح الباب وتسمح له بالدخول. إن فعلت لانحنى أمامها دون تردُّد، مثلما فعل من قبل، عندما أخذ يدها وطلب منها العفو. لم يكن يعي أنها سيِّدة نسيت أمره بالفعل من هول ما عانته. والآن، عندما واجهت هذا الريفي الغبي، تذكَّرت همجيته في الكهف ثانية. سبب لها ذلك رعشة ندم وعار. أصابها تذكُّر عُريها في ذلك المساء الخريفي بالاشمئزاز، حتى أنها شعرت بإهانة حقيقية. التوى وجهها غضبًا:

- اغرُب عن وجهي، ارحل من هنا!

توقَّف للحظة، ورفع البيض إلى الأعلى:

- لا تؤذِ نفسكِ بالغضب، فأنا..

أمسكت بالبيض وألقته في وجهه. تكسر البيض والتصقت الرائحة الكريهة بوجهه فغطَّت على أفكاره.

لا يعرف كيف عاد إلى نهر "قوارب التنين"، وفور وصوله إلى هناك، استعاد السيطرة على حواسِّه وألقى بنفسه في النهر.

انشقَّ الماء أمامه يدعوه إلى المرور، وبدأ الضباب في التجمُّع. أحاط به السمك وضربه حتى سقط في حفرة عميقة، تشبه قبرًا يعرفه جيِّدًا. ينمو عشب البحر الناعم في القاع بكثافة. التفَّ حول ساقيه وذراعيه. فكتم أنفاسه واستلقى في الحفرة. وصوت السمك المار يصل إلى أذنيه. داعبه الماء وأراحه كأنه أيدي أسلافه، ليزيل عنه العار المُشتعل بالتدريج.

تمنَّى لو ينام إلى الأبد.

سمع صوتًا صدر من مكان ما في الهواء.

- هل أنت رجل حقًّا؟

قال الصوت بعناد:

- اخرج.

كانت هناك سيِّدة ترتدي فستانًا أخضرَ، وتسير بأريحية فوق سطح الماء. لوَّحت له من بعيد. استجمع كل ما أعطاه الأسلاف من قوة، وحرَّك المجداف، لكن قاربه ابتعد عنها أكثر فأكثر. في النهاية، استسلم واسترخى مُطلِقًا تنهيدة كانت محبوسة بداخله منذ زمن طويل.



五

"تخلَّص من أحزانك! تخلَّص من أحزانك!

من أين يأتي هذا المُغنِّي؟

جئت من الطريق الشرقي الخشبي.

من قابلت في الطريق؟

قابلت ترسة تتألَّم

لكنني لا أهاب الألم

من أي طريق أتيت؟

أتيت من الطريق الجنوبي الناري

من قابلت في الطريق؟

نمر يزأر

لكنني لم أهب زئيره

من أين أتيت؟

أتيت من الطريق الغربي الذهبي

من قابلت في الطريق؟

غراب ينادي

لكنني لم أهب نداءه".

...

مرَّ الصيف سريعًا، وأزالت رياح النهر العطرة حر الصيف، واسترخت الأبقار وسكنت، بينما المزارعون يصلحون سلَّاتهم ويستعدون لجمع الذرة.

في الغروب، احترقت الشمس فوق النهر في مشهد جميل، وكانت القرية حية وهادئة في الوقت نفسه. نادت سحب الدخان على الأطفال الأشقياء وهم يسوقون البقر عائدين من ضفاف النهر، بالتزامن مع إعادة الخراف والماشية إلى الحظيرة.

كانت "باتشا" في الخارج، ببطن ازدادت صلابة وحجمًا، تتجهز لالتقاط ثمرة فلفل حار تتدلى من الإفريز، حينئذ لمحت "تشين لاو أر" مصادفة وهو يسير حاملًا لفافة أسفل شجرة الـ"جنكة". لم يتبادلا كلمة منذ عام تقريبًا. كان جسده نحيلًا، تلقي الأشجار على وجهه ظلالها. تفاجأت "باتشا" وازدادت ركلات الجنين في بطنها قوة، مما اضطرها إلى الاستناد إلى الحائط خلفها. شاهدها "تشين لاو أر" دون أن تصدر عنه أي حركة.

تنهَّدت "باتشا" قائلة:

- أنت عائد يا أخي العزيز!

- أجل.

- تفضل بالدخول، أخوك ينتظرك بالداخل.

لكنه هزَّ رأسه رفضًا.

- كلّا، سأبني منزلًا ولن أزعجكما.

واصل "تشين لاو دا" في الأيام القليلة التالية محاولة إقناعه، لكنه لم يتخلَّ عن هذه الفكرة. قام بتنظيف الكهف خلف شجرة الـ"جنكة"، ونقل متاعه وملابسه إليه. لم يطلب من "تشين لاو دا" سوى مائدة، ونصب الهيكل في الكهف مع ثلاثة آلهة. ظل الكهف محمَّلًا بدخان البخور. كانت حقيبة الظهر التي عاد بها "تشين لاو أر" محمَّلة بكل ما يستخدمه الـ"تي ما"، منها سكين بثلاثة عشر سنًا، ورمز لعصي الأكل، ورمز للعملة النقدية، ورمز لـ"البامبو"، ومعها قميص لونه أحمر وأزرق وبه وقلنسوة. تم إخفاء هذه الأشياء في شق خلف الكهف، تاركًا جزءًا صغيرًا منها بارزًا.

عاش "تشين لاو أر" حياة خاملة، مثل سحابة أو طائر "الكركي البري". لم يعد يعمل في النهر أو في الحقول، لكنه يحضر حفلات الزفاف، والحداد، ويذهب في زيارات بالمناطق المحيطة بالجبل.

يومًا ما، خرج طفل في الصباح ولم يعد حتى حلول الليل. لم تجد عائلته له أثرًا. تناقش الناس في احتمالية قيام النمر بالتهامه. بعد ثلاثة أيام، أشار "تشين لاو أر" إلى الجنوب الغربي، وقال إن الطفل قد يكون هناك. بالفعل، عثر عليه هناك، نائمًا على الحشائش إلى جانب مجرى مائي.

وفي يوم آخر، سقط أحد رجال القرية من أعلى التل، وعجز عن تحريك ضلوعه. قام "تشين لاو أر" بمضغ بعض الحشائش، ثم أمر الرجل بابتلاعها، ثم طلب من الرجل القيام من سريره.

اعترضت العائلة، لكنَّ الرجل المُتعرِّق حاول مغادرة السرير بالتدريج، ووجد أنه يستطيع السير خطوة تلو الأخرى على مهل. ثم بدأ يسرع، حتى راح يهرول حول المنزل ويصيح من الفرح.

ذُهل سُكَّان القرية بالأمر، واختلفت نظرتهم إلى "تشين لاو أر". أصبحوا ينادونه "السيد" بدلًا من استخدام اسمه مجردًا، لكنَّ أخاه وزوجته هما من كانا يشعران بالحزن عليه فقط؛ لأنه لم يحصل على أي شيءٍ من العائلة، ورفض الزواج. عندما فشل أخوه "تشين لاو دا" في مساعدته، طلب من زوجته أن تعد له الطعام يوميًّا.

كانت كلما أخذت له الطعام لا تراه. في أحد الأيام، استيقظت مبكرًا وأعدَّت الخبز الساخن مع الذرة الطازجة، ثم حملت السلة ومشت متثاقلة نحو الكهف، حيث يعيش "تشين لاو أر". ولما وصلت، سمعت صوت همهمة، ورأته يمارس الكهانة، أمام قطع "بامبو" على هيئة هلال. رأت تفاحة آدم الكبيرة تتحرَّك إلى الأعلى والأسفل. شعرت بالقشعريرة، وتسارعت ضربات قلبها خوفًا.

فتح عينيه فجأةً، وسأل:

- ماذا تفعلين؟

- أعددت لك بعض مخبوزات الذرة، فلتتذوَّقها.

ووضعت المعجنات المصنوعة من الأرز أمامه.

حملق في بطنها الضخم مثل الجبل، بوجه أزرق اللون. شعرت "باتشا" بعدم الراحة، لكنها قالت:

- أخي، هل يمكنك إحضار أم "باتشا"؟ من فضلك، أريدها لتباركني أنا وابني.

- أين الابن؟

ارتعبت. كان شقيق زوجها غامضًا، بوجه خالٍ من التعابير. صارت مشاعره السابقة مجرد ذكرى. أصبح غريبًا وقاسيًا. ندمت على قدومها إليه وتحمُّل سخافاته. عندما التفتت للتوجُّه إلى خارج الكهف، طرق أذنيها صوته.

- لن يكون لكِ ابن!

صُدمت، وانزلقت في حفرة. وشعرت بشيءٍ دافئ يسيل بين ساقيها.

كان "تشين لاو دا" قد ذهب للصيد، متوقعًا الولادة بعد يوم أو اثنين. كان قد اصطاد سمكة طويلة، حملقت فيه مباشرة وجسدها يلمع تحت الشمس. وأخبره فمها بشيءٍ كان يعرفه بالفعل. شعر بالقلق. قام بقطع شبكة السمك وصب السمك في القارب. لكنها فجأةً قفزت في الهواء، مخلفة وراءها خطًّا من الماء، يشبه عقد اللؤلؤ، ثم وقعت في النهر وعاودت السباحة بخفَّة. التفتت لتنظر إليه بعُمق، ثم هربت ولم يعد لها أثر.

نادى راعي بقر صغير:

- أيها العم العزيز، تعالَ بسرعة من فضلك!

كان الرضيع السمين صبيًّا بلا شك. كان مستديرًا وله وجه يشبه القمر التام. أما عنقه، الذي يلتف حوله الحبل السري، فقد كان أزرق اللون.

تنام "باتشا" في السرير، وجسدها مُغطًّى بالدِّماء. تحيط بها نساء نهر "قوارب التنين" المتعاطفات معها. في حين يمسك "تشين لاو دا" برأسها، وشعرها السميك، يكتم نحيبه المؤلم.

نامت "باتشا" ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، ثم جلست فجأةً تبحث عن رضيعها. ثدياها المنتفخان ممتلئان بالحليب. بكت "باتشا" وابتسمت، وهي تحمل الوسادة المصنوعة من الحنطة السوداء بين ذراعيها، وترفع ملابسها، قائلة:

- تناول بعض الحليب!

طلبوا الطبيب وقدَّم لها بعض الدواء لموازنة الين واليانغ، لكن ذلك لم يُحدث أي أثر. كانت تنتحب وتلعن ثم تضحك بعنف، حتى بدا للعالم كأن حيوانًا جامحًا حبس هناك.

بعد نحو ثلاثين يومًا، خرج "تشين لاو أر" متجهًا إلى الغرفة الحجرية. كان أخوه يعطي زوجته بعض الدواء. وفي لمح البصر، قام "تشين لاو أر" بإلقاء الوسادة التي كانت تمسك بها في النار.

لم تتمسك بها "باتشا"، لكنها صرخت:

- ابني!

قال:

- مات ابنكِ! مات ابنكِ!

حدَّقت به "باتشا" وتغيَّر لون وجهها، لتقفز فجأةً من السرير وتمسك بهذا الجسد الماثل أمامها.

- لقد عدت أيها الشبح، انصرف، انصرف!

رفع "تشين لاو أر" ذراعه لأعلى وصفع وجه "باتشا" بقوة، تورَّم وجهها على الفور، مثل الرمان المهروس. ثم سقطت ودارت عيناها إلى الخلف.

أسرع "تشين لاو دا" واحتضنها وهو يصيح:

- ماذا تفعل؟

قال أخوه:

- فلتخرج أنت، اخرج، سوف أقوم بإنقاذها!

كانت عيناه باردتين مثل القبر، مما دفع "تشين لاو دا" إلى التردُّد. ثم سمع أخاه يصيح:

- لقد تماديت، ابتعد، ابتعد...

وبلا وعي، حملته ساقاه إلى نهر "قوارب التنين". تكوَّر إلى جانب الطحالب الخضراء. أشرقت الشمس لتوِّها، وكانت الغربان تصدح بسعادة على الأشجار. ارتفع الضباب الأبيض عن النهر، وتطايرت الأوراق الحمراء فوق الجبل. وكأن كل شيءٍ يتعافى. أمدَّت الطحالب جسده بالدفء، مع ارتفاع الشمس. شعر بالدفء يسري من ظهره إلى بقيَّة جسده. شعر بالامتنان لكونه حيًّا. سوف يذهب إلى النهر، يجمع البضائع ويملأ قارب البازلاء ثم يتجه إلى نهر "اليانجتسي"، أو إلى مكان أبعد. سوف يكون له ابن، وحفيد... لم يستطع استيعاب احتمالية بقائه دون ابن، لم يصدق الأمر لأنه مستحيل.

عاد إلى المنزل الحجري محمَّلًا بمشاعر مختلفة. كان المنزل نظيفًا، لكن "باتشا" لم تكن هناك. انتظر دقيقة، ثم اتَّجه إلى وراء شجرة الـ"جنكة".

نادى بصوت مرتفع:

- عودي يا "باتشا"!

لم تصل إليه أي إجابة من زوجته. حتى أخوه كان مُختفيًا.

كان يذهب يوميًّا إلى الطريق، من الصباح وحتى المساء، لينتظر هناك. قال لنفسه، لعلها عادت إلى منزل أمها في "شن نونغ جيا"، أو لعل أخوه اصطحبها إلى الجبال بحثًا عن أطباء حكماء. كانت النساء يَسِرن في الطريق دون أن يُعِرْن انتباههن له، تشبه صدورهن الزجاجات الطافية فوق مياه النهر.

لكنَّ الطريق ظل خاليًا رغم مرور عدة أيام. كان هناك طائر يمر فوقه، وذلك أكثر ما كـان يراه. بدأ يشك في عودتها، خاصة وقد تملك منها الحزن منذ فترة طويلة.

نما العفن الأبيض في ركن الغرفة في غيابها، وأصبح السرير باردًا. أدرك حنان زوجته تجاهه للمرَّة الأولى. كانـت مثـل الميـاه في النهـر، يمكنـه لمسـها وشربهـا، كانـت حقيقيـة. أمـا سـليلة الـ"هاكا" فكانت مثل سحابة في السماء، شيء يمكن رؤيته فقط، لكن لا يمكن فهمه جيدًا أبدًا.

قرَّر الذهاب إلى "شن نونغ جيا" بحثًا عن زوجته، لم يهتم بانتقاد أقاربه له، بسبب فشـله في الحفاظ على امرأته.

لكن في اليوم نفسه، سمع صرير الباب، وخطوات قوية مثـل الرعـد تتَّجـه نحـو المطـبخ، تصب الماء البارد لتشربه، ثم سمع صوت "باتشا" الواثق:

- تعالَ يا "تشين"!

ابتسمت له المرأة بحماس، كان وجهها برونزيًّا من أثر الشمس.

- انظر، لقد أعددته من أجلك.

رأى رضيعًا ملفوفًا في قماشة زرقاء، تدور عيناه في المكان، وفمه الصغير يحاول مص حافـة القماش القريبة من فمه. شعر "تشـين لاو دا" فجـأةً كـأن الحيـاة بعثـت فيـه ثانيـة، احتضـن "باتشا" وحمل ابنه بين ذراعيه. لم يتمكَّن من منع نفسه من البكاء. لم يتحمل الرضيع خشونة لحيته فبكى. حملت "باتشا" الرضيع، ووضعت نهدها بحنان في فمه، فتوقف عن البكـاء وبـدأ في تناول الحليب بشراهة.

استرخت، وقالت:

- هيَّا، تناول وجبتك.

انفجرت الدموع من عيني "تشين لاو دا". لقد أصبح له ابن أخيرًا. عرف أنه ابنه من نظرة واحدة. لم يحتج إلى سؤالها عن طريقة عثورها عليه. كان حذاؤها الممزق يشي بكل شيءٍ. شعر أنه سيعيش مدينًا لها إلى الأبد.

بعدها، أصبح "تشين لاو دا" أكثر رجال القرية اجتهادًا. يستيقظ مبكرًا ويعمل حتى وقت متأخر. في الموسم المزدحم، يقوم بترتيب الشعير والبطاطا الحلوة على المنحدر، أما في الموسم الأسود، فيقوم بصيد السمك في قارب البازلاء. لم يعد يشرب إلا نادرًا. كانت ضحكات الرضيع تجلجل في المنزل الحجري. كانت "باتشا" تعد الأطباق الشهية. يشعر المارُّون إلى جانب شجرة الـ"جنكة" بدفءٍ العائلة في حقل الشعير النظيف، والفأس اللامعة مستندة إلى بوابة المنزل الأمامية.

لكن لا مهرب من المصائب، فقد كانوا يأتون ويحاولون ضمه إلى الجيش، لكن من حسن الحظ أنهم يأتون دائمًا حينما يكون خارج المنزل. عندما عاد وسمع عن تلك الزيارات، أخرج الخنجر الذي طُعن به جده، وعلقه على باب المنزل. كانت هناك شائعة تنصُّ على أن سماح شيخ القرية أو حاميها للضباط بالضغط على الناس للانضمام إلى الجيش، فسوف يحاربهم غير مبالٍ بسلامته الشخصية. نجحت تلك الشائعات في إعادة السلام إلى القرية. فلا يوجد في هذا العالم من لا يخشى شخصًا خطرًا.

六

مكث الكفن هناك خمسة أيام، لكن لحسن الحظ لم تفُح أي رائحة. كان طقس الخريف في الجبال باردًا.

لاحت رياح الخريف ورسمت كَمًّا لا نهائيًّا من الكلمات غير المرئية على حواف الجبل. حارب الرجال البرد بتناول نبيذ الشعير، ليشرب كل منهم نخب الآخر. تحت البرق، سيطر دخان النبيذ على وجوه هؤلاء الرجال، تلك الوجوه المميزة لنهر "قوارب التنين"، الجبهة والفم والأنف العريضة.

"آه، آه!

تخلَّص من أحزانك.

الكيلين ملك الوحوش،

والعنقاء ملك الطيور،

والتنِّين ملك الأسماك،

والسلحفاة هي الأكثر هيبة بين الحيوانات،

هناك كثير من المخلوقات في هذا العالم،

لكن الإنسان هو الأعظم".

...

راح عشرات من الرجال يرقصون أمام قاعة الحداد، يميلون إلى الأمام والخلف، ويتحرَّكـون إلى الأعلى والأسفل، يتموجون مثل الجبال. كانوا يلوون خصورهم، يفصحون عن أسرار تعرفهـا الآلهة منذ القدم. صُممت الرقصات حتى تصيب الشياطين بالاختناق في صـمت. كـان المـوت عتبة يقف الناس إلى جانبها دائمًا. خبط الرجال بأقدامهم الأرض بقوة، وخطـوا إلى عتبـة بـاب الموت، يتخيلون لحظة وفاة "تشين لاو دا".

سواء جاء أم غدا، فسيستلزم الأمر سبعة أيام حتى تعبر روحه الحاجز بين الحياة والموت.

لم يكن الموت مخيفًا أو غير مألوف بالنسبة إلى "تشين لاو دا".

في أحد الأعوام، مع حلول الشتاء، كان "تشين لاو دا" عازمًـا عـلى الـذهاب إلى النهـر مـرَّةً أخرى قبل أن يُغطيه الثلج؛ لجلب بعض البرتقال من أجل سـنة جديـدة سـعيدة مـع زوجتـه وابنه. دفع قارب البازلاء في مياه النهر الضحلة، وتقـدم بصـعوبة، لكـن مـع وصـوله إلى نهـر "اليانجتسي"، سمع إطلاق نار.

أصبحت ضفة المدينة مثل خلية نشطة، يذهب الناس ويأتون مثـل النحـل. تـذكر "تشـين لاو دا" فورًا سليلة الـ"هاكا"، أسفل شجرة الـ"كشت" الصفراء. شعر بالقلق على سلامتها. فقرر أن لا يعود، لا بُدَّ من الذهاب للاطمئنـان عليهـا، مهـما كانـت المخـاطرة. اختبـأ بـين الصـخور لليلتين، ولما توقف إطلاق النار عبر النهر أخيرًا، جدف بالقارب إلى الجهة الأخرى.

كان رجال الجيش ينتظرون عند الميناء، لكن عنـدما رؤوا ملابسـه الممزقـة ومظهره القبيح، بدت عليهم الطمأنينة والرضا. كان هناك عديد مـن الضـباط الذين يتولُّون تنظيف الطريق الحجري، بمياه من حوض من النحـاس. والنـاس

في الطريق يبتسمون لبعضهم بعضًا بتواضع. توجه "تشين لاو دا" إلى شجرة الـ"كشت" الصفراء، فوجد الباب مغلقًا، مما زاده قلقًا.

أخفى ارتباكه وسأل عن السيِّدة في المنطقة، فأخبره أحدهم فورًا أن السيِّدة ومعها عمُّها السقا، قد ذهبا لإعداد الطعام للجيش في مبنى المحافظة. فكر لوهلة وازداد قلقه وهو يسير على الطريق الجانبي، كان من السهل إيجاد مبنى المحافظة.

كان من المعتاد رؤية أسود من الحجر على البوابات للحماية، لكنَّ الأسدين الواقفين على السلم العالي لهذا المبنى، بدا كأنهما يرمقان الناس بازدراء. دخل من البوابة، كان للمبنى تاريخ لا يقل عن مئة عام، إفريزه عالٍ وأعمدته محفور عليها تنانين ووحوش. كان منقطًا، ويوحي بإحساس الوحشة. كانت كثرة القادمين والمغادرين أمرًا جيِّدًا. توجه "تشين" إلى الساحة الخلفية، ورأى السيِّدة الصغيرة التى كان يشعر بالقلق حيالها، تقف بالقرب من النافذة، وسط سحابة دخان.

كانت تبدو جميلة، في قميص لونه بين الأبيض والأزرق، وبنطال أخضر. كان وجهها نحيلًا، لكن به نضارة. كانت تضع حبوب الصويا في سلَّة كبيرة من "البامبو" بسعادة. بدت في ذلك المكان الصغير وكأنها جنِّية خيالية تدور حولها كل الكواكب. لم يجد "تشين" كلمات تناسب الموقف.

جاء صوت من خلفه:

- أنت يا هذا، عمَّن تبحث؟

التفت فرأى ضابطًا مُلتحيًا يشير إليه. لم يسعفه ذهنه بجواب مناسب. سأله المُلتحي مجدَّدًا فأشار إلى "ليان يوي" من خلال النافذة. تحمَّس المُلتحي وذهب لإحضارها.

قابلته "ليان يوي"، كست وجهها الدهشة في البداية، ثم سألت بهدوء:

- هل تبحث عنّي؟

شعر "تشين" برغبة في المغادرة، لكنه لم يستطع الحركة. هزَّ رأسه وهو يشعر بالغضب من نفسه. كان خائفًا أن تغضب فتصفعه. لكن "ليان يوي" رفعت عينيها بروية ونظرت إلى السماء الزرقاء فوق الساحة، ثم تنهَّدت قائلة:

- إنه الآن عصر التحرير.

كانت "ليان يوي" المثقفة تتمتَّع في هذا الوقت بذهن سعيد وسعة صدر؛ بسبب تغير الأقدار الذي حدث لها. تولَّى عمُّها تربيتها منذ مولدها، لكنها اكتشفت السكينة بعد الصدمة العاطفية التي أصابتها. لطالما صنعت نعال الأحذية وباعتها، على مدار اليوم في المنزل الخشبي، لكن التجارب السوداء غيَّرتها. أمدَّ عمُّها الجيش بالشاي والماء خلال الحرب وأصبح بطلًا. ذهبت "ليان يوي" إلى العمل في ثاني أيام الحرية، أعاد الاحترام لـ"ليان يوي" المتعلِّمة المُهذَّبة ثقتها في نفسها وتسامحها، وتخلَّصت من كراهيتها لرجال نهر "قوارب التنين". أصبحت تشعر أن العالم غامض ومُبهم. إن لم تقابل "تشين لاو دا"، لم يكن ليحدث شيء من هذا، كانت لتتزوَّج مالك متجر الحرير، الذي كانت حياته لتتبدَّل تمامًا عقب التحرير. من هذا المنطلق، أصبحت تنظر إلى "تشين" المُلتحي كقريب فقير من الريف، دون مشاعر حب أو كراهية.

لم يعرف "تشين لاو دا" بما يدور في رأسها، لكنه شعر أنها ليست غاضبة منه، مما منحه الطمأنينة. الآن يمكنه العودة إلى نهر "قوارب التنين".

لكن في هذه اللحظة، بدأ الناس يسرعون إلى الساحة الخلفية. كان هناك ثمانية أشخاص يجلسون في دائرة يأكلون الذرة ويشربون حساء الخردل. رحَّب المُلتحي بـ"تشين لاو دا" ودعا الرجال إلى العشاء. قدَّمت له "ليان يوي"

طبقًا وعصي أكل، فأخذها بتردُّد. كان "تشين لاو دا" يتناول العشاء مع ضابط للمـرَّة الأولى في حياته، وكان مذاق "التوفو" الذي أعدَّته "ليان يوي" فريدًا.

جلس الضابط المُلتحي القرفصاء، وتحدَّث إلى "تشين" أثناء تناول العشاء، وعندما سمع أن "تشين لاو دا" قد أتى من نهر "قوارب التنين"، لمعت عيناه وأنزل طبقه. ثم سأل باهتمام:

- هل تعرف التضاريس هناك جيدًا؟

- بالتأكيد.

- هل توافق على أن تكون دليلًا لنا؟

أراد الرفض، فالقارب يحوي حمولة برتقال تنتظر قيامه ببيعها. كذلك تمكث زوجته وابنـه في انتظاره بالمنزل، لكن عندما لمح تحمُّس "ليان يوي"، أجاب:

- لا مانع.

ثم حدث أمر آخر.

لم ينتظر "تشين لاو دا" فترة طويلة قبل شروعه في قيادة مجموعـة مـن الضـباط لمحاربـة اللصوص في الجبال. كان الضابط المُلتحي وكل مـن في فريقـه رجـالًا أقويـاء، فلقـد نجـوا مـن الحرب، لكن الضابط كان يخشى الثعابين ويرتعب كلما رأى المخلوقات الطويلة النحيلة.

في ذلك الحين، كانوا يختبئون بين أعشاب يصل ارتفاعها إلى خصورهم؛ ليفاجئوا مجموعـة من اللصوص متجهة إلى النهر. كانت السماء تحوي مجموعة من الطيـور تحلـق فـوق سـطح النهر. وبينما يزحف "تشين لاو دا"، شعر بالإثارة القوية التي تسبق المعارك الضخمة.

كان محظوظًا لقبوله دعوة الضابط، لقد حصل أخيرًا على فرصة لـزرع خنجـر أو سـلاح في صدر أحد اللصوص. لكن في تلك اللحظة تحديـدًا، صرخ الضـابط المُلتحـي عنـدما رأى ثعبانًـا يبلغ طوله خمس بوصات يتَّجه نحوه مباشرة. شعر "تشين لاو دا" بالعرق البـارد. كـان ثعبانًـا سامًا جدًّا. فمن يلدغه هذا الثعبان لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام. لم يتمكَّن من التفكير في هذا الوقت، فقط قام بضرب الثعبان بقوَّة وأطاح به بعيدًا عن ذراعه. وقـع الثعبـان، وفي اللحظـة نفسها، شعر "تشين لاو دا" ببرودة في ذراعه. حاول عديـد مـن الضـباط خلفـه ضرب الثعبـان بمؤخرة أسلحتهم. انتشرت البرودة في جسد "تشين لاو دا" وسقطت يده.

قال:

- عليَّ العودة إلى نهر "قوارب التنين".

قام اثنان من الجنود بحمله إلى نهر "قوارب التنـين"، كـان جسـده مزرقًـا بالكامـل. نصـح جميع سُكَّان القرية - كبيرهم وصغيرهم – "باتشا" بإخلاء الحقل. فمن يموتون نتيجـة حـادث جليل، لا يجوز وضعهم في الغرفة الرئيسية. كان "تشين لاو أر" هادئًا، لمس جسد أخيـه لبُرهـة قبل أن يقطع ذراعه اليمنى بالسكين. لم يرَ أحد من أين حصل عـلى السـكين. انـتشر الـدَّم في كل مكان، وسقطت ذراعه بين التراب. تمدَّدت الأصابع في الهـواء ونـزف دم أسـود مـن مكـان القطع. ارتجف جسد "تشين لاو دا" بقوَّة وبصق كمية كبيرة من الدَّم الأسود.

ثم صنع سلم من 36 سكينًا أسفل شجرة الـ"جنكة". جلس "تشـين لاو أر" مرتـديًا قميصًـا من اللونين الأحمر والأخضر، مع تنورة ملونة. ووضع على رأسـه قبَّعـة طويلـة، عُلقـت عليهـا أجراس برونزية.

- احرق عصا من البخور الذهبية، واثنين من بخور الفضة، وثلاثة من بخور "وانغ لا بـاو". أتوسَّل إليك يا إله النهر وإله "بو سي تشنغ".

أنشد "تشين لاو أر"، بينما ينشر النبيذ حول الغرفـة الرئيسـية. فجـأةً، أصـبح جـو الغرفـة مهيبًا. ثم خرج ووقف تحت الشجرة الكبيرة. صعد السلَّم حافي القدمين، وفي فمه شاة مُقيَّدة.

- اركب البغل والحصان، السكين الصغير يمنع مترًا، والسكين الكبير يمنع عشرة أمتار.

عند وصوله إلى أعلى السلم، رفع الشاة فوق رأسه. رفرف صقر في الهواء، وفي هـذه اللحظـة، قطع رأس الشاة، فسقطت على الأرض. نادى الأرواح والمُستنيرين:

- لقد كان أخي سيئ الحظ هـذا العـام، واجـه صـعوبات كثـيرة. كـان يخـرج بسـعادة في الصباح ويسقط في النهر عند المساء، لم يكن طريقه سهلًا على الإطلاق. سـأغيِّر القـدر! ولنـدع الحجر يتكلَّم.

بعد الغناء، أسقط "تشين لاو أر" حجـر القـدر – وهـو حجـر بيضـاوي عـلى أحـد جانبيـه شخصية تمثل الحياة وعلى الجانب الآخر شخصية تمثل الموت، وهو نوع مـن قـراءة الطـالع - من فوق سلم السكاكين، فسقط عند قدم "بـوه أر" ابـن "تشـين لاو دا". أمسـك بـه "بـوه أر" وأعطاه إلى أمه. رأت "باتشا" أنه يحمل كلمة حياة، فنزلت من عينيها دموع الفرحة.

استلقى "تشين لاو دا" في المنزل الحجـري، يتـألَّم. فـتَّح عينيـه الغـائرتين ونظـر إلى سـقف المنزل. ثم استيقظ فجأةً.

تناول حساء الدجاج الذي أعدته "باتشا"، ثم قال:

- لكل شخص قدره.

لم يتوقَّع أن يأتي نتاج اهتمامها بهذه القوة، أمدَّه حساء السمك والأرانب بالعناصر الغذائية، واستعاد جسده بأكمله الصحة.

شعر "تشين لاو دا" أن صحته عادت ثانية. دعاه أحد العاملين بالمقاطعة ليصبح عضوًا في رابطة القرويين. تردد "تشين"، لكنه ذهب إلى حكومة المقاطعة وهو يشعر ببعض الأمل، متجاهلًا اعتراض "تشين لاو أر" و"باتشا".

فرح الجنود برؤيته، فأجلسوه وقالوا:

- لقد أتيت أخيراً، مرحبًا بك.

ابتسم الضابط المُلتحي وقدَّم إلى "تشين" ميدالية صفراء، وورقة مكتوبة بخط يد جميل. لا يعرف "تشين" القراءة، لكنه يعرف أن لهم قلوب طيبة، فاحتضن الورقة.

فجأةً، رأى الثوب الأبيض والأزرق عبر النافذة. تسارعت دقَّات قلبه. من الغريب أنه لم يكن يخشى صيد الفهود في الجبال، أو أشباح نهر "قوارب التنين"، لكنه يشعر بالتوتر ويفقد القدرة على الحديث في المدينة. قال وهو يشعر بالضيق:

- هل لديكم بعض النبيذ؟

توقَّف الضابط وابتسم:

- بالطبع، فأنت تستحقُّه.

حلَّ الظلام، وكانت النوافذ مُزيَّنة برسوم لتنانين وطيور العنقاء. وكان للكون لون أصفر باهت بالنهار. لكن الآن، أشعل مصباح الزيت، فأضفى بريقًا جذَّابًا على الغُرفة. وعندما دخلت "ليان يوي" الفاتنة، تلألأت الغرفة فجأةً.

ابتسمت "ليان يوي" قائلة:

- لقد جئت؟

وقف "تشين".

- أجل.

شعرت بارتباكه، فقالت:

- رجاءً، تفضَّل بالجلوس.

قدَّمت إليه بعض الأطباق الفخمة، فيها الجـزر مـع حبَّـات الفاصـوليا، وقـدَّمت الخنزيـر والفول المقلي. ملأت "ليان يوي" كأسين صغيرتين من النبيذ. كانت الكؤوس مُحلَّاة بأزهار خوخ بنفسجية. ملأت "ليان يوي" الكؤوس وأومأت برأسها استعدادًا للرحيل. كان "تشين" يعرف أنه يستحق هذه المعاملة الباردة، لكنه شعر بالغضب. رفض كأس النبيذ وطلب صحنًا.

رفع الضابط المُلتحي كأسه وضحك:

- أجل، رجال "تو چيا" يتاولون أطباقًا كبيرة من النبيذ وقطع لحم ضخمة.

لم تعلق "ليان يوي"، أحضرت له طبقًا لونه أزرق وأبيض. لم يعد "تشـين" يـرى أحـدًا، مـد ساقيه، ورفع النبيذ بيد واحدة ليشربه مثل تنِّين يسبح. نظر إلى الأعلى بشفتين مُبلَّلتين.

قال الضابط المُلتحي إنه "رجل حقيقي"، ثم خلع معطفه ورفع كأسه.

استهلكوا نصف برميل من النبيذ. تضاءل ضوء المصباح الزيتي حتـى لم يبـقَ سـوى حلقـة ضعيفة من الضوء عند كتف سليلة الـ"هاكا" الممتلئ المستدير. مدَّ يده، وقال:

- تناولي بعضًا أيضًا.

هزَّت "ليان يوي" رأسها رفضًا، لكنَّ "تشين" رفض سحب يده بعناد. فأقنعها الضابط المُلتحي بأدب. وتناولت "ليان يوي" الطبق على مضض. تأمل "تشين" شفتيها المحمرَّتين ويديها المرتعشتين.

في تلك اللحظة، دخل المنظم وطلب التَّحدُّث إلى الضابط المُلتحي، قال إن هناك سبعة أو ثمانية لصوص تم إحضارهم إلى رابطة القرويين، وطلب الأوامر، تحوَّلت ملامح الضابط إلى الجدِّية، فطلب من "تشين" مواصلة الشرب، ثم ترك الغرفة ومعه سلاحه.

هزَّ "تشين" وعاء النبيذ الفارغ، وطلب المزيد بتبجُّح مصطنع.

لم تعره "ليان يوي" انتباهها.

- لا تكوني مُدَّعية. أتظنين أنني لم أرَ نساء من عينتكِ من قبل؟

أرادت "ليان يوي" الخروج، لكنَّ "تشين" كسر طبقه وجذبها من كتفها الدافئة نحوه.

قالت بصوت خافت:

- ماذا تفعل؟

صاح بغضب:

- هل نسيتِ كل شيءٍ؟ أنتِ... أنتِ...

قفزت برقَّة مثل القطة؛ لتغطي فمه بيدها الدافئة. واقتربت منه بوجه في نعومة اللوز، لتخنقه الرائحة الفاتنة.

- لا تصرخ! ماذا تفعل؟

أغلق "تشين" عينيه على دمعتين. أمسك بها بيد واحدة وهو عاجز عن الكلام. أراد التعبير عن شوقه إليها، أن يحكي لها كيف يشرب ابنهما الحليب،

وأن يتحدَّثا عن ذكريات نهر "قوارب التنين"، لكن قبل أن يفتح فمه، أخذته إلى السرير الصغير. فهم "تشين" نيتها فاشتعل جسده كله.

قالت:

- أسرع...

وأطفأت المصباح.

تخيل "تشين" تلك اللحظة مئات المرَّات، وكل مرَّة يصيبه الأمر بالدُّوار، لكن الحلم يتحقَّق الآن. خاف كسر جسدها النحيل وهو يمسكه.

قال وهو يئنُّ:

- فلتقبليني، يا سليلة الـ"هاكا".

لكنها نفرت من لحيته، وألحَّت عليه كي يسرع. شعر بسبب التقزُّز الواضح أنه ذاهب إلى النهر البارد. جلست المرأة على السرير، وخلعت ملابسها قطعةً تلو الأخرى. أنار جسدها الأبيض الغرفة على الفور، لكن فعلتها هذه بثَّت فيه برودة الثلج والجليد.

فهم "تشين" أخيرًا أنها لا تبادله المشاعر. كانت تشعر بالشفقة تجاهه، هذا كل شيءٍ. لقد فقد ذراعه اليمنى بسببها. وبينما كانت تخلع ملابسها، أخبرته أن لا يقترب منها بعد هذه الليلة.

استلقت المرأة على السرير في هدوء، وانتظرت. شعر "تشين" برغبة في الضحك على هذا المشهد الذي حلم به مرارًا وتكرارًا، وتبخَّرت رغبته. فهو رجل وليس خنزيرًا بريًّا. كان هذا عظيمًا. شكر الأجداد عليه بثلاث ركعات وتسعة قرابين.

"أنت رجل، يمكنك الصراخ، والوقوف منتصبًا عند مقدمة قارب البازلاء، تقود السفينة مثل سيف حادٍّ، يقطع صدر النهر، تاركًا السحاب خلفك، وتجعل

القردة على الجانبين تُسرع هربًا. في هـذه اللحظـة، مـن أنـت؟ مسـترخٍ وشـغوف، لا تشـعر بخجل أو اشمئزاز. يجب أن تعود إلى ذلك".

بعد هذا الصراع، تفهَّم "تشين" الحقيقة أخيراً، وابتعد سريعًا تحت ضوء القمر.

دفع الباب. كان القمر لامعًا، وبدا مثل تمثال منحوت.

همس:

- سأذهب.

شعرت "ليان يوي" بالحيرة، كأنها تحت تأثير مُخدِّر.



ح

سأل الحفيد "باتشا":

- جدَّتي، كم من الوقت ستُدقُّ دفوف الجنازة؟

أجابت "باتشا":

- ليس المجيء إلى هذا العالم بأمر سهل على أي شخص، ولقد حمل جدُّك عبئًا كبيرًا خلال حياته، لذا يجب أن ندقَّ لمدة أطول حتى يغادر بعيدًا.

قال الحفيد بشك:

- هل يمكنه سماعها؟

- بالتأكيد.

اختبأ الحفيد في الخزانة. كان يذاكر نصف اليوم، ويقضي النصف الآخر مع النَّعش. عندما شعر بالتعب، رأى جده الثاني كجسد فارغ يدقُّ الطبل، بعينين مغلقتين، وكتفين تتحركان إلى الأعلى والأسفل. رسمت على قميصه الكبير نقوش تمثِّل عُملات للأموات. شعر بالحزن على عمل جدِّه الثاني الشاق، فقدَّم له كوب شاي ساخنًا. وجد جدَّه الثاني يحرك شفتيه، لكنه لم يكن يغني أغاني الأموات، بل يتحدَّث إلى بعض الناس بصوت غير واضح.

في هذا الوقت، كان "تشين لاو دا" يقف على التل قرب نهر "قوارب التنين"، المُغطَّى بضباب أبيض، ورأى أخاه يحلِّق فوق الجهة الأخرى من النهر، لكن سواء أسرع أم أبطأ، ما كان لـ"تشين لاو أر" أن يلحق بـ"تشين لاو دا" أبدًا.

قال "تشين لاو دا":

- يا أخي، ليس من الضروري أن تُودِّعني.

- ... يا أخي الأكبر، قد نرتكب كثيرًا من الأخطاء في حياتنا...

- دعك من الأمر. أنت رجل صالح. وأنا أتفهَّم كل شيءٍ.

أومأ برأسه، ودق الطبل كأن يديه شُهُب، كان يعرف أن أخاه يغادر.

"اترك الحزن، اترك الحزن!".

على مرَّ الأعوام العديدة التي تلت هذه الليلة، لم يذهب "تشين لاو دا" إلى المدينة إلا نادرًا، لكنه كان يسمع أمورًا بين الحين والآخر. قيل إن "ليان يوي" تزوَّجت المنظم، الذي قام بدور الخاطبة تلك الليلة حين غادر الضابط. لقد حصل على ترقية إلى المدينة الكبيرة. في المدينة الصغيرة، يتحدَّث الناس عن هؤلاء الذين رحلوا. قيل إن الضابط كان صادقًا وجيدًا، قام بالكثير من الأمور الجيِّدة للسكان، حفر القنوات وبنى الطرق.

شعر "تشين لاو دا" بسلام عندما سمع هذه الأخبار، فرح وابتسم كأنه شخص يتأمَّل الأمر من بعيد. في يوم ما، كان يتناول الطعام، حين نظر إليه ابنه، وقال فجأةً:

- أبي، أصبح لديك شعر أبيض في رأسك.

اهتزَّ الطبق في يد "تشين". كان ابنه وسيمًا، وذقنه خفيفة. كان يعرف أنـه عجـوز، ولديـه تجاعيد على جبهته. شعر ببعض الحزن. فلقد مرَّت عقود، وليس لديه ما يفتخر به، أو يدَّخره لابنه.

من الجيِّد أن ابنه كان نبيهًا. يقدِّم له معلمه عددًا من الجوائز كل عام، تُثبَّت على حـائط الغرفة الرئيسية. كان هناك عديد من الجوائز المختلفة، بعضها فروع من الذرة، وبعضها أعلام حمراء، وغيرها من الرموز الصينية القومية. كان كـل مـن يـزورهم يتوقَّـف ليمدحـه. في هـذا الوقت لم يكن يقول شيئًا. فقط يمتص الدِّفء منهم. كان الابن عنيـدًا، لكـنهما لم يمانعـا ذلـك. خطط الابن لدخول اختبار الجامعة، لكنَّ مُعلِّمي المدرسة أُجبروا عـلى تـرك المـدارس في ذلـك الوقت، فلم يبقَ أمام ابنه التعيس سوى العودة إلى نهر "قوارب التنين".

وفي ليلة عودة الابن، كان الدِّفء قد بدأ في التسـلُّل إلى الموسـم البـارد. كـان ابنـه غاضـبًا. وضع ورقًا أبيضَ على المكتب وقام بتدوين الكثير، لكن في النهاية وضع الفرشـاة وتنهَّـد. ومـع منتصف الليل، سمع "تشـين لاو دا" ضوضـاء عاليـة، وهـو يسـابق "باتشـا" إلى السـد. ووجـدا ابنهما مشمِّرًا أكمامه، يحاول تعديل وضع قارب البازلاء. كان القـارب يسـتلقي أسـفل شـجرة الـ"جنكة" في الشتاء، لكنَّ ضربات قلبيهما تسارعت.

- ماذا تفعل الآن يا "بوه أر"؟

- أريدك أن تُعلِّمني الإبحار.

- حسنًا، بالطبع سوف أعلِّمك.

- حقًّا؟ أريد أن أبحر بعيدًا.

رأى ذراعي ابنه القويتين تحملان القارب بسهولة، وهو يمشي بثبات نحـو نهـر "قـوارب التنـين". كـان لابنـه رابـط طبيعـي قـوي بـالنهر. لكنـه يجهـل كيفيـة

الإبحار، بشكل يثير الخوف أحيانًا، لكنه شق طريقه في المياه المضطربة دون الشعور بـالخطر. صفعت الأمواج الخضراء المجداف. لم يكن القارب مستقرًا، لكـنَّ ابنـه كـان سـعيدًا. لم يسـمح "تشين لاو دا" لابنه بالخروج إلى المضايق، وكذلك لم يعترض الابن. كان يوفر طاقته للسفر بـين التضاريس الأكثر أمنًا.

في أحد أيام فبراير، وفق التقويم القمري. وصـل شـخص مـا إلى "تشـين لاو دا" مـن خـلال رئيس الحي، وأخبره أنهم ينظمون فريق دعاية للمزارعين الفقـراء، وتمنَّـى لـو يـحضر "تشـين" الحفل. وعندما رفض، غضب الابن:

- لماذا لا تذهب إلى هناك؟ أنت ضيق الأفق، لا يمكنك قضاء عُمـرك كلـه في نهـر "قـوارب التنين".

- لقد ولدت في نهر "قوارب التنين"، وما زلت أعيش هنا، إلى أين يجب أن أذهب؟

- لكنَّ أجدادنا أتوا من أماكن أخرى، من أماكن بعيدة.

صمت "تشين"، لم يسعفه ذهنـه بإجابـة مناسـبة، لكنـه لم يتحمَّـل خـذلان ابنـه، فوعـده بالذهاب إلى مجلس المقاطعة. ازدادت زوجته خضـوعًا مـع تقـدُّمها في العُمـر، تعمـل طـوال النهار بكدٍّ في صمت. عندما يقول الرجل إن عليه الذهاب، يجب أن تبدأ في تحضير حقائبه.

لذا، في يوم مليءٍ بالثلج، وبأزهار الـ"تونجزي" البيضـاء، قـام ابـن "تشـين لاو دا" بالإبحـار بالقارب مع والده في سعادة.

مرَّ كل شيءٍ بسلالة. لم يكن ذلك الوقت الذي يدعو فيـه الربيـع الطبيعـة إلى الاستيقاظ بعد. ففي الربيع، يختبر كل شيءٍ على الأرض الحرارة بأوراقه، كل ورقة تنكمش وكأنها سوف تسـقط في أي لحظـة. بعـد مـرور المُضـيقين، تحـرَّك قـارب البازلاء إلى الأمام مُتبخترًا. كان ابن "تشين" ماهرًا، فقفـز في النهـر وحمـل القـارب

على كتفه حتى يمنعه من الاهتزاز. سحب القارب إلى الرمل، فأصدر صوت "تساتسا"، حافظ الابـن على شفته العليا ثابتة، وصاح بصوت يزعج الأرواح:

- اسحب.. اسحب.. اسحب..

ردَّد "تشين" بتململ:

- اسحب.. اسحب..

كان منحدر النهر في هذه المنطقة غير معتـاد. ترقـد في بدايتـه صـخرة كبـيرة، تسـبَّبت في تدمير عدَّة أشرعة. دفع "تشين" القارب سريعًا، في اتِّجاه الصخرة، ثم قـام فجـأةً بتغيـير اتِّجـاه الدفة، قبل ارتطام القارب بالصخرة مباشرةً. مرَّ القارب بجانبها ودخل المياه الهادئة.

بعد عبور المنحدر، صعد ابنه إلى القارب مرَّةً أخرى، بوجه شاحب.

- أبي، أظنني كدت أفقد أنفاسي.

- لا يصح أن تكون مشتَّت الذهن خلال اجتيازك للمنحدر، ولا يمكنك الإبحار بمفـردك إن كنت منفعلًا، هذا ليس أمرًا هيِّنًا.

أومأ الابن مُوافقًا. جلس "تشين" عند المقدمـة للتـدخين، أشـعل ابنـه عـود ثقـاب بسرعـة وقدَّمه له. رأى "تشين" أذني ابنه عن قرب، كانتا ورديتي اللون، تظهـر فـيهما العـروق الزرقـاء من أسفل الجلد. اضطر إلى مُعاندة رغبته في احتضان ابنه، مثلما كان يفعل عندما كان صغيراً.

لاحظ "تشين" كثيراً من التغيُّرات عند دخوله مبنى المقاطعة. تحوَّلت المباني الخشبية على جانبي الطريق إلى اللون الأحمر الفـاتن. أمـا وجهـتهما، فكانـت لجنة المقاطعة الثورية، عند مكاتـب المحافظـة، حيـث كـان الضـابط المُلتحـي يقيم منذ أعوام. فقد الأسدان القائمان عند البوابة رأسيهما، وأصـبح العـاملون

بالداخل يرتدون قبَّعات صفراء موافقة للصيحات الجديدة. رحبوا بـ"تشين" وأنزلوه في أحد الفنادق. أخبروه أنه سيتسلَّم ثلاث وجبات يوميًّا، كما سيحصل على يوان ونصف اليوان يوميًّا. أتى كثير من الناس لزيارته، واحدًا تلو الآخر، وصافحوه بحرارة. جرى كل ذلك على مرأى ومسمع من ابنه.

لاحقًا، تم تنصيب "تشين" قائدًا لفريق الدعايا للمزارعين الفقراء، لكن لوقت طويل، لم يفهم "تشين" طبيعة مهامه الوظيفية، كان الآخرون يقودونه مثل الثور. كل صباح بعد استيقاظه، يقوم أحدهم بدعوته إلى اجتماع ما. كان يجلس بلا أدنى فكرة عن موضوع الاجتماع، يستمع فقط إلى حديث الآخرين ويُصفِّق لهم. يقوم أحيانًا بقراءة اللائحة، بينما ينظر الحاضرون إليه، وهو يشعر بالحرج. كانوا يرسلون إليه في بعض الأحيان العديد من الكتب.

في إحدى الليالى، وهو مُستلقٍ على السرير، يفكر في العودة إلى نهر "قوارب التنين"، سمع نقرًا خفيفًا على الباب.

عندما فتح الباب، رأى سيِّدة في منتصف العُمر، بشعر قصير ووجه عذب مُنهك. كانت ترتدي معطفًا رماديَّ اللون، ولون كُمَّيه أزرق، وله خلفية مرتفعة بشكل لطيف. عندما فتح "تشين" الباب، ابتسمت فورًا، وقالت:

- يبدو أنك تصرَّفت على راحتك.

شعر "تشين" بالبهجة، لقد ميَّز سليلة الـ"هاكا" من تجاعيد وجهها.

- أهذا أنتِ!

وقفت أمام الباب النصف مفتوح، ومالت لتتفحَّص الداخل بعناية:

- هل أنت منشغل؟

أفاق من أفكاره:

- كلّا، كلّا.

وأفسح لها الطريق للدخول.

ضمَّت كتفيها من البرد. تفحَّصت المكان، ثم جلست على حافَّة السرير. قدَّم إليها "تشـين" نصف كأس من الماء، ووضع الإناء على الطاولـة المجـاورة لهـا. ابتسـمت تعبـيرًا عـن تقـديرها لضيافته، ثم غمزت له. شعر كلاهما بالحرج كأن الصدأ يطفو حولهما في الهواء الثقيل.

بادرت بالحديث:

- لم تتوقَّع زيارتي هذه قط، أليس كذلك؟

ثم قالت في لوم:

- ربما نسيت أمرى تمامًا!

عجز "تشين" عن الكلام. في الواقع، كان قد قضى فترة في هذا المكـان بالفعـل. كـان يشـعر بالسلام الداخلي لمجرد المرور أمام متجر "التوفو" الخاص بهـا، أو الجلـوس عنـد مزرعـة التـين الأخضر. كان يستعيد تلك المشاهد كأنه يتذكَّر مسرحية شاهدها.

شاب وجهها الحزن، وهي تقول:

- الرجال ينسون!

لم يكن هناك جدوى من الجدال، لكنه تمنَّى لو يخبرها بأنـه لم ينسـها قـط. ورغـم فقـده الرَّغبة في المرَّة الأخيرة، كان جسدها محفورًا في دمه، يتبعه في كل مكان بسلام.

لم يكن شوقها إليه طاغيًا، لكنها أكملت حديثها هامسـة. قالـت إن حياتهـا لم تكن دائمًا جيِّدة. سـبق زواجهـا مـن "شـياو يـوان" أيامًـا جميلـة جمعـتهما معًـا.

لاحقًا، كانت هناك حركة ضد "اليمينيين"، فلم يعد بإمكانها العمل في رابطة النساء، لذا تحوَّلت إلى التدريس. اتضح أن التدريس أكثر سلامًا. كان "شياو يوان" مدير المدرسة، وكانت هي تدرس الرياضيات لتلاميذ الصف الأوَّل. لكن بعد وقت قصير، قُدِّم اتهام ضد "شياو يوان" وأوقفوه عن العمل أكثر من عام، ثم نُقل إلى الحقول بعد الثورة الثقافية. كانت تقوم في هذا الوقت بتنظيف دورات المياه في المدرسة، ولم تعد ابنتهما تستطيع التعلُّم في المدرسة، بسبب تعرُّضها للمضايقات أينما ذهبت.

قالت:

- ألا تعرف "شياو يوان"؟ كان منظم الكادر؟

استمع "تشين" إليها بتعاطف، مصدرًا تنهيدة من وقت إلى آخر.

فجأة، انهمرت دموعها ونظرت إلى "تشين" بضعف:

- لديك شعبية الآن، لذا أتوسَّل إليك...

ذُهل "تشين".

- تتوسَّلين إليَّ؟

- أنت مسموع الكلمة الآن، أرجوك قُم باستثناء في صالح المدرسة، اطلب منهم تحريره، إن تم تحريره فقط، فسوف تصبح عائلتنا أسعد.

لم يدرِ "تشين" بما يجبها. فهو لا يعرف موقعه بالتحديد في حكومة المقاطعة. من سوف يُطيعه؟ رأت تردُّده فانهمرت الدموع من عينيها مثل الشلَّال.

اقتربت منه، وقالت:

- ساعدني يا "تشين"، من أجل الأيام الخوالي. أعدك بأن أقدِّم لك أيَّ شيءٍ تطلبه!

شعر بالغضب، كانا مثل شخصين واقفين على جبلين مختلفين، قلباهما متباعدة تمامًا. كانت هناك أغنية تقول:

"إن أراد اثنان الحديث إلى بعضهما البعض، يجب أن ينتظرا لمدة عام".

بالنسبة له، ستظل هذه المرأة غامضة وغير متوقعة، كما تقول الكلمات لاحقًا.

- أوه، ماذا قلتِ؟ إن كان بإمكاني مساعدتكِ، فلا بُدَّ أن أفعل...

شعرت بخيبة الأمل.

- هل تقول إنك لن تساعدني؟

جاء صوت قوي من الخارج، ودخل ابنه فجأةً.

- أبي...

حل الصمت على الغرفة فورًا.

رحب بابنه وحمل حقيبة ظهره.

- هل أتيت يا "بوه أر"!

- أجل، طلبت منّي أمي توصيل بعض الملابس إليك، وبعض البيض المطهو، سيكفيك لفترة.

نظر "بوه أر" والعرق على جبهته إلى السيِّدة الجالسة على حافة السرير بعينين لامعتين.

قال "تشين":

- لكنَّ الظلام حلَّ، لماذا لم تأتِ مُبكِّرًا؟

ابتسم ابنه، وأجاب:

- لقد طلبت منّي عدم الإبحار بالقارب وحدي، لذا أتيتُ سيرًا.

أخرج بعض البيض وهو يتحدَّث.

عاد ابنه إلى القرية ليعمل في الحقـل، لكـنَّ يديـه لم تـزل بيضـاوين وقـويتين، مثـل يـدي الطالب، كما كانت أظافره مُشذَّبة. كان بإمكانه الإمسـاك بـثلاث أو أربـع بيضـات في الوقـت ذاته.

كانت الدموع تملأ وجه السيِّدة وهي تُحملق – بانبهار - في ابنه. شعر "تشين" أن الوضـع خاطئ، وهو ينظر إلى جسدها النحيل، لكنه لم يعرف ما يتوجَّب عليه قوله ليجعلها ترحل.

ثم سألت هي، بصوت غريب:

- ما اسمك؟

توقَّف ابنه، ونظر إلى "تشين"، ثم نظر إليها.

- أنا؟

- أوه، اسمه "بوه أر"، "بوه أر".

تمتمت:

- "بوه أر"؟ لقد رأيتك من قبل!

ابتسم لها الابن ابتسامةً مُشرقةً:

- ربما، كنت تلميذًا في مدرسة المقاطعة.

عرف ابنه أنها كانت مُعلِّمةً في المدرسة الابتدائية، فسألها إن كانـت المدرسـة قـد فُتحـت ثانية، وعن أي معلومات تعرفها عن الاختبارات. تكلَّمت وهي شاردة الـذهن، وثرثـرت حتـى أخبرته بكل ما تعرفه. بدت على وجهها الرغبة في تذوُّق ذلك الطعام الشهي على المائدة.

فجأةً، أغلقت الأضواء وعادت مرَّتين. شعر "تشين" بالراحة.

- يبدو أنه حان وقت إطفاء الأنوار، يقوم الفندق بتذكرتنا.

كان يظهر من صوته أنه يطلب منها الرحيل.

وقفت بغير اتِّزان، وتوجَّهت بصعوبة إلى الباب. رافقها "تشين" إلى نهاية الممر، وهبط معها طابقين مُظلمين إلى الأسفل. سارا واحدًا خلف الآخر. وتمكن "تشين" من رؤية كتفيها الصغيرتين الرقيقتين بصعوبة، فشعر بألم في قلبه.

قال "تشين":

- سأحاول تنفيذ طلبكِ.

استدارت المرأة فجأةً وأمسكت بيديه وهي تصرخ:

- هذا ابني! هذا ابني!

صارع "تشين" ليُحرِّر نفسه من قبضتها:

- ما هذا الهراء؟

- لا يمكنك الإنكار، لقد تعرَّفت عليه. هذا هو الشاب الذي رأيته في أحلامي لسنوات.

وأضافت بصوت حالم:

- أعرف أنه ابني.

أسرعت نحو السلَّم.

- كان أمامي... سأناديه، سأناديه!

أمسك "تشين" بها، فراحت تحاول التملُّص والصراخ، مما أفقدهما اتِّزانهما ليسقطا من على السلَّم.

في الصباح التالي، أيقظ "تشين" ابنه، وتركا المدينة الصغيرة دون تردُّد.

سأله ابنه:

- من تكون تلك السيِّدة يا أبي؟ ماذا طلبت منك؟

لم يُجب "تشين".

جلس ابنه على الرمل المُبلَّل إلى جانب النهر، وعيناه تتأمَّلان القوارب الطافية. عقد حاجبيه على وجهه الوسيم، وقال:

- يا أبي، لا تُخفِ عليَّ الأمر.

احتضن "تشين" رأس ابنه، وقال:

- سأخبرك يا "بوه أر"، انتظر من فضلك.

صبغ النهار النهر باللون الأحمر. كانت دماء تلك المرأة تسري في جسد ابنه. لم يستطع تخيُّل الوضع حال اكتشاف ابنه الأمر. سوف يُحلِّق بعيدًا مثل طائر، سوف يذهب إلى مكان لا تربطه بنهر "قوارب التنين" أي صلة.

بعد العودة إلى نهر "قوارب التنين"، وضع "تشين" الأمر كله جانبًا، وألحَّ على "باتشا" كي تعثر على زوجة مناسبة لابنهما.

بعد وقت قليل، وجدا فتاة صالحة، وجهها أحمر مستدير مثل ثمرة فاكهة ناعمة، لها ذراعان قويتان وكذلك ساقاها، يمكنها إنجاب الأطفال والعمل في الحقل. لم يُخبرا ابنهما إلا قبل إتمام الزِّفاف بشهر واحد فقط، حينما طلب "تشين" من ابنه حمل هدية الزواج إلى منزل عائلة الفتاة.

ثار جنون الابن وقلب الطاولة في وجه أبيه، لكن "تشين" لم يتأثَّر، وعزم على إكمال خطته. وبالفعل، وجد شخصًا يتمم الترتيبات المطلوبة، وفي ليلة الخطبة، شرب ابنه الخمر، كان النهر ثائرًا ساعتها.

قبل بزوغ ضوء النهار مباشرةً، رحل الابن. واجه العواصف بشجاعة، وبرأس مكشوف. دفع قارب البازلاء في نهر "قوارب التنين".



كانت سحابة من الدخان السميك ترتفع مرَّةً أخرى، مُحاطة بضوء الشروق المُبهر. غنَّـى "تشـين لاو أر" في انسجام مع جمع كبير من الرجال، وهم يُودِّعون الآلهة.

"واحدة لوداع سيِّدة النشيد: الإلهة

اثنتان لوداع سيد النشيد: شيوي ليانغ تشنغ

ثلاثة لوداع عازف الطبول: تانغ سان تسانغ

أربعة لوداع المزارع: إله الأغنيات الأربعة

خمسة لوداع الآلهة الخمسة للعناصر الخمسة

ستة لوداع الكاهن ليو فانغ

سبعة لوداع أخوات السماء السبعة

ثمانية لوداع الإله ليوي دونغ بين

تسعة لوداع البقرات التسع التي تدفع العربات

عشرة لوداع شوان ين بوديساتفا".

يؤمن شعب "تو چيا" بآلهة مُتعدِّدة، لهم أيادٍ وأقدام مُغطَّاة بالزَّخارف، عندما يتحرَّكـون، تهتزُّ الزخارف وتنثر رائحة الفانيليا.

سار "تشين" حول النهر سبع ليالٍ وسبعة أيام، في قلق وإحباط. لكنه الآن سيسـافر بعيـدًا بقلب مُفعم بالسلام.

في القديم، كان يُعرف أن نهر "قوارب التنين" هو نهر غامض، جزء منه هادئ مثل الرجـل الرَّزين والبقية باردة. قد يكون أحيانًا رقيقًا مثل فتاة عذراء، وأحيانًا يفقد عقله مثـل سـيئات السُّمعة. استدرج النهر ابنه بسهولة، وتحطَّم قاربه على الصخرة الكبيرة. كـان بوسـع "تشـين" سماع صوت الضوضاء الصاخبة التي تُثير الـروح بوضـوح. كـما كـان بوسـعه رؤيـة سرب مـن الطيور السوداء تنتشر في السماء المظلمة، المُلبَّدة بـالغيوم، وكانـت ذراعـا ابنـه مثـل ضربـات البرق، تنثر هالة ضوء قرمزية فوق النهر الهادر.

لم يستطع أبدًا فهم ما كان يبحث عنه ابنه. لقد أعدَّ مراسم الاحتفال الدينية، فجلـب لـه مجموعة من كبار قارعي الطبول، اصطفُّوا على ضفة نهر قوارب التنين طوال الليل.

احتضن "تشين" "باتشا" المنهارة، وسأل نفسه، كيف سيكون الحال بعد موتـه؟ ومـاذا عـن النهر؟ لم يكن يتخيَّل حينها أن تحويل المنزل الحجري إلى مبنى مـن طـابقين أمـر ممكـن، وأن يُزين البلكون بالورد، مثل العائلات المُتمدِّنة. كما لم يتوقَّـع أن يـأتي يـوم لا يكـن فيـه لقـارب البازلاء أي دور في توصيل البضائع. ظهرت عدَّة شاحنات مزعجة تدخل القرية لتوصيل تسـلُّم البضائع. وكذلك النساء المحليات الجميلات. دُهـن قـارب البـازلاء وجُـدِّد، مثـل سريـر جديـد يتأهَّب لمناسبة زفاف، يُغطِّيه قماش زاهي الألوان. أصبح يحمل الرجال والنسـاء، ويسـير بهـم في النهر، يتجوَّل ببُطءٍ في سلام.

ووحده نهر "قوارب التنين" ظلَّ كما هو، يجري كعادته من الأزل إلى الأبد.

في الماء، يختبئ كثير من الحقائق.

تخلَّص من الحزن!

عبر "تشين لاو دا" حاجز الستين من العُمر، وقد عاش بمصداقية وكرامة. كان له ابن وحفيد، كذلك أنهى حياته بسلام. أعجب سُكَّان القرية جميعًا بذلك. وبعد انتهاء طقوس الأيام السبعة، وقف كل من كان ينتظر في الميدان وتحت شجرة الـ"جنكة"، ومسحوا أعينهم، وصبُّوا كامل اهتمامهم إلى رفع ودفن النعش في الجبل.

فقد "تشين لاو أر" معظم طاقته بسبب الحزن، لكنه تمكن من استخدام المتبقى منها. أسند النعش بيديه النحيلتين المُرتعشتين وصاح:

- بمعاونة أرواح السماء والأرض، الشهر والعام، النهار والوقت، نُحرِّك النَّعش. تسع بقرات في الأمام، والقدِّيسون في المؤخِّرة. القدِّيسون الثمانية يجمعون قواهم، وها نحن نرفع النَّعش.

تصلَّبت عضلات أكتاف الحاملين الثمانية عند سماع صيحات "تشين لاو أر". وارتفع النَّعش الأسود الكبير عن الأرض.

سار حفيد "تشين لاو دا" ببُطءٍ أمام النعش ومعه اللوح التذكاري.

وأنشدوا المرثاة:

"نغمات ناي (البامبو) والطبل المنحدر من السماء

ستصحب الفقيد إلى السماء الخالية من الهموم".

بعد عدَّة أعوام، صار لحفيده عشرات من قوارب البازلاء، كان يطلب من الناس المساعدة، وأحيانًا يقوم بتعيين عاملين. لم يُفكِّر أن الالتحاق بالجامعة هو الطريق الوحيد إلى النجاح، ولم يرغب في الابتعاد. زيَّن كل القوارب، ودهنها بألوان مُبهجة. أصبح النهر مُلوَّنًا كذلك. استقبل الحفيد السُّيَّاح من المقاطعة الواقعة في الضفَّة الأخرى بقواربه.

يصيحون عند المرور إلى جوار المضايق:

- اسحب! اسحب! اسحب!

كل القوارب تُنادي هكذا فتجعل النهر حيًّا مثل سوق في الخريف.

يأتي زُوَّار المدينة من أماكن بعيدة مختلفة. كانت الصخور والأحجار على نهر "قوارب التنين" تُبهرهم. فتومض الكاميرات الخاصة بهم. كان الحفيد وشركاؤه يستمعون إلى صيحات الانبهار بهدوء وصبر، وينظرون بعيدًا إلى السماء الزرقاء.

كان يومًا خريفيًّا شيِّقًا، يحمل فيه قارب البازلاء مجموعة من شباب المدينة. مالت فتاة بعينين لوزيتين واسعتين وشعر قصير على حفيد "تشين لاو دا" وظلَّت تطرح عليه الأسئلة. عندما قفز الحفيد إلى الماء لسحب قارب البازلاء، سألت الفتاة مرَّةً أخرى:

- لقد سمعت أن قائدي القوارب في نهر "قوارب التنين" لا يرتدون السراويل في المياه.

فأجاب بلا مُبالاة:

- هذا صحيح.

سألت عن السبب، فأخبرها أن السراويل المُبلَّلة تحتكُّ تحت المياه بمؤخِّراتهم فلا يتمكَّنون من السير.

- لكن لماذا ترتدي سروالًا الآن؟

توقَّف وابتسم، وقال إنه يخشى إحراجها.

واصلت النظر إليه، وتمتمت:

- لسنا خائفين، فلتخلعه!

انهمر المطر في ذلك اليوم. صاح ركَّاب القوارب يريدون الاحتماء باليابس. كان هناك بعض منازل المزارعين الجديدة على الضفَّة وغابات "البامبو" الجميلة. كان يتوجَّب على الناس الذهاب إلى أحدهما للاحتماء. أسرع الحفيد والفتاة إلى الكهف مباشرةً.

وهناك، وجدا في الحفرة قطعًا من أطباق مكسورة وحطبًا. لم يتوقَّف المطر. جلسا على الصخر وتحدَّثا باسترخاء.

- ما اسم عائلتك؟

- "تشين"، إنه أشهر الأسماء في "تو چيا".

أشار إلى الجبل الذي تطلُّ قمَّته من بين السُّحب:

- دُفن جدِّي هناك.

أخبرته الفتاة أنها لم تغادر المدينة قط. يعمل والداها بأعمال خاصة. كانا يبيعان الملابس، جمعا كثيرًا من المال، لكنهما لم يعرفا في حياتهما سوى ذلك، تقصد جمع المال.

استمع الحفيد إلى الفتاة وهو يتأمَّل شفتيها الحمراوين.

توقَّفت الأمطار، وبينما الفتاة تعود إلى القارب انزلقت قدمها. تقدَّم الحفيد بتلقائية لمساعدتها، فابتسمت له ابتسامة ذات مغزى، ودسَّت وجهها في دفء كتفه.

فهرس

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

.1	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.2	اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
.3	كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.4	مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
.5	لأننا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
.6	قصص بسيطة	إنجو شولتز	ألمانيا
.7	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
.8	الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
.9	تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
.10	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
.11	موسم الساحرة	أرني ثورارينسون	أيسلندا
.12	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
.13	احترس من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
.14	سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
.15	السيمفونية البيضاء	أدريانا ليسبوا	البرازيل
.16	نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.17	مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.18	صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
.19	فندق الغرباء	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
.20	مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
.21	جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
.22	أبسنت	أيفر تونش	تركيا
.23	أحلام محطمة	بيولنت سينوكاك	تركيا
.24	ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
.25	امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
.26	توباز	هاكان جنيد	تركيا
.27	خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
.28	ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
.29	الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
.30	الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا

.31	جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
.32	لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
.33	مينتا	سولماز كاموران	تركيا
.34	نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
.35	الموت في بابل، الحب في إسطنبول	إسكندر بالا	تركيا
.36	حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
.37	حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
.38	ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
.39	سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
.40	كافكا	فرانز كافكا	التشيك
.41	المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
.42	جرائم براج	ميلوش أوربان	التشيك
.43	المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
.44	العقل المدبر	دافيد أونجر	جواتيمالا
.45	امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
.46	خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
.47	ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
.48	الحياة هنا	ميرال قريشي	سويسرا
.49	بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
.50	رحلة الانتقام	جوو دا شين	الصين
.51	سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين
.52	النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
.53	رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
.54	بنات الصين	يي مِاي	الصين
.55	المغفلون	إريك نويوف	فرنسا
.56	المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
.57	النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
.58	القنّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
.59	الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
.60	صانع الزجاج	إرميس لافازانوفسكي	مقدونيا
.61	إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
.62	صيف بارد جدًا	روي ياكوبسن	النرويج

63. دكان الساري	روبا باجوا	الهند
64. جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
65. العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
66. المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا

صدر من كتب عامّة:

67. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
68. قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
69. هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
70. الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
71. الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
72. يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
73. خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
74. أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
75. قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
76. النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
77. لن أمنحكم كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
78. جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
79. الجري	ثور جوتاس	النرويج
80. عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

81.	النقطة صفر	ناريك ماليان	أرمينيا
82.	وداعًا أيُّها الطائر	أرام باتشيان	أرمينيا
83.	القادم متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
84.	ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
85.	ورشة الشيطان	جاتشيم توبول	التشيك
86.	خريطة آنا	مارك سينديلكا	التشيك
87.	الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
88.	التطهر	صوفي أوسكانين	فنلندا
89.	لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
90.	هذه هي الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا
91.	بيتي بو	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
92.	كرافت	يوناس لوشر	سويسرا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب عامّة:

93.	بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
94.	القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
95.	ضد الانتخابات	ديفيد فان ريبروك	بلجيكا
96.	اللعب مع الكبار	يوريس ليوندجيك	هولندا

#كتب_مختلفة #الصين



"بنات الصين"، مجموعة قصصية تعاني كل بطلة من بطلاتها بشكل مختلف. تقع البطلة الأولى الجميلة الذكية الصماء ضحية الصراع بين رئيس قبيلتها وزوجها الغريب عن منطقتها. وتتحدى البطلة الثانية ظروف مجتمعها وظروف الحرب على القبيلة التي ينتمي إليها حبيبها لتلتقي به. أما البطلة الثالثة التي تحاول أن تجعل لنفسها مكانًا مرموقًا، تصطدم بانتحار أختها بسبب ما تعرضت له من اعتداء. والبطلة الرابعة تعاني الظلم والاضطهاد الطبقي في بيت أهلها وبيت خالتها وحتى مع صديقتها، لتهجرهم وتهجر حبيبها بحثًا عن مستقبل أفضل لها في المدينة. أما الأخيرة رغم غدر حبيبها بها ومقاطعة أهلها صلتهم بها، فإنها تكافح كي تصل إلى مكانة سياسية عليا. تسلط "يي ماي" الضوء دائمًا في كتاباتها المعاصرة على كفاح أهل القرى لتحقيق الرقي نفسه الذي ينعم به أهل المدن، وخاصة الفتيات. كما تُبرز الكثير من عادات وتقاليد سلالتها "التو چيا"، إحدى الأقليات الصينية.



يي مِاي

أديبة صينية تنتمي لقومية "تو چيا"، إحدى الأقليات الصينية. أنتخبت عام ٢٠١٦ عضواً باللجنة العليا لاتحاد الكتاب بالصين، ونائبًا لرئيس جمعية النثر الصينية. نشرت الكثير من الروايات، والقصص القصيرة، والمقطوعات الشعرية، وغيرها من الأعمال الأدبية. كما اشتهرت بالقصص القصيرة مثل: "نهر قوارب التنين الكئيب"، و"تسعة أصوات"، و"الحب الأول". وكتبت العديد من سيناريوهات المسلسلات التليفزيونية أشهرها "نهر الرجال". كُتبت العديد من الدراسات النقدية عنها. ونالت العديد من أعمالها جوائز أدبية كما أعيد طبعها وترجمتها إلى لغات أخرى. ويمكن أن نستشف من رواياتها وجهات نظرها الثقافية عن الأقليات بالصين وخاصة القومية التي تنتمي لها، والكثير من انتقاداتها وتأملاتها حول الحداثة، ترصد فيها الاختلافات بين الثقافة التقليدية والحضارة الحديثة. كما تعكس الكثير من المظاهر الإيجابية في حضارتها العرقية، وهو ما يشكل إبرازًا كبيراً للتقليد الأدبي الصيني الحديث، وخاصة أدب الأقليات بالصين. هذه هي المجموعة القصصية الثانية التي ترجمها لها العربي للنشر والتوزيع بعد أن ترجمت لها "سبع ليالِ في حدائق الورد"، وحضرت حفل إطلاق وتوقيع الرواية في معرض أبوظبي الدولي للكتاب عام ٢٠١٧.





ISBN 978-977-319-385-0





60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg